بيتٌ في المرتفعات

للكاتب الأميركي الكبير
أرسكين كالدويل

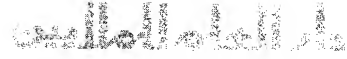
نقله إلى العربية
منير البعلبكي

دار العلم للملايين
ص.ب : ١٠٨٥ - بيروت
تلكس : ٢٣١٦٦ - لبنان

A House in the Uplands

by

Erskine Caldwell



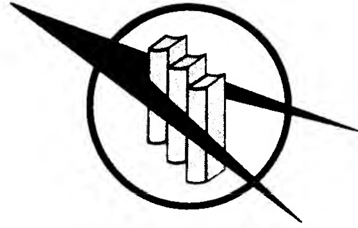
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو

ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩

برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٥٨

الطبعة الثالثة

شباط (فبراير) ١٩٨٨

١

كانت ريح جنوبية ، واهنة رطبة ، تهب من الوادي ، وتطفو فوق الحقول القائمة على سفح الهضبة والمحروثة منذ قريب ، فتثير أوراق شجرات البلوط الطويلة الحمراء المحيطة بالبيت الهرم . كان الربيع قد أطل ، وكان الغسق قد ران على الدنيا . وكانت عصافير الليل، التي جثمت صامتة على الاشجار اجتناباً لحرارة النهار ، قد أخذت تصفق باجنحتها على نحو موصول . أما وقد استيقظت تلك الطيور الآن ، فأن سقسقاتها الصداحة لن تكف حتى الفجر .

وفي أدنى منحدر السفح ، على مبعدة نصف ميل ، طفت سحابة زرقاء من دخان الخشب ، على شكل رقاقة ناعمة ، فوق غابة صنوبر كانت النار تضطرم فيها ضارية ، ومن غير ان يذكيها احد ، منذ ايام عديدة . وبين الفينة والفينة كان ألق مشرق مفاجيء ينبعث من لهب ضارب الى الصفرة ، كلما انتهت النار الزاحفة الى وعاء صمغ الصنوبر فوق احدى الشجرات .

وكانت الارض المنخفضة ، الواقعة في اتجاه الجنوب ، نحو

الشاطيء ، مدىً مستوياً متناثر البيوت حافلاً بالسرو المكسوّ بالطحلب ، وببرك الماء الراكدة ، وبنصـــال النبات الصامتة الخضراء . والى الغرب من الارض المشتعلة فيها النار انتشرت، على مرمى البصر ، احراج صنوبر كثيفة قاتمة فكأنها سجادة متجعدة فوق الارض المتموّجة. والى شرقيّها كان النهر الأصفر الموحل يجري، في غير ما كلل، نحو البحر. أما في الشمال، فكانت الهضاب الصلصالية الحمراء، ذات الاخاديد ، الهضاب المثلّمة المفلّعة ، تُقَطّع سماء بيدمونت الشاحبة .

وسمعت لوسيان وقعَ قدمي مارتا الحافيتين الثقيل، فيما كانت تجتاز الشرفة في تؤدة . وما هي الا لحظة حتى كانت مارتا ، السوداء الى ابعد الحدود ، البدينة الى ابعد الحدود ، تقف قرب كرسيّها .

وسألتها من غير ان ترفع بصرها :

— « ما عندك ، يا مارتا ؟ »

وفي زفرة كئيبة رفعت صدرها الثقيل الى أعلى، نقلت مارتا ثقل جسدهـــا من قدم الى أخرى . كانت دمثة الخلق ، حسنة التفهـّم ، الى حدّ مثير في كثير من الأحيان ، ذات حساسية بالغة . كانت تبكي، في ما يبدو، ساعة تشاء، وكانت جداول من الدموع تجري في غير جهد وفي غزارة على خديها الأسودين اللامعين . كانت في العقد السادس من عمرها ، في موضع ما بين الخمسين والستين ،وكانت قد عاشت في وقت أو في آخر— وفقاً للعُرْف، مع نصف دزينة من الرجال. أما في تلك اللحظة

فكانت من غير رَجُل ، وكانت تأسف ، في صراحة ، لكونها أرملةً في سنّها تلك .

وسألتها لوسيان ، وقد أثار سكوتها عصبيّتها :

— « ماذا تريدين يا مارتا ؟ »

— « حسبتُ انك قد ترغبين في ان أجلس وأتشاكى معك قليلاً ، يا مسز لوسيان. يبدو من المؤكد ان مستر غرايدي لن يرجع هذه الليلة لتناول طعام العشاء في موعده . » وكدليل على مشاركتها الوجدانية تنهّدت تنهّداً فاجعاً واضافت : « آه ، يا لتعاستنا ! الا تعتقدين انه كان ينبغي ان يكون هنا منذ فترة لو انه كان يعتزم العودة فعلاً ؟ »

وأغمضت لوسيان عينيها ، في إحكام ، لحظة من الزمن قبل أن تأنس من نفسها القدرة على الاجابة. حتى اذا عاودت فتحهما رأت جسد مارتا الضخم يتمايل تمايلاً موقّعاً ، وكانت كل حركة من حركاتها تلك مصحوبة بزفرة عميقة محزنة .

وقالت ، محاولة ان تسيطر على صوتها وتحافظ على هدوئه :

— « لست ادري . لا يزال ثمة متسع من الوقت ، يا مارتا. »

— « ليس هناك متسع ابداً لعودة الرجل الى منزله » — وتمهّلت لحظةً ثم اضافت : « خاصة اذا كان رجلا متزوجاً. »

ولم تجب لوسيان . واطلقت مارتا تنهّدةً عميقة ، كرةً اخرى ، راغبةً اشدّ الرغبة في ان تلفت نظر لوسيان الى تأثرها ومشاركتها الوجدانية .

— « لقد أنهيت كل شيء في المطبخ ، وأحسب ان في

استطاعتي ان اضع عشاء مستر غرايدي على الموقد حيث يبقى حاراً بعض الشيء ، فترة قصيرة من الزمن ، اذا لم تخمد نار الحطب بأسرع مما ينبغي ، واذا ما رجع الليلة الى البيت على اية حال. أنا في الواقع لا أعرف مطلقاً ما الذي يجب عمله مع مستر غرايدي على وجه الضبط ، » قالت ذلك وقد تحوّلت كلماتها ، آخر الأمر ، الى غمغمة مثيرة غير واضحة .

— « هذه فكرة حسنة يا مارتا . »

كذلك قالت لوسيان في شيء من الغضب ، راجيةً ان يكون في جرْسها ما يؤذن بأنها تريد من مارتا ان تنصرف وتتركها وشأنها . ولكن مارتا لم تتحرك . فأضافت في قوة :

— « في استطاعتك ان تنصرفي الآن . »

فقالت مارتا في غير ارتياح :

— « امرك ، يا سيدتي . »

ومع ذلك فأنها لم تنصرف . وحدجتها لوسيان بنظرة ترشح بفروغ الصبر . كانت شفتا مارتا قد بدأتا ترتعان كدأبهما كلما كانت على وشك البكاء . وتلملمت بعض الشيء ، ثم ان سيلاً من العبرات شرع ينهمر فوق كل من خديها الأسودين .

— « مس لوسيان ، اذا استولت عليك الوحشة الى حد فظيع يجعلك غير قادرة على احتمالها وحدك ، فأن في امكاني ان ابقى لحظةً لكي أخفف عنك وطأة الوحدة فترة قصيرة من الزمن . » وأعولت اعوالاً غير مكبوح . « أنا اعرف ما معنى أن يكون الرجل بعيداً في مكان آخر في ساعات الليل حين لا

يدعوه الى ذلك عملٌ تجاري يقوم به . ان المرأة في مثل هذه الحال تكون وكأنها لا بعل لها ، بل تكون شراً من ذلك الى حد بعيد، لأنه يكون لك في هذه الحال رجلٌ ولكنكِ لا تملكينه.»
وأعولت أسىً وحزناً . « ويبدو من غير شك وكأن مستر غرايدي لن يرجع الى البيت كرة اخرى هذه الليلة . وليس مما يساعدك في شيء البتة ان تبقي وحـــدك طول الوقت . سوف كتفي بالجلوس لأكون الى جوارك ، ولأحدثك عن الحيـــاة القاسية التي عشتها مع الرجال في زمــــاني . » قالت ذلك ، وانقلبت كلماتها ، كرةً اخرى ، الى غمغمة غير مفهومة .

فقالت لوسيان في حدة :

— « سوف اكون في خير ، يا مارتا . في استطاعتك ان تنصرفي الآن الى بيتك.»

فأجابت مارتا من غير اقتناع :

— « امرك يا سيدتي . »

وانتظرت ان تفارقها مارتا ، وهي اشد ما تكون رغبةً في التوحّد . ونقلت مارتا ثقل جسدها من قدم الى قدم ، كرة أخرى ، وتنهدت على نحو ينضح بالمشاركة الوجدانية . وظلت الدموع تنهمر على خديها .

وغمغمت مارتا في زفرة :

— « مسزّ لوسيان ؟»

— « ماذا ، يا مارتا ؟ »

— « ايّ شيء في العالم تحسبين ان مستر غرايدي يصنعه

كلما غاب عن المنزل كغيابه هذه الليلة ؟ ألا يقول لك شيئاً البتة عندما يرجع ؟ أتعتقدين انه يعاشر سيدة صديقة لا يجوز له ان يعاشرها ؟ آه، يا لتعاستنا ، لا شك في ان جماعة الرجال يمكن ان يكونوا اقسى جماعة في العالم يعيش معها الانسان، بعض الشيء» .

واهتز جسدها بزفرات الأسى ، عندما كفت عن الكلام وراحت تربت على خديها بزاوية مئزرها .

— « مس لوسيان ، يجب عليك من غير شك ان ترفعي صوتك وتقولي شيئاً لمستر غرايدي حول غيابه هذا . لو كان عندي رجل يبقى خارج المنزل على هذا الشكل لقلت له رأيي فيه ، ولما خجلت منه مطلقاً . هذه هي الطريقة الوحيدة في هذا العالم الضخم العريض التي تجعل الرجل يسلك مسلكاً حسناً . انك تعلمين ، كما اعلم ، انه ليس هناك اية ذرة من المنطق في تجشم جميع صنوف البلاء للعثور على رُجل اذا لم يمكث قط في البيت ليقوم بالشيء الواجب عليه . » وتنهدت تنهداً عميقاً . « ليس هناك اي شيء في العالم يستطيع أن يحل محل رجل صالح يقوم بالشيء الواجب ، في الوقت المناسب ، والمكان المناسب . »

فقالت لوسيان في جفاف :

— « كفى ! انا لا اريد ان اسمع كلمة اخرى من هذا النوع من الحديث ، يا مارتا ! »

فغمغمت مارتا في اكتئاب :

— « امرك يا سيدتي . »

— « اذهبي الى البيت الآن يا مارتا . »

فقالت وهي تكفكف دموعها تئزرها :

— « امرك يا سيدتي . »

وبعد ان اطلقت مارتا زفرة وداعيـــة تشنجّية ، مضت الى البيت متمايلة تمايلاً اخرق ، عبر الشرفة . وحين وثقت لوسيان من ان مارتا قد ذهبت ، أغمضت عينيهـــا في كلال ، وأصغت لسقسقة عصافير الليل. وراح نسيم المساء المنطلق في رفق من الارض المنخفضة يداعب بشرتها المحمومة ، فيما جلست ساكنة هادئة في الغسق الربيعيّ الطويل . وبعـــد بضع دقائق ، نهضت وانشأت تذرع الشرفة ، في تبرّم ، جيئة وذهاباً . انهـــا لم تكن تعرف كيف تعوّد نفسها ، في يوم من الايام ، انتظار عودة غرايدي الى المنزل من غير ان يفرغ صبرها . لقد بدا لها آنذاك انحياتها كلها قد أنفقت في ذلك المنزل الصامت الشبيه بمخزن القمح ، متسائلة اين هو ، وما الذي يفعله ، ومتى سيعود .

وما هي إلا لحظات حتى سمعت ضربات هراوة على الشرفة ، واذا بماما ايلزي ، والدة غرايدي ، تسير في جهد من الباب الى كرسيها الهزاز . وكانت ماما ايلزي امرأة ضخمة بدينة يتجاوز عمرها السبعين ، وكانت قد امست نزّاعة الى الخصام والانتقاد . وكان غرايدي ابنها الوحيد ، ولم تكن لتحاول اخفاء كراهيتها للوسيان . والواقع ان لوسيان عرفت انها كانت تجتنب لقاءها في كل مناسبة لتجعل حياتها بغيضة الى ابعد حد مستطاع . وبعـد سنة شبه كاملة انقضت على الزواج ، كانت لا تزال تعـــامل لوسيان وكأنها غريبة أو دخيلة .

ومضت لوسيان الى كرسيها ، وجلست .

وانشأت ماما ايلزي تهتز في كرسيها الى أمام والى وراء قبل ان تتكلم . وكـــان صرير الكرسي الهزاز الرتيب في مثل ذلك الوقت يبدو للوسيان ، دائماً ، وكأنه الدّوزنة التي لا بـــد منها لصوتها المتباكي .

واستهلت كلامها بجرْس يرشح بحب السيطرة والسلطان :

— «اي شيء كنت تصنعينه عندما جئتُ الى هنا ، ايتها الطفلة ؟ لماذا كنت تذرعين المكان جيئة وذهاباً مثل حيوان في قفص ؟»

فأجابت مرتاعةً مرتجفة :

— « انا أنتظر غرايدي . كنت ارجو ان يعود الى البيت هذه الليلة . »

فقالت ماما ايلزي :

— « إرحمني يا رب ! انا لم يخطر ببالي قط اني سوف أجبر على قضاء سنواتي الاخيرة في البيت نفسه — وفي بيتي انا بالذات — مع مخلوقة تسلك مسالكك هذا . انت تجلسين هنا هكذا في تبلّد وتأفف ، يوماً بعد يوم ، وعلى غير انقطاع . انت مصممة على ان تنكّدي حياة ابني وتجعليها بائسة . »

— « لا ، ماما ايلزي ! انت لا تفهمين ! » .

— « انا لا أفهم ، هه ؟ حسن ، انا لست مخبولة . انا اعرف ما الذي تسعين اليه . انتِ تريدين ان ينطرح غرايدي على قدميك ليلاً ونهاراً مثل كلب عادي . انه سوف يرجع الى المنزل حين يكون مستعداً للرجوع الى المنزل . انك تجعلين مـــن نفسك

أضحوكة بمثل هذا التصرف . ارحمني يا رب ! انا ارجو انلا يدع الذعر والزجر يستبدان به ، ويحملانه على عمل اي شيء لا ينبغي ان يعمله . وانه ليكون عاراً ابدياً ان يفكر في ان يحيا حياته على الطريقة التي تريدين منه ان يحياها . إرحمي يا رب ! »

وعضت لوسيان على شفتيها ، مذكّرة نفسها الى اي حد كان من غير المجدي ان تدافع عن نفسها في وقت مثل هذا . وأغمضت عينيها راجية ان يكون في الصمت ، هذه المرة على الأقل ، ما يثبط من همة ماما ايلزي فلا تنتقل الى احدى خطبها المقذعة التي تبدو وكأنْ ليس لها نهاية.. ومن فوق صوت الكرسي الصارّ، كانت سقسقة الطيور الضاجة ملطّفة مريحة.

وطوال بضع دقائق لم يُقلْ شيء . وانقطع صرير الكرسي فجأة .

وقالت ماما ايلزي ، مروّعةً اياها :

– « انا أسمع سيارة تصعد الزقاق ، لعله غرايدي . »

ووثبت لوسيان في الحال ، وهرعت الى درابزون الشرفة . كانت سيارة ، تحجبها بعض الشيء الاشجار ذات الاوراق الكثيفة ، قد صعّدت في الزقاق فعلاً. وانحنت لوسيان الى الامام، ممسكة الدرابزون في توتر .

وقالت ماما ايلزي في لهجتها الاستفزازية ، هازّة كرسيها على نحو مظفّر :

– « أرأيت ؟ لقد قلت لك ان غرايدي سوف يرجع الى المنزل حين يصبح مستعداً لهذا ، أليس كذلك ؟ والآن ، لعلك

تستطيعين ان تري اي اضحوكة قد جعلتِ من نفسك . في المرة التالية ، حاولي ان تضبطي نفسك بطريقة ادعى الى الاحترام .»

وبأصابع مرتعشة ، ملّست لوسيان ثوبها ، وسوّت شعرها.. كانت السيارة تستدير حول زاوية الزقاق .

وتابعت ماما ايلزي في هذر :

— « والان ، مهما فعلتِ ، لاتذهبي وتنسي نفسك في حضرة غرايدي . اذكري مَن انتِ ، اني لأوثر ان اكون ميتة في قبري على ان أرى ولدي مصاباً بهذا النوع من الزوجة التي تضجره بسؤاله ما الذي كان يفعله في كل دقيقة قضاها خارج البيت . ارحمني يا رب . وفي المرة التالية لا تجعلي من نفسك اضحوكة حين يغيب بضعة ايام . انه سوف يرجع الى البيت ، دائماً ، ساعة يشاء . ان لغرايدي الحق في بعض الامتيازات التي لا يجوز لك ان تناقشيها ، والذي يبدو ان هذا شيء لم تتعلّميه قط . ارحمني يا رب ! »

وصاحت لوسيان في حبور :

— « انه غرايدي ! انه هو ! »

فقالت ماما ايلزي :

— « من الخير لك ان تتعلمي الالتفات الى ما اقوله لك ، ايتها السيدة الصغيرة ، لأنه ما دام في عرق ينبض فسوف يكون من همّي أن اتأكد ان حياة غرايدي لا تنكّدها مخلوقة ما كان ينبغي له ان يتزوجها قط .. »

٢

ووقفت السيارة الثقيلة تحت الرواق المعمّد ، المغطى بورق الكرمة ، والذي يتقدم المنزل ، وقد هزتها ضربة المكبح المفاجئة من اقصاها الى اقصاها . وظل غرايدي في مكانه من السيارة ، بضع لحظات ، مبتسماً بسمة عريضة . ثم إنه فتح الباب في تؤدة وفي حذر ، ووضع قدميه على الارض . وبعد ذلك انتزع نفسه من السيارة ، وتقدم نحو الشرفة في خطى مضطربة . كانت لحيته طويلة لم تعرف الموسى منذ ثلاثـــة أيام ، وكان شعره الاسود الكثيف أشعث غير مُرَجّل . أما ذيل قميصه فكان يتدلى خارج بنطلونه ، وكان قد ترك رباط رقبته في مكان ما . كان حذاؤه مطلياً بطين احمر جاف . ولقد بدا وكأنه لم يذق النوم منذ عدة ليال ، بيد انه كان على أية حال لايزال غضاً وسيم المظهر . كان بالغ الطول ، بالغ الهزال ، ذا بشرة داكنة تكاد تشبه بشرة زنجي .

وفي بشر ، اندفعت لوسيان هابطة السلم لاستقباله ، حتى اذا رآها ، وعرف من هي ، وقف ورجع بضـــع خطوات الى الوراء ، وهناك حدّق اليها في اعجاب ، مراقباً حركات جسدها الفتية الرشيقة وكأنه ينظر اليها للمرة الأولى . وأمال رأسه الى جانب ، وهزّه هزة استحسان .

وهتفت متقدمة نحوه :

— « اوه ، غرايدي ! »

فصاح في صوت مرتفع جداً ، مبعداً اياها في حركة مضطربة

من يديه :

– « إبقي حيث انت ! »

ووقفت في مكانها ، مندهشة ،ولكنْ مبتسمةً له في بهجة .

وقالت في لهفة :

– « انا جد سعيدة بأن أراك ، ياغرايدي . لقـــد برّح بي الشوق اليك ! »

وخطا خطوةً جانبيةً وراح يتأملها من قمة رأسها الى أخمص قدميها .

– « ما اشد بهجتي بعودتك ، يا غرايدي . »

– « هذا استقبال بليغ ، يا لوسيان . أنا ما كنت اطمع بما هو افضل . شيء مناسب جداً ، جداً . »

– « انت تعرف اني صادقة في هـــذا ... أليس كذلك يا غرايدي ؟ »

– « طبعاً ، انت صادقة يا لوسيان . طبعاً ، انت صادقة .»

كان كلما انقلب الى بيته بعد غيبة ايام عدة يقف مفتوناً كل الافتتان برؤيتها ، ولكنهما يلبث ان يبدو ، دائماً، وكأنه فقد، بعد بضع دقائق، كل اهتمام بها. وكلما كان يحدث ذلك ، كانت لوسيان تحاول ان تخفي خيبتها ، وترجو ان تتغير الحال في المرة القادمة . أما الآن فقد استشعرت وكأن الدموع تطفر من عينيها عندما رأت الابتسامة تفارق محيّاه . وحاولت اخفاء مشاعرها ، فاندفعت تهبط درجات السلّم . وبسط ذراعيه ليضمها الى صدره ولكنه فقد في ذلك توازنه ، وكاد ان يقع لو لم تمسك به .

وقالت في كآبة :

– « اوه ، غرايدي ، انت سكران » .

وادركت في الحال انه ماكان ينبغي لها ان تقول ذلك، ولكن الأوان كان قد فات .

وقال في خشونة ، راشقاً اياها بنظرة ضارية :

– « هذا من شأني . وان عندي منه شيئاً كثيراً . »

ثم إنه تملّص منها واضاف :

– « التفتي الى شؤونك ، ولا تتدخلي بشؤوني . »

فقالت في يأس :

– « انا آسفة لأني قلت ذلك ، يا غرايدي . انا ما كنت اقصد هذا . لا بأس ! »

واتكأ عليها في ثقل ، طابعاً على وجنتها قبلةً خفيفة . انها لم تكن في ايما وقت قادرة على مقاومته حين يقبّلها او حين يطوّقها بذراعيه ، ولقد استشعرت اليوم ، اكثر من أيما وقت مضى ، ان شيئاً يجذبها اليه . والتمست يده وهصرتها في لهفة .

وقال لها في ابتسامةطفلّية نزعت الغضب كله من صدرها :

– « انت غير حاقدة عليّ ، يا لوسيان ، أليس كذلك ؟ »

وكانت مبتهجة بعودته الى درجة جعلتها لا ترى بأساً في ثمله .

« ماذا تقولين ، يا لوسيان ؟ »

فسارعت الى القول ضاغطة نفسها على صدر غرايدي الذي كان يطوّقها بذراعيه :

– « طبعاً لا ، يا غرايدي ! »

فقال وهو يردها عنه في خشونة :

— « حسن جداً . »

وحاولت ان تمسك بيده لتقوده الى السلّم . ولكنه نتر يده من يدها .

وألحّت :

— « فلندخل الى البيت ، ياغرايدي . ولسوف آتيك ببعض الثياب النظيفة . » ونظرت الى عينيه متوسلة . « في استطاعتك ان تحلق لحيتك وتبترد ، ريثما اهيىء كل شيء . هل تحب ان تفعل ذلك ، يا غرايدي ؟ ارجوك ، يا غرايدي ! »

وبضربة من باطن الكف ، أبعد يدها عنه .

وقال في صوت مرتفع وهو يواصل ضربها بباطن كفه :

— « اوه ، كفى ، كفى ، يا حبيبتي . انا اعرف ما الذي تهدفين اليه . إنك لا تستطيعين ان تخدعيني . انتِ تريدين ان تدخليني الى هناك لكي يكون في مقدورك ان تأخـــذي بخناقي لقضائي ثلاثة ايام في الخارج ، ولعودتي الى المنزل مثل الـ ....

— مثل ماذا ؟ اي شيء أشبِهُ يا لوسياني ؟ »

واحتجت قائلة :

— « غرايدي ، انت تعلم ان هذا غير صحيح . انا لم افعل شيئاً مثل ذلك من قبل . انا لست غاضبة — انا سعيدة برؤيتك الى حد يمتنع معه الغضب . ارجوك ، لا تقل هذا . »

— « سوف اقول ما يحلو لي ، يا لوسياني . »

— « ولكن هذا ظلم ، يا غرايدي . انا لم احـــاول قط ان

اخدعك على هذا الشكل . »

فقال وهو يبتعد عنها صاعداً درجات السلّم :

— « انا اؤثر السلامة . إبقي هنا ولا تتحركي ! »

وتبعته عبر الشرفة .

وتوسلت اليه في غير استحياء :

— « ارجوك ، دعـــني اذهب معك . انا اريد ان اكون بقربك ! »

فقال في خسّة ، وقد التفت وحدّق اليها :

— « إخرسي ، وافعلي ما اقوله لك . انا لا اريد ان اقول لك الشيء مرتين . »

وكان في ميسور لوسيان ان ترى ماما ايلزي تبتسم ، بينها وبين نفسها ، فيما هي تتأرجح في كرسيها الهزاز ، ذي الصرير . حتى اذا مرّ غرايدي بها ربّت على كتفها تربيتاً موجزاً . وادارت ماما ايلزي رأسها ، واتبعته نظرها في اعجاب وموافقــة وهو يتقدم نحو الباب الأمامي .

واذ ظلت لوسيان تأمل في ان يغير رأيه ، فقــد لحقت به حتى الباب تقريباً ، قبل ان يستدير ويراها .

وحذّرها قائلا :

— « سوف اعطيك فرصة اخيرة لكي تفعلي ما قلته لك . »

وفي خطى ثملة ، دخل الى الحجرة .

وقالت ماما ايلزي في صوت مرتفع :

— « لوسيان ! ارجعي الى هنا . »

وترددت ، راغبةً اعظم ما تكون الرغبة في ان يُسمح لها بالذهاب مع غرايدي الى غرفته . وأصاخت الى خطواته الثقيلة المتعثّرة على السلم .

وقالت ماما ايلزي في حدة :

— « تعالي الى هنا قبل ان تجعلي من نفسك اضحوكة اكبر . إرحمني يا رب ! »

واستدارت لوسيان ومشت في بطء الى الكرسي الذي كانت تجلس عليه عندما جاء غرايدي .

وعادت ماما ايلزي الى القول وقد صوّبت على لوسيان نظرتها الباردة :

— « ارجو ان لا يقدّر لي بعد اليوم ان أرى مثل هذا المشهد الكريه ، في هذا البيت ، كرة اخرى . واذا كنت لا تفعلين اي شيء آخر طوال عيشك في هذا البيت ، فيجب عليك ان تتعلمي السماع الى ما يسألك غرايدي ان تعمليه . ان رجال الاسرة كانوا ولا يزالون سادة البيت . من العار ان يرى المرء سلوكك هذا . »

وانتفخت الدموع في مآسي لوسيان ، وانشأت تبكي في انكسار . واستأنفت ماما ايلزي الاهتزاز في كرسيها ذي الصرير ، وراقبتها في وقار .

وقالت ، وهي تبتسم ابتسامة راضية :

— « إبكي ، الآن ، بكاء مريراً ، فلعلك ان تنتزعي هذا المزاج المخزي من طبيعتك . وعلى اية حال ، فالبكاء مفيد لك

في وقت كهذا . ولا بد ان يجيء يوم تتعلمين فيه كيف تفعلين ما يأمرك غرايدي بفعله ، وتقلعين عن هذه المهاترات البغيضة . إن من شيمة النساء في اسرة دانبار ان يُطِعْن دائمـــاً . ولسوف تكونين انت مثلهن ، ايضاً . »

فاحتجت في يأس :

— « ولكن هذا سخف ، انا لا ابالي بالذي تعوّد غيري ان يفعله . انا لا احب ان أعامَل مثل ... مثـــل ... لست ادري ماذا ! هذا غير لائق — هذا غير عادل ! »

— « إرحمني يا رب . ليس لهذا علاقة بالمسألة . انها تقاليد اسرة دانبار ، يا بُنيتي . انتِ لم تكوني إلا غريبة . لقد طرأتِ على العائلـــة بالزواج . ومن واجبك ان تتعلمي كيف تكيّفين نفسك وفقاً لطريقة حياتنا . والى هذا ، فقد جلبتِ ذلك كله على نفسك حين تزوجتِ غرايدي . فحاولي ان تنتفعي من وضعك لذا الى أبعد حد . »

— « ولكن غرايدي لا ينفكّ ينتقل من سيء الى أســـوأ ، يا ماما ايلزي . انه في حاجة الى من يحمله على الاقلاع عما يفعله . »

— « عندمـــا بذلتِ كل ما في وسعك ، بطريقتك الثعلبية ، لتتزوجي ابني هل كان هدفك ان تغيّريه ؟ أي دافع دفع بكِ الى الزواج منه ؟ أكنتِ تريدين ان تكيّفيه وفقاً لفكرتك عن الرجال وكيف ينبغي ان يكونوا ؟ ارحمني يا رب ! »

فقالت لوسيان :

— « طبعاً لا . انا لم افكر بشيء مثل هذا . ولكني فكرت

ان غرايدي سوف يتغير بعد زواجنا . »
وكان في استطاعتها ان تسمع والدة غرايدي تضحك في ما بينها وبين نفسها . وقالت ماما ايلزي بعد قليل :
— « انه لن يتغيّر ، البتة ، يا بنيّتي . ومن الخير لك ان توفري على نفسك دنيا من الحزن والأسى ، وان تتخذي قرارك الآن لا غداً. لقد تعلمت هذا الدرس يوم تزوجتُ والدَ غرايدي. لقد كان مثل غرايدي تماماً . كان يرفض ان تسيطر عليه امرأة. ولقد احتجت الى اربعين سنة ، تقريباً ، من العيش معــه لكي انزل على حكم تلك الحقيقة. ولا بد ان يجيء يوم تتعلمين فيه كل ما تعلّمته نساء الأسرة . إن ابن دانبار هو ابن دانبــار ، ولن يستطيع أحد أن يُغيّره . »
— « ولكن غرايدي عنيد ، صعب المراس في كل شيء ، يا ماما ايلزي . إنه لا يسمع لي البتة . وانت تتعصّبين له كل مرة ، مهما قال أو فعل . ذلك ما يعقد كل شيء تعقيداً كثيراً . »
— « إرحمني يا رب ! إن رجال الاسرة هم اصحاب الكلمة الفاصلة في طريقة حياتنا . ويبدو لي ان من المستهجن ان تعمد امرأة غريبة ، طرأت على الاسرة من طريق الزواج ، الى انتقادنا والتماس زلاّتنــا . نحن نحتاج الى نصائح الغرباء . إننا لا نقلّ صلاحاً عن اي اسرة قُدّر لها ان تمشي على سطح هذه الارض ، واذا كنت مصممة على البقاء هنا فيتعيّن عليك ان تتشبّهي بنا . انت تتحدثين مثل اجنبيــة ليس عندها ايّ احترام لتقاليدنا ، ولكني اعتقد ان هذا منتظر من فتاة لا أصل لها ، ولا أية صلات

عائلية مع احد من الناس الذين قُدّر لي أن أسمع بهم . ان من العار ان نرى الطريقة التي يحاول بها كل هؤلاء الغرباء الهجرة من الخارج الى هذا الجزء من البلاد ، ومحاولتهم الامتزاج بنا على مستوانا بالذات . إن أحداً لا يعرف شيئاً عن أصل عائلتك. لأنها لم تُقِمْ هنا إلا عشر سنوات ليس غير . لا ، انت ابعد من ان تكوني مؤهلة للتمتع بالامتيازات الخاصة بأفراد اسرتنا . »

فقال لوسيان :

– « ذلك ما اشعر به تماماً ! »

– « ارحمني يا رب ! لقد عرفت ذلك – لقد عرفت ذلك ! ان الرب يعاقبنا الآن على لحظة الضعف التي استسلم لها غرايدي ، ولكنك انتِ التي ينبغي ان تعاقبي لايقاعك غرايدي في احابيلك الانثوية. ولو كان ابوه حياً لدفع اليك غرامة ولوفّر علينا هذا العار. اني كلما ذهب ابني الى آتلانتا أو سافانا خفت ان يقع في شَرَك واحدة مثلك ، واحدة لا يريد اكثر من ان يلهو بها بضعة ايام. ولقد عرفت منذ اللحظة التي وقعت عيني فيها عليك انك سوف تكونين مخربة هذه الأسرة . ان ذلك جزء لا يتجزأ من خطتك الجهنمية . »

– « لست أعرف ماذا تعنين ؟ ما الذي تتحدثين عنه ؟ »

– « من الواضح وضوح الشمس انك تسعين الى إماتة اسم دانبار ... »

– « ولكنها ليست غلطتي ، يا ماما ايلزي. اذا حاولتِ ان.. »

– « في استطاعتي ان استنتج استنتاجاتي الخاصة ، أيتها

المرأة الغرّة . »

— « أتوسل اليك ان تصدقيني ، يا ماما ايلزي. إن غرايدي هو الذي .. »

— « إرحمني يا رب ! هذه مغالطة صريحة ، وانت تعرفين انها كذب ! » — كانت ترتجف غضباً — « أية جرأة ! انت تحاولين ان تلومي ابني على نقائصك وخداعك ! انا لن اصغي الى كلمة من حديثك ! انه مضحك — انه سخيف بكل ما في الكلمة من معنى ! يا للوقاحة ! أود لو يسمعك غرايدي تتحدثين هكذا ، اذن لوضع حداً لذلك في الحال ! »

— « ولكن لو ان غرايدي ... »

وهنا قررت ماما ايلزي وقد غيّرت جرْس صوتها في تأنق :

— « لا يزال ثمة َقدرٌ كافٍ من الرجولة ، في هذه الاسرة ، اذا كان هذا ما تشيرين اليه من طَرف خفي. إن الانوثة هي التي تُعوز هذا البيت الآن . »

وحدجت لوسيان بنظرة مترفعة متشامخة : واضافت :

— « يا للوقاحة ! »

ودفنت لوسيان وجهها بين يديها وبكت. كانت كلما حاولت ان تشكو بثّها الى ماما ايلزي ترفض هذه ان تصغي اليها . كانت قد وبخت لوسيان على نحو متواصل طوال الشتاء والربيع ، وكانت لوسيان قد اخذت تخشى الاجتماع بها .

وقالت ماما ايلزي في برود :

— « ان هذا لا يحسّن الوضع مقدارَ ذرة . احتفظي بدموعك

للرجال . إن المرأة تألف الدموع اكثر مما ينبغي فهي لا تقيم لها اي وزن . »

فقالت لوسيان وهي تبذل جهداً يائساً لاقناعها :

— « ولكن غرايدي لايفعل شيئاً لاصلاح هذا الوضع ، ماما ايلزي . يتعين عليك ان تصدقيني ! »

فقالت ماما ايلزي :

— « إرحمني يا رب ! انا ارفض الجلوس هنا والأصغاء الى مثل هذا الحديث عن ابني ، حتى لو تظاهرتِ بأنك زوجته. »

فقالت في هدوء :

— « ولكنه صحيح ، سواء صدّقتِه ام لا . »

فقالت ماما ايلزي ناهضة من كرسيها ، مارّة امام لوسيان :

— « انا لن أصدق كلمة تقولينها بعد هذا ، اذا اصررت على قول اشياء كهذه عن ولدي . لقد كنت دائماً انزع الى الاعتقاد بأنك شخص لا يُركن اليه ، شخص غير اهل للثقة . وهذا هو تصرفك اليوم يثبت ذلك مرةً والى الأبد . انتِ مخلوقة لاتعرف الخجل البتة ، انتِ تلقين مسؤولية نقائصك على غرايدي المسكين . ومن المؤلم ان يكون قد اجاز لنفسه ان تقع فريسةً بين مخالبك . ان قلبي ليقطر دماً على ذلك الولد البائس . ارحمني يا رب . »

وغادرت لوسيان تبكي في الظلام .

٣

كانت لوسيان قد انتظرت اقصى ما استطاعت الانتظار قبل ان تغادر الشرفة وتأوي الى البيت . كان الظلام الكامل مخيماً في تلك اللحظة ، ولم تكن ثمة انوار مضاءة .

وتلمست سبيلها عبر ظلمة الرواق الحجرية ، وارتقت السلّم بسرعة الى الدور الثاني . وتمهلت لحظة لكي تأخذ نفساً ، ثم اجتازت ، في خطى رفيقة ، باب حجرة غرايدي في طريقهاالى حجرتها الخاصة . كانت تريد ان تندفع الى غرفته وتلقي بنفسها بين ذراعيه ، ولكنها اكرهت نفسها على الاستمرار في عبور الرواق محاذرة ان تصرّ الأرضية الخشبية تحت قدميها لكي لا يعرف غرايدي انها ارتقت السلم . كان قد امرها بالبقاء على الشرفة ، ولم يكن ثمة ما يفقده اعصابه باسرع مما يفقده اياها مخالفة لوسيان او اي شخص لأوامره . وكان اذا ما تفجّر غيظه ، يفقد كل سيطرة على نفسه ، ويلعن ويسحق اي شخص يتفق أن يكون في متناوله ، فلا تخمد جذوة غضبه في بعض الأحيان إلا بعد يومين او ثلاثة . وسارعت الى حجرتها لكي تسرّح شعرها ، وتغيّر ملابسها .

وفيما كانت تخلع ثيابها ارهفت اذنيها راجية ان تسمع صوتاً ما من غرايدي في البيت الكبير . وكلما صرّت ارضية البيت الخشبية صريراً يتردد صداه في ارجاء البناء ، كانت تنتظر ، حابسةً انفاسها ، وكلها أمل ان يكون غرايدي قد اتخذ سبيله ،

عبر الرواق ، الى حجرتها. وفي وحشة غرفتها الصامتة ،لم يكن في ميسورها ان تكفّ عن التساؤل الموصول اين كان ، ومـــا الذي كان يفعله خلال الايام الثلاثة الاخيرة بلياليها . كانت لا تعرف اي شيء تقريباً عن الاشخاص الذين كان يتصل بهم كلما قصد الى ماغوفين ، حاضرة المقاطعة الباعدة خمسة عشر ميلا ، ولكنها كانت تعرف انه يقضي الجزء الاعظم من ساعات غيابه عن المنزل في حانة وبيت من بيوت القمار يديرهما سكيتر ويلهايت. لقد عرفت هذا القَدْر لأن ابن عم غرايدي ، بين باكستر ، الذي يعمل محامياً في ماغوفين ، كان قد اخبرها عدة مرات ، خلال الشتاء، ان غرايدي يخسر من المال فوق مايستطيع احتماله ، وانه اذا لم يبتعد عن حانة سكيتر ويلهايت ، فلا بدّ ان تلمّ به كارثة ما . ولم يكن من النادر ان ينفق ستين دولاراً او سبعين دولاراً في ليلة من لياليه في الحانة لكي يدير الخمر عدة مرات على زبائن البيت ، وكانت خسارته في القـــمار تبلغ في بعض الأحيان مئات الدولارات . وكان يتفق له احياناً ان يختـــم الليلة رابحاً على مائدة البرد ، ولكن لم يكن من غير المألوف ان يقامر بأرباحه على دور واحد من ورق اللعب (وكـــان سكيتر يخلط الورق بنفسه) ، فيغادر المكان وليس معه فلس واحـــد ، بل يغادره مثقلاً بالدين .

وكانت لوسيان قد انتهت الى الشعور بأن من العبث الذي لا طائل تحته ان تسأل غرايدي كلما رجع الى المنزل ان يخبرها اين كان وما الذي كان يفعله ، لأنه كـان في كل مرة يتكشف عن

مزيد من الغضب عليها والعنف في معاملتها. وحتى حين يتفق ان يكون وديعاً مرحاً ـ وذلك شيء نادر ـ كان يقدم اليها جواباً سريعاً ، غامضاً مواربا ، يدور حول انشغاله في المدينة بانجاز بعض الاعمال التجارية الهامة . لقد اصبحت تعرف القصة غير المقنعة ، عن ظهر قلب ، الآن ، بعد ان استمعت اليها كل هذه المرات خلال العشرة الاشهر التي انقضت على زواجها . ولكنها علمت ، كما علمت ماما ايلزي ، انه كلما غاب غرايدي عن المنزل ، على هذا النحو ، عدة ايام دفعة واحدة ، كان يتعين عليه دائماً تقريباً ان يرهن معظم المزرعة لكي يدفع فواتير الحانة وخسارته في القمار في بيت سكيتز ويلهايت .

لم يكن قد بقي لغرايدي غير قليل من الأرض، الآن . كانت مزرعة آل دانبار تنبسط ، في الأصل ، على اكثر من خمسة آلاف أكر ، من اغنى الأراضي في ذلك الجزء من البلاد وأغزرها إنتاجاً . وطوال جيلين اثنين كانت المزرعة تغلّ نحواً من مئة الف دولار سنوياً تُجنى من الاراضي الغنية المزروعة قطناً ، ومن الغابات العذراء. ولم يكن يتعين على والد غرايدي وجدّه ان يفكرا بثمن ايما شيء يرغبان في شرائه ، ومن هنا نبعت ـ الى حد ما ـ تعاسة غرايدي. ففيما ورث عنهما التبذير والاسراف، ورث عنهما ايضاً حقول قطن مفصودة متآكلة وغابات جرداء . فما ان بلغ العشرين من العمر حتى كانت المزرعة تخسر بدلاً من ان تربح ، وهكذا رهن ، عاماً بعد عام ، جزءاً منها لكي يفوز بأموال يغطي بها نفقاته. والآن ، وبعد حبْس الرهن عدة مرات ، كان

قد بقي من المزرعة الأصلية اقل من مئتي أكر .

وكان البيت الكبير ذو الادوار الثلاث ، بسقفه المتهرئ وابوابه النخرة ، والذي كان في أيام زهو الأسرة بناء رائعاً وموطن استقبال شهيراً – كان ذلك البيت قد أمسى خرباً الى حد جعل المصرف في ماغوفين يرفض رفضاً صريحاً ان يقبل به ضماناً لقرض هزيل جداً. وكان المنزل قد عانى اهمالاً بالغاً جداً بحيث كانت المداخن الآجرية العالية قد انهارت الى مستوى أعلى السطح ، مما جعل من المتعذر العثور على شركة تأمين ترتضي ان تؤمّن البناء من الحريق . وكان الجناح الأيسر قد غار الى الارض عندما انهار الأساس الآجري الذي يدعمه ؛ وحين تمطر السماء ، كانت المياه ترشح وتقطر من الجدران والسقوف طوال أيام عديدة تنقضي على هطول المطر . كانت اجزاء كاملة من السقف قد سقطت ، هي وعوارضها ، الى الدور الثالث الذي كان مهجوراً في تلك الآونة . وكلما تحدثت لوسيان الى غرايدي عن حالة المنزل كان يستبد به الغضب ، ويجتنب المناقشة بأخبارها أنْ ليس لديه مال ينفقه على الترميم ، والى هذا فقد كان ذلك المنزل – بحالته تلك – صالحاً لسُكناها.

وعند الساعة العاشرة ، وفقاً لساعة مائدة الزينة الصغيرة ذات الاطار الفضي ، التي كانت احدى الهدايا التي قدمتها اليها أمها يوم زواجها ، لم يكن غرايدي قد أقبل الى حجرتها بعد . وفتحت لوسيان الباب على الرواق ، وأصغت بضع لحظات . لم يكن ثمة ايما صوت في اي مكان في المنزل الكبير ، ثم ارتدت

وارتدت ثوباً كانت تودّ ان يراه غرايدي . كانت امهـــا قد ارسلت اليها هذا الثوب ، وكانت قد احتفظت به لتلبسه عندما يرجع غرايدي الى المنزل .

وعلى رؤوس اصابعها، من غير ما ضجة، مضت الى الرواق الصامت . كانت ماما ايلزي نائمة ، وكانت مارتا قد غادرت المنزل ، وكان السكون يخيّم عـــلى البيت الكبير . وفيما هي تمضي ، في رفق ، عبر الرواق غـــير المفروش بالبُسُط ، لم تتمالك ان تتذكر ، وكأنها ترى حلماً مزعجاً ، تلك الليـــالي الموحشة العديدة التي سلختها في انتظار عودة غرايدي الى المنزل ، راجيةً كل مرة ، وضارعة الى الله أن يفِدَ الى غرفتها عنـــد إيابه . وكان يرجع ثملاً ، صاخباً ، في العادة ، مالئاً البيت بصيحاته وشتائمه ، حتى يقع من شدة السكر على فراشه وينام الى أصيل اليوم التالي . وفي بعض الأحيان – مثل هذه المرة – كان يمضي ، في هدوء ، الى حجرته ، ولا يُطلق أيما صوت حتى الصباح .

وحين انتهت الى باب غرفة غرايدي ، ارهفت أذنيهـــا وأصغت . لم يكن ثمة صوت ما ، في حجرته . وهزّت رأسها رادّةً شعرها الى الوراء، وأمرّت يديها فوقه في خفة، وملّست تغضّنات ثوبها . ثم إنها بسطت ذراعها لكي تدير تفاحة الباب. كان الباب مقفلاً . كانت في طريقهـــا الى الغرفة قد حدّثت نفسها دائماً بأن الباب لن يكون مقفلاً هذه المرة ، وانه سوف يكون في ميسورها أن تدخل الى الحجرة قبل ان يعرف غرايدي

انها هناك . ولقد كان خليقاً بها ، في أيما وقت آخر ، ان تبكي في خيبة أمل ، ولكنها كانت مصممة هذه المرة على ان لا تيأس وتستسلم في تلك السهولة . وقرعت الباب الخشبي ، في رفق ، والرعدة تعصف بجسدها كله . وسُمِعت حركة مفاجئة داخل الغرفة ، وصرّ السرير صريراً طفيفاً ، ثم ران صمت عميق . وانتظرت أطول ما تستطيع الانتظار قبل ان تقول شيئاً مـا ، حابسةً أنفاسها حتى الألم . وكان الصمت المروّع المهيمن على الظلام قد جعلها ترتعد خوفاً .

وهمست في صوت مرتعش :

— « غرايدي . »

ولم يكن ثمة جواب. وضجّت ضربات قلبها المهتاجة خلال جسدها كله .

وقالت في ضراعة :

— « هذا انا ، يا غرايدي . انا لوسيان . »

ولم تقع هذه المرة ايضاً على جواب ما . وجمعت اصابعها في راحتيها على نحو محكم ، وانتظرت ان يوجّه اليها الكلام .

حتى اذا لم يعد في ميسورها ان تصبر اكثر مما فعلت ، قالت وقد ارتفع صوتها في لجاجة وبدا متوتراً في اذنيها :

— « أتوسل اليك ، يا غرايدي. اريد ان ادخل يا غرايدي. دعني ادخل ، ارجوك ! »

وفي تلك اللحظة بالذات سُمعت حركةٌ سريعة في مكان ما من الغرفة ، وكأنّ شخصاً قد نقل كرسياً من موضعه . وبعد

ذلك حاولت ان تدير تفاحة الباب من جديد ، ولكن القفل لم يَنْقَدْ لها. وعاودت إدارة التفاحة في عنف ويأس.

وتضرعت :

– « أتوسل اليك ، يا غرايدي ، ان تدعني أدخل . إني شديدة التوق الى ذلك ! لقد انقضت مدة طويلة لم أرك خلالها ، ولقد اشتقت اليك كثيراً ، يا غرايدي . »

بعد هذا ، أمسى في ميسورها ان تسمع وقع قدميه الحافيتين على الأرض فيما كان يعبر الغرفة. لقد عرفت انه كان واقفاً عند الجانب الآخر من الباب ، ولقد نبض قلبها نبضاً مجنوناً حين ادركت انه على مثل هذا القرب منها .

وصاحت :

– « اوه ، غرايدي ! »

فقال في تبرّم :

– « ماذا تريدين ؟ »

فأجابت وهي تقرع الباب بيديها :

– « أريدك أنت ، يا غرايدي ! أريد ان اكون معك ، يا غرايدي ! هذا كل ما أريده – ان اكون معك ليس غير ! »

وسمعته يقول :

– « ليس الآن . اذهبي من هنا . »

– « أتوسل اليك ان لا تكون قاسياً الى هذا الحد ، يا غرايدي. أنا لا أستطيع احتمال ذلك! كل ما اطلبه هو ان تسمح لي بأن اكون الى جانبك فترة قصيرة فقط ... »

— « إرجعي الى غرفتك. »

وتوسلت اليه :

— « ولكن عليك ، يا غرايدي ، أن تسمح لي بالدخول . أنا اقاسي الوحدة الى حد بعيد ... »

فقال مغضباً :

— « لقد قلت لك ان تذهبي من هنا . ألم اقل لك ذلك ؟ »

وسمعته يبتعد عن الباب ؛ وكان في ادراكها أنه لم يعد هناك ما جعلها تحس بأنها عاجزة لا حول لها ولا قوة . وعلى الرغم من كل ما بذلت من جهد للسيطرة على نفسها ، فقد امتلأت عيناها بالدموع . إنها لم تستشعر في حياتها أنها غير مرغوب فيها كما استشعرت ذلك أثناء تلك اللحظة . وعصف بها ألم مرير لم تعرف كيف تحتمله . كانت قد انتظرت عودته طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال ، قائلة لنفسها حيناً بعد حين انه اذا ما رجع هذه المرة فسوف يبدي رغبته فيها. وكانت كلما ملأت الشكوك ذهنها بضروب الازدراء والزجر تُقنع نفسها بأنه قد تغيّر ، وان حياتها منذ اليوم سوف تكون مختلفة جداً. إن ما كان يحدث الآن كان موجعاً الى ابعد الحدود ، مؤلماً الى أبعد الحدود .

ولم تستطع ان تفكر بأيما سبب يحمل غرايدي على الابتعاد عنها . كانت لا تزال جذابة غضة الشباب . وحتى ماما ايلزي كانت اعترفت ، على كره ، بأنها جميلة اكثر من المألوف ، وانها قد خلعت بذلك على الأسرة شرفاً رفيعاً. وكان بين باكستر قد قال لها ، بطريقته الخجول ، انها اجمل فتاة رأتها عيناه ،

وانه لا يرغب في الزواج اذا تعيّن عليـه أن يقضي حياته مع امرأة اقل جمالاً منها . كانت داكنة الشعر ، رشيقة القوام ذات ذراعين ورجلين تتسم بالاستـدارة الوطيدة ، وكانت بشرتها ملوّحة اللون ، بعضَ الشيء ، صيفاً وشتاء. كان فمها السخيّ ذو الشفتين المليئتين سريعاً الى الابتسام ، واذا ما نظرت الى شخص ما كانت عيناها البنّيتان الرقيقتان تنضحان عذوبةً ومودّةً . وكانت تعرف ان غرايدي كان يراها في وقت من الاوقات جميلةً قريبة الى القلب ، لأنه كثيراً ما قال لها ذلك قبل ان يتزوجا . وكانت في حاجة الى ان تستشعر ان شخصاً يريدها ، اذا ما كان لها ان تواصل الحياة ، وإلا فمن الخير لهـا أن تموت . ومن بين جميع الرجال الذين عرفتهم كانت تؤثر ان يكون غرايدي هو الرجل الراغب فيها ، لأنها تحبه ولأنـه كان زوجها .

وفي اهتياج ، قرعت الباب بيديها الاثنتين صائحة :

— « غرايدي ! غرايدي ! »

كان ذعر مفاجىء قد استبد بها . لقد خطر لهـا ، للمرة الأولى ، ان شخصاً آخر كان معه في الغرفة . لم تكن لديها اي فكرة عن هوية ذلك الشخص ، ولم تكن تدري كيف يمكن لأي امرىء ان يدخل الى غرفته من غير ان تعرف هي بذلك ، ولكن الشيء الأهمّ من أيما شيء آخر في تلك اللحظة كان التثبت من أمر ظنونها . هل كانت تلك الظنون صحيحـة ام خاطئة ؟ وصاحت كرة اخرى :

– « غرايدي ! غرايدي ! دعني أدخل ، دعني ادخل ، يا غرايدي ! »

فصاح غاضباً من مكان ما في الغرفة :

– « اذهبي من هنا ، عليك اللعنة ! لقد قلت لك ان تذهبي وان تكفّي عن ازعاجي بهذه الطريقة . لقد تحملت ما فيه الكفاية . »

فقالت في صوت ثابت :

– « ينبغي ان أدخل ، يا غرايدي . افتح الباب في الحال . انا أعني ما أقول ، يا غرايدي . إني لن أتحمّل ذلك . »

فصاح :

– « كم مرة قلت لك ان تذهبي من هنا ، عليك اللعنة ! كفّي عن قرع الباب واتركيني وشأني . »

فقالت :

– « انت لا تستطيع ان تتصرف هكذا ، يا غرايدي . لا تستطيع – لا تستطيع ! دعني أدخل ، يا غرايدي – دعني أدخل ! »

– « اذا واصلت ذلك فسوف اخرج الى هناك وأطردك . حين اطلب اليك انتفعلي شيئاً يتعيّن عليك ان تطيعي امري ! »

وتراجعت لوسيان عن الباب مترددةً . كانت خائفة من غرايدي ، لأنها تعرف انه حين يفقد اعصابه يصبح وحشياً في اعماله او يكاد .

وقالت في جرْس جازم :

ـــ « إن معك شخصاً ما ، هناك ، يا غرايدي . انا أعرف ذلك . اريد ان اعرف من هو ؟»

وانتظرت ، مرتعدةَ الأوصال ، غير واثقة في تلك اللحظة من انها تريد ان تعرف الحقيقة . لأنه اذا كان ثمة شخص مع غرايدي فمعنى ذلك ان عليها ان تنصرف ، ولم تكن راغبةً في أن تفعل ذلك .

وظل غرايدي صامتاً . وخلال الفترة الطويلة التي لم يُقَل فيها شيء بدأت تبكي . انها لم تستطع السيطرة على نفسها . وكشفت العبرات ، الواخزة المُعْمِية ، عن الألم المختلج الذي استبدّ بها ، واتكأت واهنةً على الجدار .

وسمعت غرايدي يسألها :

ـــ « ألا تزالين هناك ؟ »

فسارعت الى القول ، معتقدةً ان من الجائز أن يكون قد لان وانه أمسى على وشك ان يفتح الباب :

ـــ « نعم ، يا غرايدي . »

فقال في فظاظة :

ـــ « حسن ، إذهبي من هنا كما قلت لك . »

واتجهت عبر الرواق الى غرفتها . كانت قد كفّت عن البكاء ، ولكن غشاوة كانت ما تزال ترين على عينيها ، وكانت تعرف أنها قد تستأنف البكاء من جديد في كل لحظة . وبعد أن دخلت الى الغرفة ألقت نظرة على نفسها في المرآة ، ثم سارعت الى الانعطاف مبتعدةً عما رأت هناك . كان شعرها أشعث ، وكانت عيناها حمراوين متورمتين ، وكان الثوب الذي رغبت

في ان يراه غراندي ، والذي كان في وقت ما رشيقاً جـداً مهندماً جداً ـ كان ذلك الثوب قد تدلى الآن من كتفيها مثل خرقة بالية . ثم انها فتحت ابواب الشرفة الواسعة ، وغادرت الغرفة باسرع ما استطاعت ، ومضت الى الدرابزون .

كانت واقفة هناك، في الظلمة الباردة ، محدقة الى الليـل تحديقاً طويلاً عندما انتهت الى سمعها ، من بعيد ، نغمات غيتار واهنة . وجلست مسرعة ، وأطلت عـلى فناء الدار فلمحت ضوء مصباح باهت ينبعث من مدخل البيت الصغير القائم في الحي الزنجي على بعد مئة ياردة. كان في ذلك الحي ثمانية بيوت صغيرة ، يتألف كل منهـا من غرفة واحدة ، وكانت تلك البيوت متماثلة حجماً ومظهراً. كانت قد بُنيت من كتل خشبية مقطعة تقطيعاً خشناً يصل ما بينها ، على نحو متصدع ، طـين أحمر ، وكان جد غرايدي قد أقامها هناك لأيواء عبيده . كان يسكن تلك البيوت الصغيرة الآن خدم المنزل والفلاحون الزنوج. وكانت خربة محتاجة الى الترميم بقدر ما كان المنزل الكبير ذو الغرف الاثنتين والثلاثين . ولم يكن لتلك الأكواخ نوافذ قط ، لأنها حين بُنيت كانت العـادة تقضي باحتجاز العبيد منـذ الغروب حتى الضحى ، ولكن كانت ثمة بين قطع الخشب ،عند كل طرف من اطراف البناء ، بعـض الشقوق الصغيرة التي تجدّد هواء الغرفة الى حدّ ما،والتي كانت مغطاة الآن باكياس ذَرْق الطيور . وكانت الدريئة التي طوقت في الأصل مجموعة الاكواخ ، تلك الدريئة المصنوعة من خشب الصنوبر ، قـد

نُزِعت من مكانها، ولكن مشهد الحيّ في ما عدا ذلك لم يتغيّر طوال مئة من الأعوام .

وغدت موسيقى الغيتار أقرب وأوضح عندما انحنت لوسيان الى أمام وأراحت ذراعيها على الدرابزون . لقد طَغَتْ نغمات الغيتار الرقيقة من حولها في الليل الفاغم ، مالئةً أذنيها بلحن بدائيّ . وما هي إلا لحظة حتى سمعت شخصاً يغني في صوت شجيّ . كانت قد سمعت الاغنية مرات كثيرة من قبل، ولكنها لم تكن تلقي بالاً الى كلماتها . أمـــا الآن فقد بدت كلمات تلك الاغنية حافلة بالمقاصد والمعاني . وتصدّرت وقد توتّر جسدها كله :

ان فتاة صالحة فقدت صاحبها
بعد أن سلبته منها فتاة شريرة ...

واستبدّت بها رعدة مؤلمة ثاقبة . كانت سخرية الأغنيـــة أقسى من ان تطاق .

وانتصبت واقفة على قدميها ، واجتازت الشرفة راكضةً . بيد أنها ما إن بلغت الباب حتى ترددت . لقد ارادت ان ترجع وتحمل غرايدي على ادخالها الى غرفته لترى بعيني رأسها هل كانت على حقّ في الارتياب بـــه أم لا . وفيما هي واقفة ، لا تدري ماذا تصنع ، لدى الباب ، ادركت شيئاً فشيئاً ان عودتها سوف تكون عبثاً لا طائل تحته . إنه لن يدعها تدخل الى غرفته الآن، حتى ولو كان وحده ، لأنها أثارت غضبه. لقد عرفت، من تجاربها الماضية. أنه سوف يظل حاقداً عليها اياماً. ان وجهه

سوف يكون محتقناً بغضب نكد، وانه سوف يرفض، في تحدّ ، أن يكلمها حتى يزايله استياؤه . لقد كان هذا شأنه دائماً ، ولّما تقدّمت به السنّ بعض الشيء غدت نوبات غضبه أطول وأبقى. كان قد أصبح الآن نكداً على نحو موصول تقريباً . ومثلَ ماما ايلزي ، كان قد انتهى الى ان يجد متعة في الفظاظة والنزق ، وان يستمد ارتياحاً من قدرته على انزال الأذى بمن حوله .

ورجعت لوسيان الى الدرابزون ، ووقفت في ظلمة الشرفة تسرّح طرفها عبر الفناء الرملي الأبيض. وفوق الحقول، الواقعة على مسافة نصف ميل، كان في استطاعتها ان تلمح ضوءاً مفرداً متلألئاً من منزل المفتش. كان ذلك حيث يسكن ويل هاريسون. وأبعدَ ايضاً ، عـــلى الضفة الأخرى من النهر ، كانت اضواء عديدة شاحبة شحوب النجوم تلتمع في الليل الرائق . وفي كل مكان حولها كان يبدو وكأن السعادة والدعة تبسطان اجنحتهما: في بيت الفلاح ، في بيت المستأجر ، وفي الكوخ على حد سواء. وكان في هـــذا الذي رأته ما أرعبها وجعلها أشقى من اي وقت مضى .

وانبعثت الموسيقى من الحي ، فبلغت فناء الدار .

أوه ، يا الهي ، لقد اسودت الدنيا في عيني
أوه ، يا الهي ، ما الذي سأصنعه ...

وجلست بغتةً ، مصغيةً الى الانغام التي فرضت نفسهـــا عليهـــا . ودفعتها الكلمات الى التفكير كرة اخرى بجميع تلك الليالي الطويلة التي انتظرت فيها عودة غرايدي، محاولةً الاعتصام

بالصبر وحسن التفهّم ، ولكنْ متعجبةً لماذا كان يجتنبها . كانت تنتظر كل ليلة تقريباً ان يَفِد اليها ، حتى اذا لم يجيء مضت الى غرفته . وكان يوصد باب غرفته أحياناً بالمفتاح ، كما فعل هذه المرة . وكانت اذا لم تجده احياناً اخرى في غرفته تنتظره برغم ذلك. وكم من ليلة استلقت على سريره حتى الفجر ، لا يكتحل جفناها بغمض ، حتى اذا عجز الصباح عن الرجوع به شخصت الى غرفتها واستسلمت للبكاء . إنها حين تزوجت غرايدي لم تتخيل ان شيئاً مثل هذا سوف يحدث لها ؛ والآن بعد سنة تقريباً انقضت على هذا الزواج لم تستطع ان تفهم هذا العِرْق الفاسد الغريب في طبيعة غرايدي ، العرق الذي يدفعه الى معاملتها على هذه الشاكلة . وكلما فكرت في ذلك غدت اقل اطمئناناً الى سلامتها . وكانت واثقة من أنها اذا غادرت البيت فأن غرايدي لن يخطو خطوة واحدة لأعادتها اليه . بل لقد انتهت الى الاعتقاد بأن ذلك ما كان هو وماما ايلزي يريدانها ان تفعله . وكانت تعرف انها لولا تعشّقها لغرايدي ، وتعشّقها اياه على نحو عارم ، اذن لفرّت خارجةً من حياته قبل بضعة أشهر .

تلك كانت ، على أي حال ، واحدة من مسائل كثيرة لم تفهمها. انها لم تستطع أن تفهم ما يقال لها من انه لا يعتزم البتة ممارسة المحاماة ، على الرغم من أنه تخرّج من كلية الحقوق واجتاز امتحانات الولاية الرسمية قبل زواجها بشهر واحد . ويوم سألت ماما ايلزي لماذا رفض غرايدي ممارسة الحرفة التي أعدّ نفسه لها

اجابتها ، بلهجتها المتشامخة ، قائلة ان اياً من افراد اسرة دانبار ليس محتاجاً الى ان يعمل في تجارة أو يمارس حرفة كسباً للرزق ، وان الالتحاق بالجامعة هو بالنسبة الى افراد اسرة دانبار مسألة ثقافة واعتزاز ليس غير . وبعد ذلك كانت لوسيان قد حاولت ان تستحث غرايدي على القيام بعمل ما موضحة له ان وجوده خليق بان تكون عبثاً لا طائل تحته اذا ما أجاز لفلسفة ماما ايلزي ان تدمر حياته . ولكن غرايدي لم يلق اليها بالاً . ثم إنها اقلعت آخر الامر عن تلك المحاولة عندما رأت الى أي حد كان من المستحيل عليها أن تحطم قشرة لامبالاته .

وانطلق صوت فتاة ، عالي الطبقة ، فملأ ارجاء الفناء بصرخة شجية :

اذا ما اعطاني فرصة اخيرة ،
فسوف اعطيه حبي حتى اموت ...

كانت الموسيقى ، الحاملة كلمات الأغنية في مد متضخم من الايقاع ، مزعجة مقلقة . لقد بدت وكأن ليس لها نهاية . وكان ذلك يتكرر كل ليلة . كان الزنوج يجلسون في كراسيهم أمام اكواخهم ، ويعزفون على الغيتار ، ويغنون حتى منتصف الليل او بعده . ولكن لوسيان كانت تسمع ، حتى بعد إيوائهم الى الفراش ، تلك الموسيقى المزعجة تضج في اذنيها .

وغطت وجهها بيديها .

وتنهدت قائلة :

— « ارجوكم ان تكفوا عن ذلك . انا لا استطيع الاحتمال

اكثر من ذلك . ارجوكم ان تكفّوا ! »

و لكني فزت بصاحبي ، فزت بصاحبي ...
انا لست غير فتاة مسكينة تناضل من اجل الحياة .

٤

ونام غرايدي طوال الصباح خلف الباب المقفل ؛ بل إنه لم ينهض عندما حملت مارتا اليه فطوره على صينية وتوسلت اليه ان يشرب قليلا من القهوة الحارة على الأقل . و كانت الصينية ، المغطاه بمنديل ابيض ، لاتزال سليمة لم تُمس خارج باب غرفته ، عندما اصعد بين باكستر بسيارته ثم وقف بها امام المنزل في الساعة الرابعة من ذلك الأصيل . كان نهاراً حاراً لا سحاب فيه ، ولكن النسيم بدأ يهب ، عند منتصف الأصيل ، من ناحية الشاطىء ، و كانت لوسيان قد هبطت السلم الى الشرفة لكي تجلس في الهواء المنعش . كان فلاح زنجي يحرث الارض مع زوج من البغال عند المنحدر القائم تحت المنزل ، وكان جرّاران ، هادران طوال النهار على نحو رتيب ، يمهدان ارض حقل القطن عند الرابية القائمة فوق . ومن غير ان تنزعج من صوت محرّكي الجرارين كانت ماما ايلزي في الجناح الشمالي تنعم بقيلولتها المألوفة .

وغادر « بين» السيارة ولوّح بيده الى لوسيان ، في حرارة . كانت قد استشعرت سرعة في نبضها لحظة ادركت من هو . وقد أحسّت الان اهتياجاً صاعداً في صدرها فيما كانت ترى الى

شخصه الطويل النحيل وهو يرتقي الجدار الآجري الى الشرفة :
كان « بين » في العقد الرابع من العمر ، في مثـــل سن غرايدي تقريباً ، واكبر من لوسيان ببضع سنوات . وعلى الرغم من انه كان دانباري المظهر من غير ريب او لَبْس ، وهو امرٌ طبيعي جداً ما دامت امه ووالدُ غرايدي شقيقين ، فقـــد كان لا يشبه سائر الدانباريين من حيث الخُلق والشخصية . والحق انه كان يختلف عن أفراد اسرة دانبار اختلافاً كبيراً جداً جعـــل القوم يدعونه في كثير من الأحيـــان خروف الاسرة الاسود . كان رصيناً ، أنيساً ، لايعرف الانانية البتة. وكانت لوسيان قد أحبته اول ما اجتمعت به، وكان من دأبها ان تأنس اليه اكثر مما تأنس الى غرايدي .

وانتصبت واقفة حين انتهى الى السلم ، وقـــد طفَتْ على وجهها ابتسامة مشوقة . ووقف «بين» ، وانشأ ينعم النظر اليها ، بضع لحظات ، قبل ان يرتقي السلم الى الشرفة . وبسطت يدها فأمسك بها بكلتا يديه ، فترةً طويلة من الزمن ، قبل ان يفوه ايٌ منهما بكلمة . وخطرت لها فكرة مفاجئة مُصيرّة فيما كانت تنظر الى وجهه . لقد تساءلت ايّ الرجلين ، غرايدي ام بين ، كان خليقاً بها ان تتزوجه لو انها تعرّفت اليهما كليهما في وقت معاً .

وسألها « بين » بطريقته الهادئة :

- « كيف انتِ ، يا لوسيان ؟ »

فسارعت الى القول خافضةً وجهها لكي لا يكون في ميسوره ان يرى الى عينيها :

ـ « اوه ، بين ، انه ليسرني الى اعظم الحدود ان أراك من جديد ! »

فقال في قلق :

ـ « ارجو ان لايكون في مجيئي على هذا الشكل اي بأس.»

فأكدت له ذلك رامقة اياه بنظرة عجلى :

ـ « طبعاً ، يا بين . انت تعرف ذلك ،يا بين . »

ثم انه ترك يدها ، آخر الأمر ، وجلس على الدرابزون . وجلست أمامه على الكرسي ، وراقبته وهو يخرج علبة سجائره. وقدم اليها سيجارة ، ولكنها هزت رأسها. ودخن صامتاً بضع لحظات .

لقد جاء زمان قال فيه كل امرىء في المنطقة ، وهو يهز رأسه ، ان بين باكستر سوف ينتهي الى ان يصبح غرايدي دانبار آخر . كان بين باكستر يعيش في تلك الايام حياة متهورة طائشة شبيهة بحياة غرايدي ، منفقاً ميراثه في تبذير ضار موصول ، متجاهلا مسؤولياته وتبعاته. لقد اجازت له أمه ، في اثناء حياتها ، ان يندفع وراء نزواته كلها ، بصرف النظر عن الثمن ، وبعد وفاتها انفق ما تبقى من ثروته في بضعة اشهر . ثم إنه أفاق ذات صباح ، في غرفة بأحد فنادق بوسطن ، ليجد نفسه مفلساً ، جائعاً ، ومن غير صديق يمد اليه يد العون . وكان لا يزال امامه ـ آنذاك ـ عام واحد ينهي خلاله دراسته في هارفرد. وبدلاً من ان يرجع الى مسقط رأسه ويحيا هناك على نفقة انسبائه ، كما توقع الناس جميعاً في ماغوفين ، التحق بعمل يشغل جزءاً من وقتـــه وشق

طريقه خلال سنته الدراسية الاخيرة في الكلية . بل إنه لم يرجع الى مسقط رأسه ليقضي عطلته الصيفية ، مؤثراً ان يبقى في بوسطن ويعمل فيها. إنه لم يُرَ في ماغوفين طوال ثلاث سنوات ، ولكنه رجع بعد هذه المدة حاملاً شهادة في الحقوق وتولى عملاً في مكتب احد المحامين براتب مقـداره عشرون دولاراً في الأسبوع .

وعمل « بين » في ذلك المكتب سنتين ، اعتقد قليل من النـاس خلالها أن التغير سوف يكون دائمياً . فقد توقع كل امريء في البلدة ، تقريباً ، توقعاً يقينياً ان « بين » سوف يرتد في ايما لحظة الى طرائق آل دانبار وآل باكستر . ولكنه ، بدلاً من ذلك ، استقال من عمله وانشأ مكتب محاماة خاصاً به . وكـان أول من زاره في مكتبه ذاك القاضي لوفجوي ، الزعيم السياسي في المنطقة ، الذي كان قد اعجب اعظم الاعجاب بأرادة « بين » القوية حتى لقد عرض عليه مستقبلا كبيراً في عالم السياسة لقاء ولاء « بين » له . ولكن « بين » سارع الى رفض هذا العرض ، قائلا انه يؤثر الاحتفاظ باستقلاله . والواقع ان ذلك الرفض كلفه غالياً . فقد فارق القاضي لوفجوي مكتبه مُغْضَباً ، وبعد ذلك كان المراجعون قلة قليلة . ولكن ما ان انقضت فترة حـتى انتشر بين البيض الفقراء والزنوج المهددين بحجز اثاثهم المرهون ان خير مشورة قانونية وأقلها نفقة يمكن ان يُحصل عليها في تلك الديار ، دائماً ، عند بين باكستر .

ونهض عن الدرابزون وجلس على الكرسي الى جانب لوسيان ، وقال :

ــ « انتِ لم تذهبي الى البلدة منذ قريب. لقد اصبحتِ دارية ملازمة البيت يا لوسيان . »

ــ « ذلك ما بدأت اعتقده ، يا بين . ولكن كل ما في الأمر اني لم أكن اريد ان اذهب الى مكان ما . »

ــ « هذا ليس بصالح لك ، يالوسيـــان . ينبغي ان لا تبقي وحدك ، هنا ، دائماً ، لا ترين احداً اسبوعاً بعد اسبوع . »

فأسرعت الى القول :

ــ « هناك غرايدي . وماما ايلزي . »

وهز « بين » رأسه في وقار. إنها لم تستطع ان تراه ينعم النظر اليها إنعاماً شديداً ، وتساءلت : بأي شيء كان يفكر ، فعلاً ، في اعماق نفسه . وأدارت رأسها لكي تحول بينـــه وبين رؤية التعاسة التي ما كانت عيناها لتخفياها . واذ رآها « بين » تشيح بوجهها عنه تطلّع ببصره عبر الفناء، نحو المنحدر الممتد حتى النهر. وذكّرها قائلاً :

ــ « ان غرايدي يقضي في ماغوفين وقتـــاً أطول من الذي يقضيه في البيت . وحتى حين يكون هنا فانه لا يكون هنا فعلاً ، أليس كذلك يا لوسيان ؟ »

وعرفت في الحال ما الذي عناه «بين» . كان الذي قاله تقريراً لواقع ، ولم يكن سؤالاً يُتوقع منها ان تجيب عنه. والتفتت نحوه ، محاولة ان تبتسم في شجاعة ، ولكن هذه الحركة كانت غير مجدية لانها ادركت بعد ذلك أن من العبث الذي لا طائل تحته ان تحاول إخفاء عواطفها عن « بين » اكثر مما فعلت .

وقالت وهي تتنهد :

— « أحسب انك تعرف ما الذي يجري بيننا . فليس من حسن الرأي ان احاول اخفاء ذلك . »

فقال في قلق :

— « انا اعلم انكِ غير سعيدة الى حد بائس . »

وخفضت عينيها ناظرة الى يديها في حجرها .

وسألها «بين» :

— « هل وفد غرايدي الى البيت الليلة البارحة ؟ »

فهزت برأسها .

— « اين هو الآن ؟ »

— « لست أدري . »

— « أهو في غرفته في الطابق العلوي ؟ »

— « أظن ذلك . »

— « هل تحدثت معه منذ رجع هذه المرة — هل قال شيئاً على الاطلاق ؟ »

— « ماذا تعني ، يا بين ؟ »

— « هل حدثكِ عن متاعبه — عن متاعبه الاخيرة ؟ »

وهزت رأسها قائلة :

— « انا لا أعرف شيئاً عن أعمال غرايدي ، يا بين. انه نادراً ما يقول لي كلمة عما يفعله .

فقال في اغتمام :

— « هذا ما كنت أعتقده . »

وأسند « بين » قدميه الى الدرابزون ، وجلس يحدّق الى الكثبان المكسوّة بالصنوبر عند الجانب الآخر من النهر . وانتظرت لوسيان، متعجبة لماذا وجّه اليها هذه الاسئلة بالذات. لقد أدركت أنه كان مشغول البال ، جدّياً ، بأمر ما .

وقال ، وهو لا يزال مشيحاً بعينيه عنها :

– « لوسيان ... »

فسألته في اضطراب :

– « ماذا ، يا بين. »

ووضع قدميه على الارض ، وانحنى الى أمام ، مُريحاً مرفقَيْه على ركبتيه. كان لا يزال يجتنب النظر اليها مباشرة. فقال :

– «أخشى ان يحدث شيءمن الـ .... من المتاعب، وأعتقد ان من واجبك ان تعرفي شيئاً عن ذلك . وهذا هو السبب الذي من أجله جئت الى هنا هذا الأصيل. لقد أردت ان استوثق أنك تعرفين ما كان يجري . »

– « عمّ تتحدث يا بين؟ »

– « سوف يحدث بلاء ما ، يا لوسيان . »

فسألته في فزع :

– « اي نوع من البلاء ؟ عمّ تتحدث ؟ »

– « ولكي يزداد كل شيء سوءاً سوف يحدث صنفان من البلاء هذه المرة بدلاً من البلاء المألوف . »

– « لقد عاد الى المقامرة وخسر مقداراً كبيراً من المال ،

أليس كذلك . ؟ »

– « الفين وخمسمئة هذه المرة ، يا لوسيان . هذا مبلــغ ضخم . ان غرايدي لن يستطيع ان يجمع مثل هذا القدْر بعــد اليوم . »

فقالت في شيء من الرجاء :

– « لعله يستطيع ان يقترضه من البنك . »

– « لا ، البنك لن يقرض غرايدي هذا المبلغ . ولن يقدم على ذلك ايّ مراب ايضاً . »

– « ما الذي سوف يفعله ، يا بين » ؟ ما الذي نستطيع ان نفعله ؟ »

– « لست ادري . لو كان معي مثل هذا المبلغ لأقرضته اياه ، اكراماً لك يا لوسيان ، ولكني لا أملك هذا الضرب من المال . أنا اخشى ان أكون عاجزاً هذه المرة عن مساعدته . إن ما تبقّى من هذه المزرعة أصبح مرهوناً كله ، وقد ألقي الحجز على التراكتورات . والبغلان اللذان يملكهما غرايدي لا يباعان في المزاد العلني بمئة دولار ، حتى ولو لم يكونا مرهونين من قبل . وليس في البلاد كلها رجــل واحد مستعد لأن يوقّع كمبيالة غرايدي وهو مالك لقواه العقلية . هــذا هو الوضع الان . ان أسرة دانبار قد انتهت ، أو كادت ، يا لوسيان . »

– « هل تعني ان الوضع يائس الى هذا الحد ، يا بين ؟ »

فهزّ برأسه .

وقالت لوسيان محزونةً :

— « مسكين غرايدي . إني اشعر بأعظم الأسف عليـــه في بعض الأحيان . اجل ، اني أرثي له ، برغم كل شيء . فليس لي في هذا الأمر حيلة . لعل مردّ ذلك الى انه زوجي ، ولعل مردّه الى طبيعتي ليس غير . ولكني أستشعر الشيء نفسه كلما أصابه بلاء . وفي كثير من الاحيان يخيل اليّ أن هذه الاشيـــاء الرهيبة التي تنزل به ينبغي ان لا يُلْقَى إثمهـــا عليه . إنه لا يستطيع ان يكون غير ما هو . إنها لعنة الترعرع في هذه الأسرة اكثر منها لعنةَ ايّ شيء آخر. إن مجرد ولادته « دانبارياً » هو الذي أفسده . ولو انه قصد الى مكان آخر وابتعد عن هذا البيت الشرير الفاسد اذن لسنحت له فرصة أفضل . وما دام مقيماً في هذا الجو الفاسد فأنه سيظل يفكر أن العالم مدين له بالحياة بمجرد أنه من اسرة دانبار. سوف أبقى الى جانبه ، مهما كنّا فقيرين ، اذا ما رضي بالذهاب ، بالذهاب الى مكان بعيد ، وبالعمـــل كسباً للرزق . إن في استطاعته ان يفعل ذلك اذا أراد . ولكن لا ، إن ماما ايلزي سوف تعتبر ذلك غير متفق مع كرامـــة الدانباريين . »

— «هل سبق لكِ ان تحدثتِ الى غرايدي عن فكرة الانتقال من هنا ؟ »

— « إن غرايدي لا يصغي الى كلامي ، يا بين. لقد حاولت جميع الطرق التي أعرفها كي أحمله عـــلى الكلام عن ذلك ، ولكن اذا واصلتُ هذه المحاولةَ فقَدَ أعصابه واستبدّ بـــه غضب شديد يدوم اياماً وأياماً . وحين يحدث ذلك فأنه كثيراً ما

يمتنع عن الكلام معي اسبوعاً بطوله . وبدلاً من ان أجد نفسي مضطرة الى احتمال هذا الوضع أحاول ان اجتنب إغضابه . انا ادري ان من واجبي ان أحاول ، وان لا أكفّ عن المحاولة ، ولكن يبدو لي ان الحالة يائسة جداً . »

وحدث ارتجاج في المنزل . وفي الحال أمسى في ميسورهما ان يسمعا وطء قدمي غرايدي الثقيلتين فيما كان يهبط السلّم . وتبادل « بين » ولوسيان النظرات في ذعر. ونهض «بين» واقفاً.

٥

ومن غير ان يلمح أياً منهما استدار غرايدي، موسعاً الخطى في تثاقل، حول الشرفة، ومضى الى الناحية الجنوبية من المنزل. ولم يكد يغيب عن البصر حتى سمعاه يصيح في صوت أجشّ . وتساءل « بين » ولوسيان عمّا كان يجري عند المدخل الجانبيّ ، وهُرعا الى الزاوية .

حتى اذا وصلا الى هناك رأيا غرايدي واقفاً عند أعلى الدرَج والعمّ جيف دايفيس جاكسون ، احد الزنوج العائشين في المنطقة ، ينتظر في فِناء الدار . وكان العم جيف اقدم زنجيّ في المزرعة ، إذ وُلد هو وزوجته العمة بيسّي على ارضها ، وحملا الاسم الذي خلعه جدّ غرايدي على كل منهما . وكان لهما ولد واحد هو سامّي الذي ترعرع في المزرعة ثم غاب عنها سنتين أدى خلالها الخدمة العسكرية . لقد عاد سامّي الآن ، ولكنه بدلاً من ان يرجع ليعمل في خدمة غرايدي آثر ان يعمل في منشرة للخشب في ماغوفين .

كان في ميسور « بين » ولوسيان ان يريا غرايدي يحدّق غاضباً الى العم جيف دايفيس ، الذي وقف ، في ذلة ، في فناء الدار ممسكاً قبعته بيده . وحرّك الزنجي العجوز الأشيب حذاءه العتيق الممزّق فوق الطريق الرملية الوعرة تحريكاً عصبياً .

وسأله غرايدي في فظاظة :

ـ « ما الذي تريد ان تراني من أجله ؟ ماذا تعني بأرسالك «مارتا» لتخبرني انك تودّ ان تراني في هذه الساعة من النهار ؟»

فقال العم جيف في صوت مرتعش :

ـ « عفواً، يا سيدي مستر غرايدي؛ انا اكره ان ازعجك على هذا النحو ، ولكني اردت ان اسألك منّةً صغيرة، وكنت اخشى ان تغادر المنزل مرةً اخرى من غير ان تتاح لي فرصة الكلام معك، يا سيدي.» وبسبب من خوفه ان يغضب غرايدي اكثر مما ينبغي شرع يتلعثم بكلماته تلعثماً عصبياً.

فقال غرايدي مهتاجاً :

ـ «حسن، قل ما تريد ان تقوله وكفّ عن هذه الغمغمة. ولكنْ ، في المرة القادمة ، إنتظر حتى تراني أخرج من البيت. انا لا أحب ان يستدعيني الزنوج . »

وحرّك العم جيف دايفيس قدميه على الرمل ، وانحنى وغمغم على نحو اعتذاريّ :

ـ « عفواً ، يا سيدي مستر غرايدي ، كل ما أريده منك هو ان تسمح لي ولزوجتي بالانتقال الى المدينة . لقد بدأنا ، كلانا ، نشيخ ، ولم أعد قادراً على العمل في الحقول مثلما كنت

من قبل. ان الحرارة تصرعني ، مثل الشيطان نفسه، كلما خرجت وحاولت ان أقوم بالعمل اليومي . ولولا ذاك ، لما رغبت في مغادرة هذا المكان والانتقال الى ماغوفين. ولولا اني بلغت هذا المبلغ من الشيخوخة لما باليتُ بالحرارة او بأيّ شيء آخر ، لأني اشكرك من غير ريب يا مستر غرايدي على سماحك لي بأن أعمل في خدمتك طوال هذه المدة ، ولكنْ لم يبقَ لي ولزوجتي من العمر غير ايام معدودات ، وكل ما نحتاج اليه هو قليل مــن الراحة ننعم به قبل ان نرحل عن هذا العالم . ارجوك ، يا مستر غرايدي ، هل تسمح لنا بذلك ؟ »

فصاح غرايدي مغضباً :

– « لا ، وحقّ الجحيم ! مــا الذي يجعلك تعتقد ان في استطاعتك أن تغادر هذا المكان وتمضي لتحيا في مكان آخر ؟ من الذي أطعمك طوال عمرك وقدّم اليك منزلاً تسكن فيه ؟»

– « انت قد فعلت ذلك ، يا مستر غرايدي . أنت وابوك من قبلك فعلتما هذا . انا اشكرك من غير شك على مــا صنعته انت وصنعتَهُ هو من اجلي ومن اجل اهل بيتي . »

– «واذن فما الذي يجعلك تعتقد ان في استطاعتك ان تنسحب وتغادر هذا المكان من غير ان تدفع اليّ ايّ تعويض عن ذلك كله ؟ »

فقال العم جيف دايفيس في صوت مشدوه :

– « أدفع اليك ، يا مستر غرايدي ؟ »

– « لقد سمعتني ! أنت لست أصمّ ! »

– « ولكن ، يا سيدي غرايدي ، وكل هذا العمل الذي قمت به خلال هذه السنوات كلها ؟انا ادري عدد تلك السنوات ، ولكن الذي أعلمه ان كومة من السنوات قــد انقضت منذ ان شببت عن الطوق واصبحت قادراً على النهوض وجرّ المحراث من يديه . يبدو لي ان ذلك قديم الى درجة كافية لتغطية مــا تطلبه من نفقات السكن والغذاء . »

– « من الذي أدخل الى رأسك فكرة الرحيل هذه؟ مع من كنت تتحدث في هذا الموضوع ؟ »

– « ولدي سامّي ، يا سيدي . لقد رجع من الحرب منذ فترة غير بعيدة وحصل عــلى عمل في المنشرة في ماغوفين يعود عليه بمالٍ حقيقي كل ليلة سبت، وهو يقول إنه يريد مني ومن أمه ان نذهب الى البلدة ونعيش معه لأنه يكسب اجراً يمكّنه من ان يستأجر بيتاً نستطيع كلنا ان نسكن فيه معاً . »

فقال غرايدي :

– « لقد كنت اتساءل دائماً عن مقرّه . لماذا لم يرجع الى هنا ويعمل في خدمتي بدلاً من أن يحصل على عمل في المدينة ؟ ألم يكن خليقاً به ان يكون اكثر حكمة من ذلك ؟ »

وشرع العم جيف دايفيس يرتعد على نحو متشنج وكأنما اصابته حمّى . لقد لوى قبعته القشّية العتيقة بيديه المرتعشتين ، وخفض بصره الى الارض .

– « لقد سمعتَ سؤالي ! لماذا لم يرجع الى هنا وينصرف الى العمل الذي خُلق له ؟»

فقال في ذعر :

ـ « أحسب ان السبب في ذلك هـو انك لا تدفع الينـا الاجور الحقيقية وبأوراق نقدية . ان سامي يفضل ان يقبض مالاً حقيقياً في منشرة الخشب على مجرد الحصول عـلى بعض الالبسة العتيقة او شيء آخر بين الفينة والفينة . »

فقال غرايدي :

ـ « لقد اصبح واحداً من اولئك الزنوج اللعينين الذين يملأ نفوسهم التكبر والفخار . إن من الخير له ان يبقى في المدينة ، لاني لو لقيتُهُ في هذا المكان لضربته ضرباً يعيد الى رأسه بعض العقل . انا لا اريد أن اسمع الزنوج يتحدثون على هذه الشاكلة . انت تفهم مـا قلته لك ، ايها العم جيف دايفيس ، أليس كذلك ؟ »

ـ « نعم ، يا سيدي ، مستر غرايدي . لقد فهمت ما قلته . »

ـ « حسن اذن . ارجع الى البيت الذى خلقت له ، وحذار ان تدعني أسمع منك بعد اليوم شيئاً من هذا الحديث السخيف. »

وحرّك العم جيف دايفيس قدميه فوق الفِناء الرملي ، ويداه تشدان ، في عصبية ، أطراف قبعته الممزقة . ورجـع بضع خطوات الى الوراء، ولكنه لم ينصرف. لقد راقبه غرايدي بفظاظة .

وصاح غرايدي :

ـ « عليك اللعنة ! لماذا تقف هناك على هذا الشكل ؟ لقـد

سمعت ما قلت . لماذا لا تفعل ما قلته لك ؟ إرجع الى كوخك ! »
فقال متوسلاً :
– « عفواً ، يا سيدي ، مستر غرايدي . أنا لا اعتزم ان اعصي أمرك ، ولكني راغب من غير شك في الرحيل الى البلدة. اني اريد ، انا وزوجتي ، ان نذهب الى هناك يا سيدي مستر غرايدي . انا اعلم انك لست من اولئك الذين يقسون على الملونين ، لان أباك كان ... »
فقال :
– « إخرس . لقد سمعتك تتكلم اكثر مما ينبغي . »
وهبط درجات السلم الى الفناء على نحو متوعد :
– « انك سوف تبقى هنا ! كم مرة يتعيّن عليّ ان أقول لك ذلك ؟ »
– « ولكن ، يا مستر غرايدي ، أليس هناك طريقة لتركنا نذهب ؟ »
فقال غرايدي وهو يضحك ضحكة قصيرة :
– « من غير شك. كل ما عليك ان تفعله هو ان تدفع اليّ ما انت مدين به لي مقابل تنشئتك وحمايتك . »
فقال العم جيف دايفيس وقد اشرق وجهه بالأمل :
– « وكم يبلغ ذلك ، يا مستر غرايدي ؟ »
– « خمسمئة دولار . »
وتحرك رأس الزنجي العجوز ، في بطء ، من جانب الى جانب . والتمعت حبّات دمع على خديه . وغاصت كتفاه ادنى

فأدنى .

وقال في صوت نصف مرتفع وهو لا يزال يهزّ رأسه في يأس :

— « خمسمئة دولار ! مستر غرايدي ، انت تعلم جيداً اني لا املك شيئاً مثل ذلك ولم املك شيئاً مثله في ايّ يوم . انا لم يجتمع في يديّ هذا المقدار من المال طوال السنوات التي عملت خلالها في خدمتك وخدمة ابيك معاً . إن أباك لم يكن هو الآخر يؤمن بدفع الاجور مالاً حقيقياً ، وكل ما قُدِّر لي ان أناله منه كان بعض الملابس العتيقة وكيساً من اللوبياء البلدية بين الفينة والفينة ، وهو ما تعطيني إياه انت ايضاً في بعض الاحيان. هذا هو السبب الذي يجعلني عاجزاً عن ان ادفع اليك ما تقول أني مدين لك به . وثق اني كنت ادفع اليك هذا المبلغ من غير شك لو كنت املكه . »

فأصدر غرايدي أمره اليه قائلا :

— «إذن فاذهب من هنا وكفّ عن المجادلة في هذا الموضوع . لقد سئمت الاستماع اليك . وبعد هذا ، لا أريد ان أسمع ايما شكوى من جانبك ايضاً . »

— « ولكن ، ارجوك ياسيدي ، يبدو ان من الحق ان تسدي اليّ منّةً صغيرة كهذه بعد هذه السنوات كلها التي لم اسألك خلالها شيئاً غير ما يقيم أودي بين الحين والحين . لقد بلغت من الشيخوخة ، كما قلتَ ، مبلغاً يجعلني لا اصلح بعد اليوم للعمل في الزراعة . كل ما في الأمر اني بحكم الطبيعة لم يعد في امكاني

القيام بالاعمال الشاقة . لقد أوشكت ايامي ان تنتهي ، على كل حال . »

— « سوف اخبرك متى ينبغي ان تترك العمل ولست اريد ان أسمع انك تركت العمل ولذتَ بالفرار . انا أعرف كيف أعامل الزنوج الآبقين . سوف أطلق كلاب «الشريف» خلفك في سرعة تخيّل اليك ان صاعقة قد انقضّت عليك . »

— « واذن ، ارجوك يا سيدي مستر غرايدي ، لعلك ان تسمح لزوجتي بالانتقال الى البلدة لأنها مصابة بروماتيزم رهيبة في ظهرها ، وإنه ليؤلمها ان تنحني فوق الغسيل كما تفعل الآن . اذا لم ترد أن تسمح لنا كلينا بالذهاب فأرجوك ياسيدي انتسمح لها هي بذلك . سوف أكون شاكراً لكهذا الجميل أعظم الشكر طوال حياتي يا مستر غرايدي . »

وتناول غرايدي مقبض فأس كان مطروحاً على درجات السلم . وراح يؤرجحه امامه جيئة وذهوباً عدة مرات ، مكرهاً العم جيف دايفيس على الابتعاد عنه قائلا :

— « ارجع الى بيتك وأبقِ فمك الأسود مغلقاً من الآن فصاعداً . »

وتقدم نحو الزنجي ، مؤرجحاً مقبض الفأس في قوسٍ أعرض . ثم اضاف :

— «اذا عدت الى هنا في اي لحظة لتقول لي مثل هذا الكلام اللعين فسوف تكون تلك المرةهي المرة الأخيرة . لقد سمعتمنك اقصى ما استطيع ان احتمله . »

وارتدّ العم جيف دايفيس الى الوراء حريصاً دائماً على البقاء بعيداً عن متناول غرايدي . حتى اذا انتهى الى حافة الفناء ، حيث تبدأ الطريق الى منزله ، استدار وانطلق مسرعاً الى الاكواخ مختلساً النظر ، من فوق كتفه ، بين الفنية والفينة حتى غاب عن البصر .

واستدار غرايدي ، وهو لا يزال يؤرجح العصا الثقيلة ، ومشى عبر الفناء الى زاوية البيت حيث كان « بين » ولوسيان واقفين عند درابزون الشرفة .

وقال لـ « بين » :

— « حسناً ، ماذا تريد ؟ ما الذي جاء بك الى هنا ؟ لكي تقدّم نصيحة مجانية ما ؟ »

فقال « بين » في غيرة ، منحنياً فوق الدرابزون وخافضاً بصره نحو ابن عمه :

— «اسمع يا غرايدي ، لماذا لا تقوم بهذه الفعلة العظيمة وتدع ذلك الزنجي العجوز يذهب الى حيث يريد ان يذهب ؟ لقد بلغ من الهرم مبلغاً يجعله اعجز من أن يشتغل بعد اليوم ، أنت تعرف ذلك. انك لا تحمله على البقاء هنا إلا لغضبك على سامّي جاكسون لأنه لم يرجع الى هنا ليعمل في خدمتك . هذا ليس عدلاً . ان الشيء اللائق الوحيد هو ان تدع العم جيف دايفيس يرحل . انت تعرف ذلك ، يا غرايدي . »

— « انا لن أسمح لزنجي بأن يجيء اليّ ويقول لي انه يعتزم الرحيل . »

فقال « بين » :

– « فلننس هذا لحظة . الشيء المهم هو ان ترعى حرمة اي مخلوق بشري ، سواء أكان أبيض ام أسـود . ان لذلك الزنجي العجوز من الحق في ان يحيا حياته على الطريقة التي يريدها مثل الذي لك انت . يبدو انك قد نسيت ذلك ، هذا اذا كنت قد ادركت هذه الحقيقة في يوم من الأيام . إنه ليس مديناً لك بفلس واحد : انت المدين له بالمال . والآن لمَ لا تعتبر انه ليس لك عليه شيء وليس له عليك شيء وتدعه ينصرف ؟ هذا هو الشيء اللائق الوحيد الذي ينبغي ان يُعمل ، يا غرايدي . »

وقذف غرايدي مقبض الفأس عبر الفناء بأقصى قوته ، وقد احمر وجهه بالغضب .

– « انا أعرف كيف أعامـل الزنوج وأجعلهم يبقون في مكانهم ، وانا أعتزم ان ألتزم هذه الخطة ايضاً . ان محبي الزنوج مثلك هم الذين يثيرون هذا الاضطراب كله ، اذ يطوفون في كل مكان ويصرحون بانه لا فرق بين السود والبيض . ماالمصير الذي ستنتهي اليه هذه البلاد اذا اصغينا الى هذا الضرب من الكلام الذي تنطق به ؟ إن في استطاعتي ان أخـبرك ! ان الاهتياج سوف يعصف بالزنوج ، هذا ما سوف يقـع ! انهم سوف يغتصبون كل امرأة بيضاء في البلاد ، ويطلقون النـار على كل رجل أبيض . إرحل الى الشمال اذا كانت هذه هي الطريقة التي تريد ان تتحدث بها ، لأننا لا نريد ان نراك هنا . اننا نريد أن نبقي الزنوج في مكانهم ، سواء اعجبك ذلك وأعجب امثالك أم

لم يعجبكم . »

فقال « بين » :

— « انك لا تستعمل عقلك ، يا غرايدي . لقد تغير العصر: ان لكل امرىء في هذه البلاد حقوقاً اساسية معينة . خــذ العم جيف دايفيس مثلا ... »

فقال غرايدي وهو يومىء بيده ايماءةمن ضاق ذرعاً بحديث « بين » :

— « لقد سمعت ما فيه الكفاية من ذلك . »

واستدار على نحو مفاجىء ، وراح يمشي نحو مؤخر البيت. ثم أضاف :

— « لو تُرك حبلكم ، يا محبي الزنوج ، على غاربكم اذن لأفسدتم كل الأشياء الصالحة التي تمت في المئة السنة الماضية . »

حتى اذا مضى لسبيلهأومأ «بين» الى لوسيان فتبعته عبر الشرفة حتى الدرجات الدنيا من السلم. ثم انهما مشيا في صمت نحو سيارة «بين» .

وقال « بين » :

— « هذا هو الشيء الآخر الذي كنت أعتزم ان احدثك عنه يا لوسيان . ان هذا هو الصنف الثاني من البلاء . »

— « ماذا تعني ، يا بين ؟ »

— « لقد جاء سامّي جاكسون الى مكتبي منذ ايام، واخبرني انه يريد ان ينقل ابويه الى البلدة . كان يعرف ، كما أعرف ، ان غرايدي سوف يقول انهما لا يستطيعان الرحيل ، ولقد سألني ان اسدي اليه النصيحة. واتفقت مع سامّي ان يكلف اباه بالمجيء

الى هنا هذا الأصيل وان يسأل غرايدي الاذن بالرحيل ، وهذا ما يفسّر لك وجودي هنا الآن . لقـــد اردت ان أكون حاضراً وان أسمع ما يقال . لقد حسبت ان في ميسوري ان أقنع غرايدي بالسماح للعم جيف دايفيس وزوجته بالذهاب . ولقد رأيت الى ايّ حد حالفني الأخفاق . »

فاقترحت قائلة :

— « ولكن لعله لا يزال في استطاعتك ان تحدث غرايدي عن السماح لهما بالذهاب . »

— « لست اعتقد ذلك . وأغلب الظن ان الاجراء القانوني وحده يستطيع حمل غرايدي على تغيير رأيه . وما دام قادراً على ابقائهما هنا ، من طريق التهديد وغيره ، فانه يواصـــل تشغيلهما بالمجان تقريباً . ولقد كان أبوه يفعـــل الشيء نفسه من قبله . والامر سهل جـــداً : حَسبُه لكي يُبقي احدى الاسر الزنجية رازحة تحت دَيْن سرمديّ ان يسجل عليها في دفاتره مقابـــل الطعام والسكنى مبالغ أعظم من تلك التي يسجلها لها مقابل العمل ، حتى اذا خطر لتلك الاسرة ان تترك العمل استطاع ان يردّها اليه بمجرد تكليفها أن تدفع اليه نفقات تطبيب خيالية او غير ذلك مما يزعم انه انفقه عليهـــا . وليس من ريب في انهم لو استطاعوا القراءة اذن لطالبوا بالاطلاع على الدفاتر ولاحتجوا ، ولكن متى سمح غرايدي لأي ولد زنجي بالذهاب الى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة ؟ »

— « هل الأمر سيء الى هذا الحد حقاً ، يا بين ؟ »

فهز رأسه وقال :

— « بل اسوأ . ان معنى ذلك انهما من زنجي في هذه المزرعة سوف يكون قادراً في اي يوم من الايام على الخلاص من دَيْن غرايدي . ولكن العصر يتغير بأسرع مما يتغير الدانباريّ ، ولقد عزمت على ان أمدّ اليه يد المساعدة . »

— « ما الذي تنوي ان تفعله ؟ »

— « سوف أعطي غرايدي فرصة أخيرة للسماح للعم جيف دايفيس والعمة بيسي بالرحيل، وبالسماح ايضاً للزنوج الآخرين المقيمين في هذه المزرعة بالانصراف ، واذا ما رفض — وهو ما سيفعله — فسوف أسعى بنفسي لحمل القانون على التدخل لتحطيم أقليم العبودية الخصوصيّ الصغير هـذا . إن غرايدي ليس هو الشخص الوحيد الذي يفعل ذلك في هـذه المقاطعة . انا أعرف نصف دزينة على الاقل من اصحاب الاراضي الآخرين الذين ينبغي إكراههم على التزام السبيل القويم. انا لن أفوز بأية مساعدة من القاضي لوفجوي لأن ذلك لن يكون من حسن السياسة في رأيه ، بل إنهم قد يحاولون إسكاتي، ولكني سوف اقيم الدعوى ولو اودى بي ذلك الى التهلكة. لم يعد ثمة مكان لمثل هذه الاشياء في هذه البلاد . »

— « ولكن حتى اذا اعطيت غرايدي فرصة اخرى فأنه لن يسمح لهما بالذهاب ، كما تعرف . ان غرايدي أشد عناداً من أن يفعل ذلك ، يا بين . »

فقال في تصميم :

— « اذن سوف أمضي قدماً وأقاوم غرايدي . ولتذهب رابطة الدم الى الجحيم ما دام الامر كذلك . سوف ابذل كل ما استطيع من اجل غرايدي لاننا كنا دائماً صديقين حميمين ، وانا أحبه ، وهو ابن عمي حقاً . سوف ابذل قصارى جهدي لمساعدته على جمع المال الذي يحتاج اليه او احاول سداد الدين بطريقة ما . ولكني في الوقت نفسه سوف امضي قدماً في هذه المسألة الاخرى . »

وفتح باب سيارته وجلس خلف المقود . ورأته لوسيان ، وكانت لا تزال معتصمة بالصمت ، يدير محرّك السيارة .

وقال « بين » مبتسماً في قلق :

— « حسناً ، ارجو ان لا تبغضيني من أجل ذلك ، يا لوسيان . ولكن هذا ما يمليه عليّ ضميري ، ويتعيّن عليّ ان اعمل بوحي من هذا الضمير . ذلك ما أردتُ ان اشرحه لك . »

فقالت وقد مضت الى باب السيارة ووضعت يدها على ذراعه :

— « انا لا ابغضك من اجل ذلك ، يا بين . انا معجبة بك بسبب من هذا . الواقع اني ما كنت أعرف ان شيئاً مثل هذا كان يحدث . لقد حسبت ان في استطاعة الزنوج ان يغادروا المكان ساعة يشاؤون . فلم يسبق لأحد ان اخبرني ان من الحتم عليهم ان يبقوا هنا . ما كنت احسب قط ان الامور تجري على هذه الصورة . »

فقال :

— « لعل هناك كثيراً من الناس الذين لا يعرفون ذلك ايضاً .

ولسوف نحاول أن ننوّرهم – وان ننوّر غرايدي كذلك . »

٦

وتناول غرايدي عشاءه في غرفته تلك الليلة ، وجلست لوسيان تتناول وجبةً اخرى طويلة صامتة في حضرة ماما ايلزي التي كان مظهرها كله يوحي باللوم والتقريع . كان الخبث والكيد الراشحان من سكوت حماتها ممضّين مبرّحَين . حتى اذا انتهى هذا النكال آخر الأمر ، ارتقت لوسيان السلّم الى غرفتها .

ومرةً اخرى لبست الثوب الجديد الذي أرادت ان يراه غرايدي عليها ، وسرّحت شعرها في عناية . ثم إنها اجتازت الرواق والأمل يعمر فؤادها . ولم يكن باب غرفة غرايدي موصداً هذه المرة ، فانفتح في يسر عندما أدارت «تفاحته» ، ووجدت نفسها واقفةً مبهورة النَفَس ، في منتصف الغرفة .

إنه لم يكن هناك . وفيما وقفَتْ تحدّق الى الفراش المتغضّن الخالي والكرسي الواسع الذي كان مصباح المطالعة المظلَّل قائماً الى جانبه استشعرت ألم الشقاء المألوف يلمّ بها . ومضت الى الفراش ، وجلست خائرة القوى ، محاولة إقناع نفسها بأنه سوف يرجع . وبعد نصف ساعة نهضت ، وهبطت السلم المظلمة ، وغادرت المنزل .

كان بدر كامل ضارب الى الصفرة يرسل أشعته فوق النهر ، فهامت لوسيان على وجهها في الظلام فترة طويلة من الزمن ،

تجوس خلال الظلال في الفناء الرملي الابيض . كانت طيور الليل المصفقة باجنحتها بين أغصان السنديان تُسقسق وتثرثر على نحو موصول . وفي مكان بعيد في الحقول كان غراب من غربان المطر ، جاثم على شجرة خاكي ، ينعب نعيباً حدادياً .

وفجأة ، وفي غمرة من آلامها النفسية المبرّحة ، سمعت ضحكاً رقيقاً وانغام « غيتار » . وكان في ذلك الايقاع الغامر ما جعل نبضات قلبها تتسارع تسارعاً مهتاجاً . لقد طالما سمعت ، ليلة بعد ليلة ، حين كانت تجيز لنفسها ان تصغي ، هذا اللحنَ البدائيّ وتلك الاغنية ذات الابيات التي تبدو وكأن ليس لها من نهاية :

وعندما يهبط الليل على الأرض .
يسمع الجميع الفتاة المسكينة التي تنتحب ...

وركضت لوسيان ، عبر الفناء ، الى الجانب الامامي من المنزل . كانت سيارة غرايدي لا تزال واقفة حيث تركها الليلة البارحة تحت الرواق المُعمّد ، ولقد كانت لوسيان على مثل اليقين من انه لم يرجع الى البلدة . لقد عرفت آنذاك انه لا بدّ موجود في كوخ من أكواخ الزنوج . ولم يكن قد سبق لها ان قصدت الى هناك بعد الغروب قط ، وكثيراً ما كان غرايدي قد أوصاها بالابتعاد دائماً عن مجتمع الأكواخ الخاصة باولئك الملونين ، أما الآن فقد عرفت الى اين ينبغي ان تذهب .

لقد غادرت الرواق المعمّد ، واجتازت الفناء الامامي ، ودارت حول المنزل ، قاصدة الى المجاز الهابط الى مجتمع

الاكواخ . كانت فتاة زنجية اخرى قد تصدّرت لأكمال الاغنية في صوت مجنون لا يعرف الاحتشام . ووقفت لوسيان وأصغت اليها :

ايها الرجل الجميل لقد اصبحت عاجزة عن الاحتمال ،
ايها الرجل الجميل تعال ، واحمل الي البهجة ،
سوف اقدم اليك كل ما ترغب فيه ،
ولسوف أبقى دائماً صحنك الطافح !

وشرعت لوسيان تهبط ، في عزم ، ذلك المجاز الممتد بين صفّين من شجرات الخوخ المنوِّرة . وفي باديء الامر استطاعت ان تسمع موجات من الضحك البطيء الكسول ، الأجشّ المستهتر ، ولكنها ما ان اقتربت من الكوخ الأول حتّى تلاشى الضحك فجأة تلاشياً كاملاً .

إن طفلاً قد بدأ يبكي ، ولقد سمعت امرأة تقول في صوت ملحاح « هش ، ايها الطفل ، هش ! » . وحين واصلت تقدمها أمسى في ميسورها ان ترى جماعات صغيرة من الزنوج الجالسين على الكراسي في باحات الاكواخ الأمامية . وكانت كل جماعة من هذه الجماعات تعتصم بالصمت وتفزع الى الجمود حين تراها وتتبيّن أنها لوسيان .

واجتازت بالكوخين الأولين ، وعندما انتهت الى الكوخ الثالث بصُرَت بأحدى النساء تنهض من كرسي هزاز في الفِناء وتُقبِل نحوها . ووقفت عندما عرفت فيها شخص مارتا التي راحت تسير متمايلة ، وفي جهد ، نحو المجاز . وكان في ميسور لوسيان أن تدرك من لمحة واحدة ان سائر الزنوج كانوا يراقبونها في ذعر .

وهمست مارتا وهي ترفع نبرة صوتها الأجش :

— « أهذا أنتِ يا مس لوسيان ؟ »

وبدت مارتا أضخم واكثر بدانةً ، في أشعة القمر الصفراء، مما بدت في أيما وقت مضى . وكشأنها ، في الصيف والشتاء على السواء ، كانت حافية القدمين :

— « هذا انتِ ، أليس كذلك ، يا مس لوسيان ؟ »

ولم تجب لوسيان، لأنها علمت انمارتا قد عرفتها منذالبدء .

— « يا الهي ! ما الذي جئتِ تفعلينه في مثل هــذه الساعة المتأخرة من الليل ، وانت وحيــدة ليس معك رفيق ، يا مس لوسيان ؟ هل تريدين مني أن أذهب الى البيت الكبير واؤدي لك خدمة ما ، يا سيدتي مسّ لوسيان ؟ »

فسارعت الى الاجابة :

— « لا ، يا مارتا. ليس ثمة ما ينبغي ان يُعمل هناك الآن.»

وأنعمت مارتا النظر اليها في أشعــة القمر المشرقة : كانت فريسة القلق والجزع .

— « لقد بلغت الساعة الحادية عشرة أو اكــثر ، يا مس لوسيان . لقد كان جديراً بي انا شخصياً ان آوي الى فراشي في هذه اللحظة لولا الحر والرطوبة ، ولكني أردت ان أنعم بشيء من الهواء العليل الذي يهبّ هذه الليلة . واذا كنت لم تألفي هواء الليل فقد يؤذيك البقاء خارج الجدران على هذا الشكل . إن هناك أكواماً من الاشياء الكريهة التي لا تستطيعين أن تريْنها دائماً في الظلام . »

فقالت لوسيان في فروغ صبر :

— « انا أبحث عن مستر غرايدي . هل رأيتِهِ يا مارتا ؟ »

فأجابت في سرعة مذهلة :

— « لا ، يا سيدتي ! »

فقالت لوسيان في جفاف :

— « مارتا ! »

وغار رأس مارتا الضخم المستدير ، غار شيئاً بعد شيء في كتلة اللحم المستديرة فوق كتفيها فيما كانت تتظاهر تظاهراً واضحاً بأنها تعيد التفكير في السؤال . واخيراً رفعت بصرها الى لوسيان وعلى وجهها انطباعة بريئة موَجعَة .

وسألتها :

— « تعنين هل رأيتُ مستر غرايدي مؤخراً ، يا مس لوسيان ؟ »

— « انت تعلمين ما أعني على وجه الضبط ، يا مارتا . »

— « هل أعلم ، يا مس لوسيان ؟ »

— « أجل ، أنتِ تعلمين ! »

وبدأت في تردد :

— « حسناً ، لعلي اذا وقفت ورجعت بالفكر قليلاً الى الوراء ... »

فسألتها لوسيان في حزم :

— « هل رأيت مستر غرايدي ، أجيبي بنعم أو لا ! »

وفتلت مارتا طرف إزارها وهي مستغرقة في التفكير . ثم

أجابت في براءة كاملة :

ــ « حين افكر في ذلك اذكر اني رأيته قُبيل العتمة عندما رجع من البلدة. والآن وقد طرّيتِ ذاكرتي يبدو لي أني واثقة من ذلك ، لان هذا كان عندما أعددتُ له عشاءه ، ولكنه لم يأكل شيئاً على الاطلاق ، ولأن هذا كان عندما سألتك اذا كنتِ تريدين مني ان أبقي عشاءه ساخناً على الموقد . انا واثقة كل الثقة من ذلك الآن ، يا مس لوسيان . »

ــ « لقد كان ذلك الليلة البارحة ، يا مارتا ، وانت تعرفين هذا ! »

ــ « حقاً ؟ يا للعجب ! ما أسرع ما يمرّ الوقت ، أليس كذلك ، يا مس لوسيان ؟ »

ــ « دعكِ من ذلك الآن ، يا مارتا . هل رأيتِ مستر غرايدي الليلة ــ منذ ان هبط الظلام ؟ »

كانت منرفزة تستشعر كثيراً من الضيق . فالتفتت وألقت نظرة وراءها على جماعة الزنوج الصامتين الجالسين في الفناء في تصلّب وتوتر . ثم إنها عاودت النظرَ الى لوسيان ، ولكنها سارعت الى الاشاحة بوجهها عنها. وخفضت بصرها نحو المجاز حيث كانت تملّس الرمل بقدميها تمليساً نظامياً. وشرع أحد الاطفال يبكي ، ونهضت امرأة كانت في الفناء ومضت الى الكوخ على جناح السرعة .

وسألتها لوسيان في حنق :

ــ « لماذا لا تجيبيني يا مارتا ؟ لقد سمعتِ سؤالي ، وانتِ

تعرفين تماماً ما أريد ان أعرفه . ما الذي يجعلك تسلكين هكذا؟ كل ما أريد ان أعرفه ما اذا كنت رأيت مستر غرايدي هذه الليلة أم لا ؟ والآن ، هيّا وأخبريني ! »

وبلعت مارتا ريقها في عسر ، وبدا بياض عينيها و كأنه يسبح يمنة ويسرة في بركة وجهها السوداء فيما كانت تحاول أن تجتنب النظر مباشرة الى لوسيان .

وقالت في نبرة ضارعة :

— « مس لوسيان ، انا أودّ من صميم الفؤاد ان ترجعي الى البيت الكبير هناك. ارجوك ان ترجعي الى هناك ، يا مس لوسيان ، كما أريدك أن تفعلي . »

فسألتها لوسيان ضاحكةً في عصبية :

— « لماذا ؟ لماذا تقولين شيئاً كهذا ، يا مارتا ؟ »

— « لأني أشعر في اعمق أعماق عظامي ان عدم عودتك لن يعود على أحد بالخير . هذا هو السبب ، يا مس لوسيان. أتوسل اليك ، يا سيدتي ، ان ترجعي الى هناك كما أقول لك ان تفعلي » .

— « ولكني أبحث عن مستر غرايدي ، يا مارتا . هذا هو السبب الذي من اجله جئت الى هنا. لقد بحثت عنه في كل مكان آخر . فلماذا لا أبحث عنه في هذه الاكواخ ايضاً ؟ »

— « من أجل هـــذا بالذات اريدك أن ترجعي ، يا مس لوسيان . فهذا الحيّ ليس مكاناً مناسباً تبحثين فيه عن غرايدي. أتوسل اليك ، يا سيدتي ، ان تفعلي ما اقوله لك . »

فقالت في اهتياج متعاظم :

— « ما هذه الحماقة ، يا مارتا ؟ ما الذي أصابك اليوم ؟ انا لم أسمعكِ تتحدثين على هذه الشاكلة قط من قبل . »

فقالت مارتا وقد غدت كلماتها مغمغمة غير واضحة :

— « انا من غير ريب اتمنى وأتضرّع ان لا تعودي الى مثل هذا العمل مرةً اخرى . »

فقالت لها لوسيان في حدة :

— « حسناً ، تستطيعين على الاقل ان تخبريني هذه المرة هل رأيت مستر غرايدي ، يا مارتا ، أم لا . »

واخذت العبرات تنحدر على خدي مارتا ، ولم تبذل اي جهد لكفكفة تلك العبرات بفضل مئزرها . لقد اكتفت بأن وقفت ترسل الزفرات وتنظر محزونةً الى لوسيان . وعندمـــا اصبحت أعجز من ان تحتمل ذلك ، مدّت لوسيان يدها وهزّت ذراع مارتا في خشونة .

— « انا لا أجد فرقاً بين ان أقول لك اني رأيت مستر غرايدي وبين ان أقول لك اني لم أره ، يا مس لوسيان ، لاني أعرف ان أياً من القولين سوف يولّد مشكلة ، اجل سوف يولد تلك المشكلة العتيقة البغيضة . وانا من غير شك لا اريد ان يحـــدث شيء من ذلك على الاطلاق . كل ما اطلبه اليك هو أن تصغي اليّ قليلاً وتفعلي ما اقوله لك . »

— « كفّي عن هذا النوع من الحديث في الحال ، يا مارتا ! انا لا أريد ان أسمع كلمة اخرى منه ! »

فغمغمت مذعنة :

— « نعم يا سيدتي . »

فقالت لوسيان في حزم :

— « والآن ، أخبريني الحقيقة . هل رأيت مستر غرايدي هذه الليلة ؟ . »

فأجابت في تبرّم :

— « نعم يا سيدتي . »

— « وانت واثقة من انك تقولين لي الحقيقة ؟ »

— « نعم يا سيدتي . »

— « متى كانت آخر مرة رأيتِه فيها ؟ »

— « منذ برهة قصيرة . »

— « هل هبط من هذه الطريق ؟ »

— « نعم يا سيدتي . »

— « وهو لا يزال هناك ؟ »

— « نعم يا سيدتي . »

— « أين هو الآن ؟ »

وغسل خديها الضخمين فيضٌ جديد من العبرات جعل وجهها يلتمع ويتلألأ في ضوء القمر . واهتز ثدياهـا الهائلان وارتفعا مع الزفرات غير المكبوحة. واستشعرت لوسيان بدورها ان الدموع تترقرق في عينيها ولكنها ما لبثت ان كفكفتها وحاولت ان تحول بين مارتا وبين رؤيتها باكيةً .

وقالت مسرعةً في كلامها لكي تبقى مسيطرة على صوتها :

— « انتِ لم تجيبي عن سؤالي ، يا مارتا . انتِ تعرفين مـا اريد ان أعرفه . »

فتوسلت اليها :

— « مس لوسيان ، أرجوك ان لا تحمليني على قول ذلك. اني افضّل ان اذهب وأفعل أي شيء آخر في العالم . »

كانت لوسيان على مثل اليقين ، الآن ، ان غرايدي كان في مكان ما من مجتمع الاكواخ . كانت قد حاولت اقصـاء هذه الفكرة عن ذهنها ولكن الشك كان قد أمسى أقوى من رغبتها في إنكاره . كان هو ذلك الارتياب الأليم نفسه الذي طالما ذاد عن عينيها النوم ليلةً بعد ليلة .

وسألت المرأة الزنجية :

— «انت متأكدةان مستر غرايدي هنا في الحيّ ، يا مارتا؟»

— « نعم يا سيدتي . »

واخذت نفساً قبل أن تتمكن من متابعة الكلام :

— « اذن ، فدلّيني على مكانه . »

فقالت دامعةً :

— « سوف أدلك على مكانه اذا اجبرتِني على ذلك يا مس لوسيان ، ولكني لا يمكن ان ادلك عليـه اذا لم تجبريني ، لأني اعرف جيداً انهذا سوف يؤدي الى مشكلة — الى مشكلةحقيرة ، رديئة ، بشعة ، عتيقة . وانا اعرف أن مستر غرايدي سـوف يسلخ الجلد عن جسدي اذا اكتشف أني انا التي اخبرتك عنه . لقد حاولت طول عمري ان لا اتدخل في شؤون البيض ، ويبدو

وكأن الشيطان يريد معاقبتي لأني اجتنبته هذه المدة كلها . لقد قلت لتلك الفتاة الحمقاء ان تلزم الهدوء لأني عرفت ان هذا سوف يورطها في مشكلة ، ولكنها لم تبالِ بأي كلمة من كلماتي . »

— « سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد، يا مارتا. قولي لي أين هو الآن . »

فقالت مارتا في اذعان ، وهي تطلق زفرةً عميقة :

— « نعم يا سيدتي ، نعم يا سيدتي . »

وهزّت رأسها ، وجعلت تهبط المجاز قائلة :

— « إنه على مسافة قصيرة من هنا . »

٧

وتبعت لوسيان المرأةَ الزنجية فاجتازت بكوخين آخرين ، والزنوج الجالسون على كراسيهم يُتبعونها نظراتهم الصامتة على نحو لا يرحم . كان في ميسورها ان تسمع ، وكأنما من مكان بعيد ، صوت أوتار غيتار مكظوم حزين تداعبه اصابع أحد الزنوج على نحو مستغرق في التأمل . وفجأةً استشعرت الرغبة في أن تعود، وتركض الى البيت اسرع ماتستطيع الركض، ولكنها كانت تعلم انه لم يعد في ميسورها الانصراف الآن . وتبعَتْ شكل مارتا المتمطّي المترنح ، وحاولت ان لا تكثر من التفكير أين كانت وما الذي حدا بها للذهاب الى هناك .

ووقفت مارتا في المجاز أمام الكوخ القائم قبل آخر كوخ

من أكواخ الحي . كان باب الكوخ موصداً ، بخلاف الأبواب الأخرى ، ولكن شعاعَ مصباح باهتاً كان ينفذ على نحو مشؤوم من خلال شقٍّ فوق العتبة . كانت انغام الغيتار الرقيقة المخنوقة قد أمست ملحاحةً مزعجة .

واختلجت مارتا في عصبية وازاحت ثقل جسدها عن احدى قدميها الى الاخرى ، مطلقةً في الوقت نفسه أنّاتٍ حزينة من أعماق صدرها . لقد بدت على جبينها حبّات صغيرة من العرق أضفت عليها اشعة القمر لوناً فضياً . وشبكت لوسيان يداً بيد لكي يخفف من الارتعاش الذي ألمّ بها .

وقالت في همس راجف كاد ان يكون غير مسموع :

— « من يسكن هنا يا مارتا ؟ »

فأجابت في مرارة :

— « سالي جون . »

كانت سالي جون فتاة ربع زنجية * في الثامنة عشرة ذات بشرة سمراء وشعر فاحم أملس. لقد عملت خادمةً في منزل آل دانبار طوال سنتين . وبُعيَيْد زواج لوسيان من غرايدي ودخولها الى ذلك المنزل ألمعت لها مارتا ، بطريقتها الدورانية المألوفة ، ان من الحكمة ان تستخدم بدلاً منها فتاةً أقل وسامة ، وان توجه سالي جون الى الحقول لتعمل مع الزنوج العاملين عليها. ولم تأبه لوسيان كثيراً لهذه الملاحظة في ذلك الحين ، وما لبثت ان نسيت أن

* quadroon وهي الفتاة التي ولدت من رجل خلاسي وامرأة بيضاء والتي يكون ربع دمها زنجياً .

مارتا حذرتها من سالي جون في يوم من الأيام . ولكن لوسيان اخذت ترتاب ، خلال الاشهر العديدة الماضية ، في سالي جون هذه . لقد اكتشفت اخيراً ان تلك الفتاة أصبحت تأخذ بأسباب الجرأة والاغراء في حضرة غرايدي. كانت في كثير من المناسبات، حين تسكب الطعام لغرايدي ، تنحني فوقه اكثر ممـا ينبغي ، لامسة بين الفينة والفينة ذراعه او كتفه. وذات مرة حملت عشاء غرايدي الى غرفته ، فاختلست لوسيان النظر من خـلال الباب نصف المفتوح فرأت سالي جون قاعدةً على سريره . فدخلت الى الغرفة في الحال وأخرجت الفتاة منها .

وحاولت لوسيان ان تسأل مارتا على الرغم من شبه الاختناق الذي استشعرته :

— « هل انت متأكدة انه هنا ، يا مارتا ؟ »

فقالت مارتا في نرفزة :

— « نعم يا سيدتي ، ولكن أرجوكِ ان تصغي اليّ ، يا مس لوسيان ، وان لا تدخلي الى هناك . »

وشرعت الدموع تتدحرج غزيرةً عـلى خديها الاسودين الملتمعين فيما كانت تحاول ان تتوسل الى لوسيان توسـلاً نهائياً يائساً . وارتعدت شفتاها الضخمتان وأضافت :

— «أتضرع اليك ان تبتعدي عن هذا المكان وتسمحي لي بأن اعود بك الى البيت الكبير ، يا مس لوسيان . لن ينتج شيء غير البلاء اذا بقيتِ هنا ولم تفعلي مـا أقوله لك . انا امرأة عجوز ، يا مس لوسيان ، وانا أعرف ما اقول . لقـد رأيت اكواماً من

الاشياء المثيرة للمشاكل في زماني ، وانا أعرف جيداً ما اتحدث عنه عندما اقول ان ما سيقع هنا هو اسوأ من هذه الأشياء كلها. واذا رجعت الى المنزل الكبير فأني أعدك بأن امسك بخناق تلك الفتاة واهزها هزاً يعيد بعض الصواب الى رأسها ، وان يكون ذلك اول عمل أقوم به في الصباح الباكر . والآن ، أرجو ان تصغي الي قليلاً وتفعلي مثل ما اقول لك ... »

فقالت في تصميم :

— « لا ، يا مارتا . انا أعرف ما اصنع . انا لن ارجع الى البيت الان . سوف أدخل ذلك الكوخ . »

— « ولكنك لا تعرفين سالي جون هذه كما اعرفها أنا ، يا مس لوسيان . إنها شيطانةعادية في كل ما يتصل بتحقيق مآربها. وحين تعزم تلك الفتاة المجنونة على أمر فليس يستطيع شيء إيقافها . انا أعرف ما اتحدث عنه. إنها اذا عقدت النية على عدم السماح لك بالدخول الى هناك وانتزاع مستر غرايدي منها فقد تنزل بك اذى ما. لقد قلت لها ان تلتزم الهدوء والتعقل، ولكنها لم تصغ الى نصيحتي قط . ولمجرد ان بشرتها غير سوداء ، يخيل اليها انه ليس في هذا العالم الكبير شيء لاتستطيع ان تفعله. لقد قلت لها انها زنجية سوداء في داخلها، مثلي تماماً، وان عليها أن تحذر جماعة البيض ، ولكنها سخرت مني وقالت انها تستطيع ان تفوز بأي شيء ترغب فيه ، سواء أكان ذلك من البيض ام من السود . انا لم احب في اي يوم من الايام ان أسمع شخصاً ملوناً يتحدث على هذه الشاكلة لأن بلاء لا بد ان ينشأ عن ذلك عاجلاً ام آجلاً ،

ان في استطاعتي ان احدثك أكواماً من الحديث عن سالى جون لأنها تحوم دائماً حول المطبخ وتتباهى بمسلكها مع جماعة البيض، وخاصة مع مستر غرايدي ، وفي بعض الاحيان مع رجال بيض آخرين. أنا لم اسمع قط من قبل مثل هذا التباهي وبمثل هذه القوة والعنف . فمنذ أيام ، كانت تساعدني في ترتيب غرفـــة مستر غرايدي ، وكان اول ما فعلته تلك الفتاة أن طرحت نفسها على سرير غرايدي ووثبت فوقه وكأنها في غرفتها الخاصة. لقد اخذت تحدثني كم كان مستر غرايدي لطيفاً معها ، وانا أقــول لك اني أخرجت نفسي من هناك بأسرع ما استطاعت قدماي ان تنطلقا ، لانني ... »

— « لا اريد ان اسمع أكثر من ذلك ، يا مارتا ! اذا كنت لاتستطيعين ان تقلعي عـــن الكلام على هذه الشاكلة فمن الافضل ان تبتعدي عني ! هل تفهمين ؟ »

فقالت مارتا في وداعة :

— « نعم يا سيدتي . ولكني ما زدت على إخبارك بالحقيقة الخالصة ، يا مس لوسيان ، وليس يبدو لي انه كان في قول ذلك كله اي اذى . »

— « حسناً ، لقد سمعت من ذلك ما فيه الكفاية . واذا كنت لا تستطيعين الكف عن الكلام على هذا النحو ، ففي امكانك ان تنصرفي . »

فقالت :

— « نعم يا سيدتي . »

ومضت لوسيان نحو باب الكوخ ثم وقفت ، في منتصف الطريق ، مترددةً وكأنها كانت عاجزة عن عقد النية على الاقدام. وفيما كانت واقفة هناك سمعت ضحكة غرايدي الرقيقة في الداخل . واستدارت لتومىء الى مارتا ، ولكن مارتا كانت قد اختفت . وما ان ادركت أنها كانت وحدها حتى استبدّ بها الذعر ، وانشأ جسدها كله يرتعد على نحو متشنج . وضحك غرايدي كرة اخرى ضحكاً مطمئناً غير متحفظ . وكان صوت الغيتار النائي يبدو وكأنه يسخر ويُهين .

وبينما كانت واقفة هناك متسائلة ما الذي ينبغي ان تفعله سمعت ضحك سالي جون المرح البهيج ، فتوتّر جسدها كله بالغضب والغيظ . فليس لسالي جون او أي امرأة اخرى الحق في ان تكون على مثل هذا القرب من غرايدي ، لان غرايدي ملكٌ لها وكانت تريده الان كما لم تُرِده في أيما وقت مضى . كانت تعلم انها اذا استطاعت ان تضع يديها على سالي جون فعندئذ سوف تقاتل هذه الفتاة حتى تنتزعه منها . إنها لم تعرف مثل هذا الشعور من قبل .

وفي عزم راحت تبحث في ما حولها عن حجر ، عن عصا ، عن اي شيء تستطيع ان تصطنعه لطرد سالي جون . ولم يكن ثمة حتى قطعة من آجرّة مكسورة في الفناء الرملي الخالي . وفي يأس ، حاولت ان تقتلع احد أعمدة السياج من الارض، ولكنها سرعان ما ادركت ان القوة الضرورية لذلك تُعوزها ، فهرعت الى باب الكوخ ، وانشأت تخفقه بجُمْع كفيّها . وصرّت

الأكواخ الواهنة وقعقعت ، ولكن الباب كان موصداً من الداخل بالمزلاج إيصاداً محكماً . ورفسته حتى اوذيت قدمها .

وقالت سالي جون في صوت متحبّب :

— « انا مشغولة . كفّ عن ازعاجك هـذا الآن ما دمت منهمكة بضيفي »

وقرعت لوسيان الباب في غيظ لم يستبدّ بها قط من قبل. وسمعت غرايدي يقول في صوت أجشّ ولهجة آمرة :

— « إبتعد من هنا ! »

ولم تكد لوسيان تسمع صوت غرايدي حتى حبست انفاسها. لقد أمست ، حين سمعت صوته ، واثقة كل الثقة انه في الكوخ. إنها وقد سمعت صوته الآن فعلاً لم تعد تشك لحظةً انه هناك .

وسمعت غرايدي يتساءل :

— « من الذي كـان يقرع الباب ، في اعتقادك ، يا سالي جون ؟ »

فقالت سالي جون ضاحكةً :

— « احد الحمقى قادته قدماه ، خطأً ، الى بابنا فقرعه . ان احداً ههنا ، باستثناء هذا المعتوه ، لا يسمح لنفسه بأن يزعجنا. »

وكان في سماعها سالي جون وغرايدي يتبادلان مثل هـذا الحديث الصميميّ ما جعلهـا ترجع بضع خطوات الى الوراء . انها لم تعـد واثقة من رغبتها في الدخول عليهما . لقد وقفت في الفِناء تحدّق في تردد الى شعاع المصباح النافذ من خلال الشق ، فوق العتبة ، حتى سمعت ضحك سالي جون الرقيق المطلق العنان

كرة اخرى . ولم تعد بها ايما رغبة في اقتحام الكوخ ، ولكنها استشعرت قوة قاهرة تدفعها الى ان تراهما معاً على الأقل. وهكذا مضت الى جانب الكوخ ، وردّت قطعة الخيش الى الوراء حتى امسى في ميسورها ان ترى ما كان يجري في الغرفة .

وما إن وقع بصرها على غرايدي وسالي جون حتى استشعرت ألماً مبرّحاً في المعدة . كان الذي رأته فعلاً هو مـــا خشيت ان تفكر فيه منذ عام تقريباً ، وها هي تجد نفسها الآن، آخر الأمر ، مكرهة على تصديق ما كانت ظنونها قد دعتها الى تصديقه، وما كانت مارتا قد حاولت إعلامها به بطريقتها الخاصة. لقد حسبت انها عرفت الآن ، وإن كانت لا تزال عاجزةً عن فهم ذلك ، لماذا اجتنبها غرايدي طوال هذه المدة . وزايلها ألم المعدة، ولكن شعوراً بالعجز واليأس الكاملين استبدّ بها . لقد بسطت يدهـــا وتشبثت بالجدار الخشبي خشية ان تسقط على الارض ، متسائلة بينهـــا وبين نفسها ما الذي كان خليقاً بها ان تفعله لو كان في يدها مسدس . وهزّت رأسها . لم يعد لذلك كله اهمية ، الان . لقد فات الأوان . لم تعد تستشعر ايما رغبة في إيذاء غرايدي أو سالي جون . ان شيئاً في فؤادها قد تلاشى فما عادت تبالي . لقـد استشعرت ، اكثر من أي شيء آخر ، أنها تودّ أن تضحك :

وخلفها في الظلام كان في ميسورها ان تسمع أصوات الزنوج المتوترة المخنوقة ، وعرفت انهم كانوا يتحدثون عنها ويتساءلون عما تعتزم أن تفعله . كان ذلك شيئاً ما كانت هي نفسها تعرفه ، ولكن الذي كانت تعرفه هو انها تريد أن تذهب الى مكان ما ،

بل ان تذهب الى اىما مكان . كانت تريد أن تفرّ بنفسها قبل ان يكتشف غرايدي أنها هناك .

وأدارت ظهرها الى الكوخ وشرعت تمشي على غير هدى، عبر الفناء . كان ذلك شيئاً اكثر من مجرد الابتعاد عن الكوخ ، كان فراقاً لغرايدي . لقد حسبت أنها شجاعة وقوية بعد ان امتنعت عن البكاء ، ولكنها ما كادت تصل الى المجاز حتى عجزت عن كبح جماح الدموع .

وحين اجتازت بالمجموعة الأولى من الزنوج سمعت مارتا تناديها ، فأغذّت سيرها . وبعد ذلك ، في المجاز الممتد خلفها، سمعت قدمي مارتا الحافيتين تطأن الأرض في ثقل ، فغادرت المجاز ، وشرعت تعدو عبر الحقل في غمرة من الظلام .

ونادتها مارتا ، وصوتها يعول في الدجنة :

— « مس لوسيان ! يا الهي ، مس لوسيان ! ارجوك يا مس لوسيان ! ارجعي الى هنا : لا تركضي هكذا في هذه الساعة من الليل ! سوف تتيهين في مكان ما هناك ولن استطيع العثور عليك بعد ذلك ! ارجوك أن ترجعي الى هنا ، يا مس لوسيان ! »

وسرعان ما خلّفت مارتا وراءها ، وما هي إلا فترة حتى لم يعد في الامكان سماع تلك الصيحات المتوسلة الهائجة . ولم تكن لوسيان تدري الى أين تقودها قدماها ، ولم تبال بذلك ما دامت تفرّ من غرايدي ومن حي الزنوج والبيت الكبير وكل شيء ارتبط في ذهنها باسم غرايدي. وفي اندفاعها الاعمى انتهت الى دغل من نبات البَرْيار. حتى اذا استطاعت آخر الأمر أن تدب على الارض

ناجيةً بنفسها من الطرف الآخر كانت بشرتها مخدّشة يسيل منها الدم ، وكان ثوبها مقطّعاً ممزّقاً .

ونهضت على قدميها وشرعت تعدو من جديد . كانت في حقل حُرِث منذ عهد قريب . وفي الحال عثرت قدمها فخرّت على وجهها . كانت قواها قد خارت ، وانفاسها قد تقطّعت ، فهي لا تكاد تنهض وتحاول الركض حتّى تسقط منبطحة على التربة الناعمة . واخيراً لم يبق لديها من القوة ما يمكّنها من النهوض كرةً اخرى ، فانطرحت على الارض خائرة باكية . وظلّت فترة من الوقت طويلة في الحقل ، تبكي في تشنج غيرَ مبالية أين كانت وما الذي قد يصيبها .

٨

ولم تكن لوسيان تدري كم من الوقت سلخت في الحقل عندما سمعت كلباً ينبح . فرفعت نفسها على أحد مرفقيها وأجالت بصرها في ما حولها . لقد رأت الكلب على نحو واضح في ضوء القمر ، وفي الحال اضطجعت ثانية ، راجيةً أن يكفّ الكلب عن النباح وان يمضي لسبيله . بيد أن النباح غدا أقوى واكثر الحاحاً ، وحين اخذت ترشق الكلب بالمَدَر شرع يدور حولها واثباً ، وأنشأ يعوي ويهرّ في ضراوة . واستبدّ بها الروع عندما ادركت أن الكلب يقترب منها ، متسللاً ، اكثر فأكثر .

وفي مكان ما خلفها سمعت صوت رجل . ان كلمة واحدة

أخرست الكلبَ في الحال .

وقعدت لوسيان وأجالت بصرها في الحقل . كان شخص ما وسع الخطى نحوها .

ولم يكن يطوف في ذهنها ، آنذاك ، غير فكرة واحدة ، وهي ان عليها انتنهض وتعدو قبل أن يُقبض عليها. ونهضت على قدميها وراحت تعدو بأسرع ماتستطيع العَدْو. وبعد أن اجتازت مسافة قصيرة نظرت من فوق كتفها الى الوراء . لم تكن قد ابتعدت غير بضع ياردات. وحاولت ، وهي تصيح ، ان تثب فوق احدى الحفر ، ولكنها عثرت فسقطت فوق حافة الارض الرطبة. وقبل ان توفق الى النهوض والعدو من جديد أمسك بها من ذراعها على نحو محكم لا سبيل معه الى الافلات .

— « اتركني ! دعني اذهب ! أرجوك ! أرجوك » كذلك صاحت في اهتياج ، مناضلةً بكامل قوتها للإفلات من قبضته . ولكن قبضته هذه كانت تزداد إحكاماً كلما أمعنت هي في الرفس والتلوّي .

كان راكعاً الى جانبها ، وكان في استطاعتها أن تحسّ بيديه القويتين تضغطان جسدها على الأرض . حتى اذا انحنى فوقها كان وجهه مجاوراً وجهها الى حد جعلها تستشعر أنفاسه على صفحة خدها . وحاولت كرة اخرى ان تفلت من قبضته ، ولكنه جمّد جسدها برجليه وضغط بثقله عليها حتى عجزت عن الحركة . وأغمضت عينيها في إحكام عندما احسّت بيده تزيح شعرها عن وجهها .

وتضرّعت اليه وصوتها يكاد يختنق بالذعر :

– « اوه ، ارجوك ، لا تفعل ! لا تفعل ! دعني أذهب ! ارجوك ، دعني اذهب ! »

وسمعته يقول

– « ماذا أصابك ؟ »

وهزت لوسيان رأسها من جانب الى جانب .

وسألها ، وكان صوته – كما لاحظت لأول مرة – لطيفاً شفيقاً :

– « هل نزل بك أيّ أذى ؟ »

وفتحت عينيها في تؤدة ونظرت الى وجهه وقالت :

– « لست أدري – لست ادري ! »

فقال لها ؟

– « انا اريد أن اساعدك ؟ ألا تريدين ان تخبريني ما الذي جرى لك ؟ »

– « لست أدري ، كل ما اريده هو ان تدعني اذهب ! »

– « ماذا تفعلين هنا ؟ »

فصاحت محاولةً مرة اخرى أن تفلت منه :

– « لست أدري . »

– « ماكان ممكناً ان تكوني هنا لو لم يحدث حادث خطير . »

– « دعني اذهب – دعني اذهب ! أرجوك ! »

فقال مبتسماً في وجهها :

– « انا أعرف من انتِ . »

وأدار وجهها الى أعلى عندما حاولت ان تحول بينـــه وبين رؤيتها . واضاف الرجل :

— « لم أكن واثقـاً ، أول الأمر . ولكني أصبحت اعرف الان . »

— « ان هويـّتي لا تـهم ، دعني اذهب ! أطلق سراحي ! »

فقال وهو يهز رأسه :

— « لست أستطيع أن ادعك تذهبين هكذا ، يا لوسيان : »

وذهلت عندما سمعته يلفظ اسمها .وحدّقت النظر اليه متعجبة كيف استطاع ان يعرف من هي .

والحّ قائلاً :

— « يجب ان تقولي لي ما الذي حدث . لعلك جُرحت — ان أشياء كثيرة كان من الممكن أن تصيبك ، يا لوسيان . »

وهزت رأسها في يأس ، مغمضة عينيها ، ومحرّكة رأسها في تؤدة من جانب الى جانب .

— « ماذا تفعلين هنا في الحقل ، في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ من أي شيء تفرّين بنفسك ؟ »

وفيما كانت تصغي الى جَرْس صوته ، لم تعد تستشعر الخوف من اي شيء . انها ما عادت راغبة في النضال من اجل الافلات من قبضته . لقد زايل التصلّب جسدها ، ولقد استشعرت انها واهنة عاجزة .

وقالت في اطمئنان :

— « انت بْراد هاريسون ، أليس كذلك ؟ »

كان في استطاعتـــه أن يرى عينيها تنفتحان واسعتين للمرة الأولى .

واضافت :

ـ « أجل ، انت بنْراد ، أليس كذلك ؟ »

وهز رأسه ، ولكنه لم يأت بحركة لاطلاق سراحها . لقـد أرادت لوسيان ان تخبره انها لن تحاول الفرار منـــه ، ولكنها شعرت انها أوهى واضعف من ان تنطق بشيء . وكان أول مـا أدركته بعد ذلك انها رُفعت عن الأرض الرطبة ، وغرق جسدها في ذراعيه ، على نحوٍ مريح ، فيما راح يجتاز الحقل المحروث منذ فترة يسيرة .

ووقفا في المجاز بعد أن فارقا الحقل .

وقال لها :

ـ « انا سعيد جداً لأني جئت الى هنا لأرى علام كان الكلب ينبح . »

وسرت في جسدها ، عندما تكلم ، رعدة طفيفة . وضغطت وجهها على كتفها ضغطاً أشدّ .

واضاف في صوت أجش ،

ـ « لو لم أجيء ... »

ورفعت بصرها في حركة سريعة من رأسها وحـــدقت الى وجهه في ضوء القمر ، والتقت نظراتهما وهو لمّا يتم كلامه بعد .

وترددت في الظلام اصداء صفـــارة قاطرة بخارية مُعولة إعوالاً فاجعاً . وهناك تحتها ، في غابة الصنوبر الصغيرة ، بين

النهر والكثيب ، كانت النار تشتعل في وعـاء من صمغ الصنوبر فتذيبه ، وفيما كانت مسترخية على مقربة من بْراد اخذت تراقب الشعلة الصفراء المتوثبة .

وقال لها وقد جرفته ، فجأة ، موجةٌ من الهَذْر :

— « لقد رأيتك عدة مرات ، يا لوسيان . لقد صعّدت الى البيت الكبير لأهتمّ بأمر البغال وغيرها ، ولقد رأيتك جالسة على الشرفة أو ماشية في الفناء . وكلما رأيتك كنت استشعر الرغبة في ان اقول لك شيئاً ، ثم لا أستطيع . لقد قال لي أبي ان لا افعل . كنت لا أصعد الى هناك إلا ويلحق بي أبي . كـان يخشى ان يغضب غرايدي اذا قلتُ لك ايّ شيء . انه لا يريدنا أن نفعل اي شيء يمكن أن يثير غضب غرايدي . »

وطفق الكلب ينبح من جديد . وذعرت لوسيان ، فطوّقت عُنق بْراد بذراعيها . ونادى براد الكلبَ في صـوت خفيض فانقلب راكضاً ووقف عند قدمي براد . كـان في امكانهما أن يسمعا ، غير بعيد عنهما ، وقع أقدام على المجاز .

وهمس في هدوء :

— « هناك شخص قادم ، ولكن لا تخافي . لن يحـدث لك شيء . »

فهمست مذعورة :

— « ولكنه قد يكون هو ! لعله يبحث عني ! »

فسألها في سرعة :

— « مَنْ ؟ مَنْ يبحث عنك ! »

ـ « غرايدي . »

ـ « لقد حدث شيء هناك ، في البيت الكبير ، هذه الليلة ، أليس كذلك يا لوسيان ؟ »

فأخذت نفساً عميقاً ، ولكنها لم تجب .

ـ « يجب أن يكون قد حدث شيء . ومن أجل هذا كنتِ هنا في الحقل ، أليس كذلك ؟ »

فوافقت بحركة من رأسها .

ـ « ما الذي حدث ؟ »

ـ « لا أستطيع ان اقول لك . »

ـ « لقد حدث شيء حملك على الفرار . »

فتوسلت اليه :

ـ « أرجوك ان لا تكلفني الحديثَ عن ذلك الآن . »

كان في استطاعتها كليهما أن يريا شخصاً ما في المجاز ، على مسافة دانية ليس غير .

فقال لها برْاد :

ـ « إنه أبي . »

فهمست :

ـ « هل انت متأكد ؟ »

ـ « إنه هو ، يا لوسيان . »

ووقف ويل هاريسون ، محدقاً الى براد ولوسيان. وبعدلحظة تقدّم الى أمام .

وسأل ابنَه في لهجة المشدوه :

– « أهذا انت ، يا براد ؟ »

– « نعم ؛ يا ابي . »

– « ما الذي حدث ، يا بنيّ ؟ »

فأجاب بْراد :

– « لست أدري . لقد وجدتُها هناك في الحقل . »

وقال ويل في دهش :

– « ولكن هذه زوجة غرايدي ! كيف كان ذلك ؟ »

فقال براد :

– « من الخير أن نهبط بها الى المنزل ، يا أبي . هذا أفضل ما يمكن ان نصنعه . »

ولم يقل ويل شيئاً في الحال ، لقد راح يهز رأسه ليس غير . ثم قال في ارتياب :

– « اني لفي حيرة من أمري . انا لا ادري اي شيء سوف يقوله غرايدي . »

فقال براد في ثقة :

– « لست ابالي بما يقول . سوف أحملها الى المنزل على اية حال لكي تستطيع امي ان تعتني بها . »

وهبط بها المجاز من غير ان ينتظر أباه . وتبعه ويل على الاثر . وقال :

– « قد لا يكون في ذلك بأس في الوقت الحاضر ولكني لا اريد أن أخلق مشكلة مع غرايدي . »

ولم يتبادلا كلاماً اضافياً حتى وصلا الى المنزل ، ودخـــلا

الغرفةالأمامية المضاءة . وصرخت سارة هاريسون ، والدة بْراد في جزع ، عندما بَصُرت بثوب لوسيـــان الممزق وجسدها الملطخ بالوحل. لقد ساعدت براد في وضع لوسيان علىالسرير ، وهرعت الى المطبخ تلتمس حوض ماء .

وقال ويل وعلى وجهه أمارات القلق :

— « إنها زوجة غرايدي . هذا شيء لا ريب فيه . كان في وسعي ان أتبيّن هويتها حيثما كانت . ولكـــني لا أستطيع ان اتصور ما الذي كانت تصنعه هناك في الحقل في مثل هذه الساعة من الليل . »

وأغمضت لوسيان عينيها لكي تجتنب وهج الضياء . وهرعت سارة عائدةً الى الغرفة وقد جاءت بحوض ماءومنشفة ، وشرعت تغسل وجه لوسيان و كتفيها .

وقالت سارة في قلق :

— « لا ريب ان شيئاً رهيباً قد حـــدث . يكفي أن تنظر الى ثوبها ، لقد اصبح مجموعة من المزَق . إن الطفلة البائسة تبـدو مروّعة مذعورة . انا متأكدة من أن شيئاً رهيباً قد حدث لها . »

وقال ويل في رصانة وغمّ :

— « يخيّل اليّ ان من الأفضل ان أذهب وانادي غرايدي في الحال . انا لا اريد أن يعتقد اننا قد نقوم بأيّ خطوة من غير موافقته . »

فقالت سارة في ازدراء :

— «أغلب الظن أن غرايدي دانبار ليس في البيت هذهالليلة.

إنه لمن الاثم والعار ان يعامل هذه الطفلة المسكينة على هذه الشاكلة ، فهو يغادر البيت دائماً ، ويظل نصف أيامه سكران ، هذا اذا لم نذكر اشياء اخرى . إن غرايدي دانبار مثل ابيه تماماً . مع فارق وحيد هو ان الابن أسوأ من الأب . »

فقال لها ويل :

— « ليس لنا الحق في ان نتكلم عن قضاياهم الشخصية . إن ما يجري الآن هناك ، في البيت الكبير ، شيء ليس من حقنا ان نخوض فيه ، يا سارة . »

وحدجت ويل بنظرة ذات مغزى ، فيما كانت تغمس المنشفة في حوض الماء .

وقالت له :

— « والآن ، دعني أقول لك شيئاً ، يا ويل هاريسون . انا لست في حاجة الى من يعطيني الحق في أن اقول رأيي في غرايدي دانبار ، لأن غرايدي دانبار لا يستحق كلمة كريمة واحدة تقال فيه ، الآن أو في المستقبل . وماما ايلزي دانبار ليست افضل منه ، ايضاً . انها تؤيد غرايدي في جميع أقواله وأفعاله . ان هؤلاء الدانباريين المقيمين هناك — دانباريي الدم — ليسوا كائنات بشرية ، وليس عندي مانع يمنعني من التصريح بذلك على رؤوس الاشهاد ايضاً . حسبك ان تنظر الى هذه الطفلة المسكينة ! ان في استطاعتك ان تثق أن الذي اخرجها من ذلك البيت العالي شيء فعله غرايدي أو فعلته ماما ايلزي ! حسبك ان تنظر اليها ! »

— « سيان ، يا سارة . من الافضل لنا ان لا ندين غرايدي

في كثير من القسوة قبل ان نعرف ماذا حدث معرفة يقينية . »

— « ويل هاريسون ، إنك تُخرج القديس عن طوره . ولو سمعك اي امرىء في هذا العالم تتحدث عن غرايدي دانبار اذن لظنّ ان هذا الرجل يملكك روحاً وجسداً . في استطاعتك ان تسمح له أن يمتلكك اذا شئت ولكني سوف اعبر عن رأيي ما دمت أجد الأنفاس التي تمكنني من ذلك ! »

ونهضت سارة ، وغادرت الغرفة. وتقدم برْاد نحو السرير وجلس الى جانب لوسيان . وما هي إلا فترة حتّى فتحت عينيها وألقت نظرة شاردة على الغرفـة . وبسط برْاد يده وغطى يدها بها .

وقالت في اهتياج :

— « ما الذي جاء بي الى هنا ؟ »

ورجعت سارة بمنشفة جافـة وفركت بها ذراعي لوسيان وكتفيها .

وقالت سارة وهي تحاول ان تسرّي عنها .

— « لقد وجدك برْاد في الحقـل غير بعيد عن البيت ، يا لوسيان . لقد سمعنا الكلب ينبح ، فخرج براد ليرى ما الخبر..»

وهزت سارة رأسها هزة تنمّ عن الغم والقلق ثم اضافت :

— « لقد كان من حسن الحظ انه خرج ايضاً . اذ لو لم يفعل لأصابتك ذات الرئة على نحو مميت مـن جراء ارتمائك طوال الليل على تلك الارض الرطبة . والى هذا ، فالله وحـده يعرف اي شيء كان يمكن ان يصيبك ايضاً . »

ورأت لوسيان جميع الوجوه التي في الغرفة ، للمرة الاولى. فبالاضافة الى براد وأبويه كان عدد من ابناء هاريسون الصغار قد استيقظوا على الجلبة والاضطراب ، فتوافدوا على الغرفة ، ووقفوا امام السرير متسائلين شاردي النظرات .

وقالت سارة في تلطّف :

— « والآن ، لعلك تستطيعين أن تخبرينـــا ماذا حدث ، يا لوسيان . »

فأغمضت لوسيان عينيها وبذلت جهداً واضحـــاً لابقائهما موصدتين .

وسألتها سارة في تلطف ولكن في إلحاح :

— « كيف اتفق ان كنت وحدك في الحقل في تلك الساعـــة من الليل ؟ ينبغي ان لا تخافي من إخبارنا . »

وهزت لوسيان رأسهـــا ، متشبثة في الوقت نفسه بذراع براد .

وقالت سارة :

— « ولكن يجب ان تخبرينا ، يا لوسيان . لعل ثمـــة شيئاً ينبغي ان يُعمل . وليس ينبغي أن تخافي من شيء ، ايضاً . نحن لا نبغي غير مدّ يدالمساعدة اليكِ . »

وقال ويل ، هازّاً رأسه في همّ وقلق :

— «أعتقد أن من الخير انأذهبوادعو غرايدي الى المجيء. لعله ان يغضب اذا لم أتصل به في مناسبة كهذه . »

فصاحت لوسيان متوسلة :

ـ « لا ! أرجوك ان لا تفعل ! »
فقالت سارة ، ناظرةً الى ويل وبْراد :
ـ « هل سمعتماها ! »
وقالت لوسيان في يأس ، منقلة الطرف من وجه الى آخر :
ـ « انا لاأريد ان أرجع . ارجو أن لاتحملوني على العودة ! ينبغي ان لا تفعلوا ذلك . أرجو ان لا تكرهوني على العودة ! »
ونظر آل هاريسون بعضهم الى بعض في قلق . وراقب براد وجه امه .
ـ « ذلك ما سوف تحاولون ان تفعلوه ـ إنكم سوف تحاولون حملي على العودة . انا أعرف ذلك جيداً ! ولكني لا استطيع ! لا استطيع ! لا تكرهوني على ذلك ـ أتوسل اليكم ! »
وسارعت سارة الى غمس المنشفة في الماء ووضعها على جبين لوسيان .
وقالت لوسيان لبراد وهي تلوي ذراعه وتتشبّث بها :
ـ « إنك لن تدعهم يعيدونني الى هناك ، أليس كذلك ؟ »
فقالت سارة :
ـ «يجب ان لا تتحدثي هكذا ؛ يا لوسيان . نحن لانهدف إلا الى مساعدتك . وكل ما نريد أن نعرفه هو السبب الذي دعاك الى الذهاب الى الحقل هذه الليلة . واذا كان قد أصابك اذىً ما فأن شيئاً ينبغي أن يُفعل لمعالجتك في الحال . والان ، هل لك أن تخبرينا ... »
فقالت وهي تتنهد :

– « ولكنكم سوف تُكرهونني على العودة ! انا أعرف انكم سوف تكرهونني – انا أعرف ذلك ! »

ونهض برّاد ومضى الى حيث كـــان أبوه واقفاً ، قرب النافذة .

– « بابا ، ليس لنا ان نعيدها الى بيتها ذاك اذا كانت غير راغبة في العودة ، أليس كذلك ! »

فأخذ نفَساً ، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهوباً .

وسمع براد أمه تقول :

– « طبعاً ، ليس لنا ان نعود بهـــا خطوة واحدة اذا كانت غير راغبة في ذلك . إن للطفلة المسكينة الحق في ان تختار الحياة التي تريد . وانها لجريمة ان نجبرها على القيام بعمل يروّعها على هذا الشكل . اني سوف أكون آخر شخص على هـــذه الأرض يُكرهها على العودة الى هناك ، حيث يقيم غرايدي دانبار . »

وواجه براد أباه في منتصف الغرفة. كان وجهويل متجهماً.

وقال براد في جزع :

– « ما رأيك ، يا بابا ؟ انت لن تُكرهها على ذلك ، أليس هذا صحيحاً ؟ »

ومن غير ان يجيب بشيء ، غادر ويل الغرفة الى الرواق الأمامي. وبعد مغادرته الغرفة أعادت سارة الأولاد الى فُرشهم في الغرفة المجاورة . ولم يكن براد قد تحرّك من موقفه. وفي صمت وعصبية جلست لوسيان في سريرها .

ثم انها قالت في صوت يكاد يكون همساً :

– « بَراد ... »
وأسرع الى السرير وجلس الى جانبها .
– « ماذا تريدين ، يا لوسيان ؟ »
كانت الدموع تملأ عينيها . وغطّت وجهها بيديهـا بضع لحظات .
وتوسلت اليه دامعةً :
– « أتضرع اليك أن لا تدع احداً يُعيدني الى هناك . انا لا اريد أن ارجع الى ذلك البيت الفظيع ما دمت على قيـد الحياة . إني اؤثر ان أفعل اي شيء آخر . »
فقال لها في صوت متهدج مربتّاً على يدها في حنان :
– « وأنا ايضاً لا أريدك ان ترجعي ، يا لوسيان . فليس من حسن الرأي أن ترجعي . »
– « ولكنه سوف يحاول إكراهي على ذلك . »
– « مَنْ ؟ غرايدي ؟ »
وهزت برأسهـا ، وشرعت الدموع تنحدر سيولاً على وجنتيها . وحاول أن يسرّي عنها بأن يضغط بيديـه على يديها ، ولكن لمسة يديه جعلت زفراتها ادعى الى الرثاء .
وصاحت :
– « أنت لا تعرفه كما أعرفه . إنه لا يتورع عن عمـل اي شيء – وهذا ما يجعلني خائفة منه ! »
فقال لها :
– «لن أسمح لأحد بأن يمسّكِ ، يا لوسيان . ثقي اني سأبذل

قصارى جهدي من أجل حمايتك . »

— « ولكنه حين يكون غاضباً لا يتورع عن شيء . هذا هو السبب الذي يجعلني خائفة منه . انه سوف يُقدم على عمل شيء رهيب . أنا واثقة من انه سوف يُقدم . »

وغطت وجهها بالوسادة ، واستلقت في السرير في هدوء . وماهي إلا فترة يسيرة حتى نهض براد ومشى على رؤوس أصابعه من الغرفة الى الرواق .

كانت أمه وابوه واقفين أمام الدرابزون يتحدثان في صوت خفيض . ومضى براد الى حيث كانا .

وقالت سارة :

— « انا لم أثق قط بغرايدي دانبار ذاك منـــذ اليوم الأول لانتقالنا الى هذا المكان، ولست أجد أي مبرر لتغيير رأيي الآن. إني آسفة لاننا غادرنا المزرعة الأخرى في يوم من الايام وجئنا الى هنا لنعمل في خدمته . إنها اسوأ غلطة ارتكبناها في حياتنا ، يا ويل ، واني لن أعرف السعادة إلا بعد ان نوفق الى الانتقال من هنا . إنه يعاملنا كما يعامل الملونين هنـــاك في مجتمع الاكواخ — وكأننا قذر . لقد أذلّك إذلالاً شديداً حتى أصبحت تخشى ان تأخذ نفَساً من غير إذنه. ان الرب في السماء لم يعط اي رجل الحق في التحكم بالمخلوقات البشرية الاخرى كما يتحكم غرايدي بنـا . هذا شيء نسيتَهُ أنت منذ جئنا الى هنا لنعمل في خدمته. ولكني انا لم أنسَهُ . اني لا أزال اعرف ما معنى استقلالي في شؤوني ، وإني اعتزم ان أحتفظ بمعرفتي هـــذه ايضاً . والآن ، اذا كنت

خائفاً الى هذه الدرجة من غرايدي دانبار ... »

فقال :

— «سوف ننتظر ونرى ، يا سارة. ان غرايدي قد لا يكون مسؤولاً عن هذا ، على كل حال . قد تظهر لنا بعد ، ان وراء المسألة شيئاً ليس له اية علاقة به على الاطلاق . »

فقالت في حزم :

— « حسناً ، في استطاعتك أن تنتظر وترى اذا أردتذلك ، يا ويل ، ولكني لست مضطرة الى الانتظار . لقد قلت لنفسي حالما جاء بها براد الى المنزل ان غرايدي دانبار مسؤول بطريقة ما . وانا لا أزال أقول ذلك ولا أزال أؤمن به . »

فأكد لها ويل :

— « على اية حال ، فأننا لن نفعل شيئاً قبل الصباح . لقد تجاوزت الساعة منتصف الليل منذ فترة غير يسيرة . »

ومن غير ان تقول سارة كلمة ما ، غادرت الرواق ودخلت الى المنزل ، وتقدم براد نحو أعلى السلّم المؤدية الى الفِناء . ولم يكن لا هو ولا ابوه قد قالا شيئاً منذ لحظات . كان ويل يحدّق الى البيت المظلم القائم في أعلى الهضبة .

وقال براد آخر الأمر :

— « بابا ... »

ثم سكت ريثما التفت والده نحوه ونظر اليه مستطلعاً :

— « بابا ، إنها لا تريد أن ترجع الى هناك ، ولست أعتقد ان من حقنا ان نُجبرها على ذلك . لقد كنت أتحدث اليها منذ

لحظة ، وانا أعرف رأيها . ولن يكون من العدل ان نكرهها على شيء لا تريده . »

وابتعد ويل عند الدرابزون ومضى الى السلم . وجلس هناك وانتظر حتى لحق به براد .

وقال في تفكّر وتؤدة :

— « هناك اشياء كثيرة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار ، يا بنيّ . انك حين تتدخل في الحياة الشخصية لشخص آخر إنما تطأ أرضاً خطرة . انه ليس ينتج عن مثل هذا الصنيع غير المتاعب . »

— « ولكن هذا لا ينطبق على الحالة التي نواجهها . إنها هي التي تقول انها لا تريد العودة . وليس من حق احد أن يجبرها على الذهاب حين تبدي رغبتها عن ذلك . »

— « أعرف ذلك ، يا بنيّ . ولكنا لا نستطيع ان نحتفظ بها هنا اذا أراد غرايدي ان يعيدها الى البيت القائم هناك في الهضبة ، انا اكبر منك سناً ، ولقد رأيت ... »

— « هذا لا يقدّم ولا يؤخر . لو كان الأمر بيدي اذن لما خطتْ خطوة واحدة من هنا . »

— « انا لا احب ان أسمعك تتحدث هكذا ، يا بني . »

« ليس ذلك بطوعي ، يا بابا . انا لا اريدهـــا أن ترجع وتحيا مع غرايدي . »

فقال ويل في دهش :

— « ماذا قلت ؟ »

— « أنا لا اريدها ان ترجع وتحيا مع غرايدي . »

ونظر ويل الى ابيه ويداه ترتعشان في عصبية . كان الهمّ يرين على وجهه .

وفي صوت مرتفع قال ويل وهو يهزّ رأسه هزاً يؤذن بعدم موافقته :

– «ان ما تقوله لرهيب. اني أرجو ان لا يسمعك غرايدي، في يوم من الايام ، تقول شيئاً كهذا . »

قال ذلك وتابع هز رأسه في أسى ، ثم أضاف :

– « هناك شيء واحد اريدك ان تتروى وتفكر فيه . إنها زوجته . »

ونهض براد ، وهبط السلم الى الفناء من غير ان ينبس ببنت شفة ، وراح يمشي وئيداً في الظلام ، حتى غاب عن البصر .

٩

ونام براد بضع ساعات ثم استيقظ مع الضحى وتناول طعام الصباح . لقد قعد في المطبخ مع أمه وشرب فنجاناً من القهوة السوداء ، على ضياء الصباح الرماديّ الحزين . كان كل منهما متوفز الأعصاب صامتاً .

وحين غادر المطبخ مضى الى الرواق الأمامي ووقف ينظر فترة طويلة الى البيت الكبير الشاحب القائم فوق سطح الهضبة على مبعدة نصف ميل . لم يكن يُرى ثمة في اىما مكان أمارة من أمارات الحياة . إن كتلاً من غمام الصباح الباكر شرعت ترتفع

من الأرض الرطبة المحروثة حديثاً ، وإن الشمس لتشرق مُغرقة الحقول الجرداء والنباتات الطفيلية والشُجيرات الناضرة المحيطة بالسياج بوهج ورديّ دافيء . لقد بدا وكأن الصبــاح الربيعيّ البارد قد استحال ، في بضع دقائق ليس غير ، الى نهار صيفي حارّ .

وبُعَيْد اشراق الشمس سمع بْراد أبـــاه يخرج من المطبخ ويهبط السلم الخلفيّ . فغادر الرواق الخارجي وهرع الى مؤخرة المنزل ، حيث رأى العم جيف دايفيس وزنجياً شاباً من العاملين في حراثة الارض اسمه بيْت ،وقد وقفا الى جانب تراكتور كانا قد عملا على جرّه من الحقل بواسطة زوج من البغال .

وقال أبوه :

— «ما الذي أصاب ذلك التّراكتور هذه المرة ، يا بيْت ؟»

فقال بيت هازاً رأسه :

— « لست ادري ، يا مستر ويل . لقـــد كنت امس مساء أحرث في الحقل الأعلى عندما تعطل فجأة عن العمل . »

فقال براد :

— « لعله انبوب البنزين هذه المرة ايضاً ، يا بابا . ســـوف أخرجه وأرى . إفتح ، يا بيْت ، صندوق الأدوات وأخرج المفاتيح الميكانيكية . »

وقعد ويل والعم جيف وراقبا «بيت» ينثر المفاتيح الميكانيكية على رقعة مربعة من قماش مشمّع الى جانب التّراكتور . واجتاز بالبيت ، في بطء ، عدد من عمال الحقول في طريقهم الى الشغل.

كانت الشمس قد أمست فوق الأفق .

وتساءل براد وهو ينحني فوق المحرك :

– « هل رأيت أحداً عند البيت الكبير العالي ، هذاالصباح ، ايها العم جيف دايفيس ؟ »

فأجاب في الحال :

– « لا ، يا مستر براد ، انا لم أرَ احداً على الاطلاق . »

وعقبت ذلك فترة صمت رمق خلالهـا العم جيف دايفيس بنظرات عصبية ، كلاً من براد وويل . ثم اضاف :

– « ان مستر غرايدي لا ينهض باكراً جـداً في الصباح ، أليس كذلك يا مستر براد ؟ »

فقال براد :

– « لقد حسبتُ انه قد ينهض في هـذا الصباح أبكر قليلاً من المعتاد . »

وتبادل العم جيف دايفيس وبيت نظرات مشدوهة .

وتساءل الزنجي العجوز في قلق :

– « ما الذي يجعلك تقول ذلك ، يا مستر براد ؟ »

– « مجرد الاستنتاج . »

– « ولماذا تحاول الاستنتاج ، يا مستر براد ؟ »

– « لكي اكتشف الأمور ، حيناً بعد حين . »

– « أبهذه الطريقة توصلت الى ان تعرف هذا كله ، يامستر براد ؟ »

– « هذه احدى الطرق ، ايها العم جيف دايفيس . »

فقال في إسراف :

— « انت من غير شك رجل ابيض ذكي ، يامستر براد . واظن أنك تعرف كل شيء عما كان يجري هناك في المرتفعات في البيت الكبير ، الليلة البارحة . ولقد ذُعرتُ حتى اخمص قدمي عندما اكتشفت مس لوسيان ان مستر غرايدي موجود في كوخ سالي جون التي لا تساوي شيئاً . ولقد تضرعت الى الله ان يبقيني بعيداً عن المتاعب التي كنت واثقاً من انها سوف تحدث ، لأني اعرف جيداً ايّ شيء يمكن ان تفعله السيدات البيض اللواتي في ذلك البيت الكبير اذا اكتشفن ما كن يجهلنه من قبل . »

فسأله ويل :

— « ما الذي فعلته مس لوسيان ؟ »

— « لا شك أن الربّ اللطيف قد استجاب دعائي هذه المرة لأنه لم يقع اطلاق رصاص أو شيء آخر مماثل البتة ، كالذي يحدث عندما كان والد غرايدي في عنفوان شبابه ، وعندما كان يُقبض عليه يمتّع النفس في أكواخ الزنوج. ان مس لوسيان اكتفت بالفرار ، هذا كل ما في الأمر . ولكن احداً لا يعرف اين هي الآن . »

فقال له ويل :

— « إنها هناك في المنزل . »

فقال العم جيف دايفيس وقد سُرّي عنه :

— « يسرني من غير شك اني أسمع ذلك . فما كنت اريد ان نصاب بأي اذى . لقد رُوّعت منذ الليلة البارحة لاعتقادي ان

مستر غرايدي قد يتراءى له ان ينتقم منا نحن الملونين اذا أصابها مكروه . ان مستر غرايدي جنتلمان ابيض ممتاز ، ولكنه لايحب الملونين . يبدو وكأنه، بالفطرة ، لا يطيق ابنـــاء جلدتي ، إلا عندما يُعجب بسالي جون وزميلاتها . »

وكفّ عن الكلام وتمهّل ليرى هل يُبدي ويل ايّ امـــارة تدل على عدم الموافقة على ما كان يقوله . كان وجه ويل خلواً من كل انطباع .

وتابع العم جيف دايفيس وقد اطمأنت نفسه :

– « انا لا احب أن اقول شيئاً رديئـاً عن مستر غرايدي ، ولكن يتراءي لي في بعض الاحيان انه قاسٍ عليّ . لقد جاوزت الستين ، وانا من غير شك أحبّ ان أحـدِث تغييراً في حياتي قبل فوات الآوان . لقد وُلدتُ في هذه المزرعة ، وعملت طول حياتي في خدمة مستر غرايدي وخدمة ابيه من قبلـــه ، ولم يبق لدي الان كثير من الايام اعيشها ، وإني لأبغض انا وزوجتي ان نرى انفسنا نلفظ انفاسنا على هذا المكان العتيق نفسه الذي عشنا فيه دائماً . لقد فاز ولدي سامي بعمل حسن الأجر في منشرة الخشب في ماغوفين ، وهو يقول انه يريد مني ومن أمه ان نذهب الى المدينة ونعيش معه . انا لم استطع القيام بالعمل الشـــاق الذي كنت اقوم به من قبل ، وانا من غير شك أحب ان استريح من الان فصاعداً ما دمت حياً وقادراً على ذلك . »

وسأله ويل :

– « وماذا قال مستر غرايدي عندما قلت لـــه انك تريد

الرحيل ؟ »

— « قال إني يجب ان ادفع اليه مالاً . »

— « كم ؟ »

— « ان مبلغ المال لا يقدم ولا يؤخر ، يا مستر ويل ، لأنه لن يكون ثمة فرق بين ان يكون خمسة سنتات او خمسة دولارات ما دمت لا املك — كما تعرف — فلساً واحداً . إن ولدي سامي قد يستطيع ان يدفع عني ، لو كان المبلغ غير ضخم . ولكن مستر غرايدي يريد اكثر مما يملك سامي . »

فقال له ويل وهو يهز رأسه في غم :

— « لو كنت مكانك ، ايها العم جيف دايفيس ، لما فعلت اي شيء لا يريد منك مستر غرايدي ان تفعله . انت تعرف جيداً أن الرجل الملون لا يقوى على معصية رجل ابيض . ان هذه البلاد هي بلاد البيض ، كما تعلم . واذا أردت ان ترحل فليس عليك إلا أن تجيء بالمال وتدفعه اليه أولاً . »

— « ان ما تقوله لهو الحقيقة الرهيبة ، يا مستر ويل . انا أعرف ذلك عندما أسمعه . وكل امريء يعلم ماذا حدث في المرة الماضية عندما نهض أحدهم ورحل عن المكان . ان هنري كراوفورد وأهله ، الذين عاشوا في الحيّ ، في الكوخ الملاصق لكوخي ، نهض ذات يوم ورحل ، فما كان من مستر غرايدي إلا ان استعدى القانون على هنري ، فأطلقوا الكلاب في اثره ، وحكم عليه القاضي بالاشغال الشاقة طوال عشر سنوات . لقد قال مستر غرايدي ان هنري مدين له بأجرة مسكن مدة تسع

سنوات . وبسبعين ذولاراً لتحطيمه محراثاً ، وبمئـتي دولار لتزويده بالحمص وشحم الخنزير ، وما لا أدري كم مقابل تركه أحد البغال يفرّ ويكسر رأسه بالاصطدام بشجرة صنوبر عتيقة، وغير ذلك مما لا اذكره . ولكنه طلب منه اكواماً واكواماً من المال ، على كل حال . والآن انت تعرف جيداً ، يا مستر ويل، ان مستر غرايدي اذا حاسبني على أساس دفاتره على هذاالشكل فأني لن استطيع ان أفي دينه عليّ حتى ولو بلغ عمري مئتي سنة أو اكثر . »

فقال له ويل :

— « ينبغي ان تأخذ من ذلك درساً، أيها العم جيف دايفيس. إبقَ حيث انت ، الا اذا حصل ولدك على مبلغ من المال يكفي لارضاء مستر غرايدي . »

— « لقد قال سامّي انه سوف يتحدث الى محامٍ في ماغوفين حول هذه المسألة ، ولكني لا أدري هل سيكون لهذا الحديث فائدة أم لا . ان جماعة البيض يتضامنون في مثل هـذه القضايا . ويبدو وكأن هناك دائماً شخص مولع بأنزال الاذى بأبناء جلدتي. وفي بعض الاحيان يخيّل اليّ انه لو لم يولد الملونون لكان خيراً لهم . إنهم لا يعرفون ، ما داموا على قيد الحياة ، غـير الشقاء والمتاعب . »

— « ينبغي أن لا تنظر الى الأمور هكذا ، ايها العم جيف دايفيس . ان في العالم أعمالاً كثيرة يتعيّن على الرجل الابيض ان يقوم بها بنفسه لو لم يكن هناك زنوج . »

فقال الزنجي العجوز في صوت خفيض يائس :

— « نعم يا سيدي . نعم يا سيدي ، مستر ويل . »

وأدار بْراد التراكتور وساقه عدة مرات حول الفناء . كان المحرك يدمدم في نعومة عندما ترجل من مقعده . وأعاد «بيْت» المفاتيح الميكانيكية ورقعة القماش المشمع المربعة الى صندوق الأدوات وقاد التراكتور عبر الحقل .

وحلّ العم جيف دايفيس وثاق البغلين وقادهما ، مصعداً ، الى الاصطبل . وما هي إلا لحظات حتى سمع براد وأبوه وقع حوافر فرس يخبّ نحوهما .

واسرعا الى زاوية الفناء . كان غرايدي مقبلاً على صهوة جواده .

وقال ويل في جزع ، ممسكاً بذراع براد فيما كانا يمضيان نحو مدخل البيت :

— « والآن ، يا بنيّ ، تحفّظ في كل ما تقوله امام غرايدي. انت لا تريد أن تنسى من نحن ، ومن هو : نحن لا نستطيع ان نغادر هذا المكان الذي نحيا فيه . إن كلمة واحدة تستطيع ان تجعل غرايدي يفقد أعصابه ، وانت تعرف ايّ بلاء قد ينتج عن ذلك . دع غرايدي يقول كل ما يريد أن يقوله في أرضه الخاصة هذه . فليس لنا الحق في إغضابه بأية طريقة . »

كان في ميسورهما ان يريا غرايدي يكبح جماح جواده عندما انتهى الى المنزل .

وقال بْراد وهو يراقب غرايدي يجتاز الفناء على متن

جواده :
ـ « ولكنها قالت انها لاتريد أنترجع الى هناك، يا بابا..»
ـ « انا أعرف انها قالت ذلك ، يا بني ، ولكن ... »
ـ « وانا لا أريدها ان ترجع ، ايضاً . »
ـ « أدري ، يا بني ، ولكن ... »
ـ « حسناً ، أنا لا ابالي به ، اني غير خائف منـــه . واذا فوضتني هي بذلك فسوف أقول له انها لن ترجع لتعيش معه . »
وضغط ويل على ذراع براد . كانت يداه ترتعشان .
ـ « إفعَل ما تشاء يا بني . ولكن لا تقل شيئاً مثل هذا . لا تنسَ اننا لن نجد مأوى نلجأ اليه ، على ظهر هذه الارض ، اذا طردنا غرايدي من هنا . سوف يحل بي الخراب . ان أحداً في الولاية كلها لن يستأجرني اذا شاع في كل مكان اني عارضت غرايدي دانبار . فكّر في أمك ، انت لا تريد أن تكون السبب في طردها من بيتها ، أليس كذلك يا بنيّ ؟ »
واعتصم براد بالصمت .
وسارع ابوه الى القول :
ـ « والآن يا بني ؛ لا تنسَ ما قلته لك الليلة البارحة . إنها لا تزال زوجته . »
كان في استطاعة غرايدي ان يراهما واقفين عند زاوية البيت ولكنه بدلاً من أن يتقدّم نحوهما قاد الفرس عبر الفِناء الأمامي، وشد عنانه الى درابزون الرواق الخارجي . وفيما راح يصعدالسلم شرع بْراد يتقدمنحوه فوصل ألىالسلّم بيناكان غرايدي يدخل الباب الأمامي .

كان غرايدي واقفاً في منتصف الغرفة يحـــدّق الى لوسيان مستلقيةً في الفراش عندما تخطّى براد عتبة الباب. ولم تر لوسيان غرايدي في الحال ، ولكنها حين رفعت عينيها وعرفته أطلقت صيحة ذعر. وما هي إلا لحظة حتّى غادرت سارة المطبخ وهرعت الى الغرفة .

وقالت في اهتياج :

— « ما المسألة يا لوسيان ؟ ماذا حدث ؟ »

ثم انها رأت غرايدي واقفاً في منتصف الغرفة . كان ينظر اليها مغضباً. فصاحت : «اوه !» وانطلقت الى مؤخرة السرير.

وقال غرايدي للوسيان :

— « اذن ، فهذا هو المكان الذي اختبأتِ فيه . هه ؟ لقـــد كنت واثقاً انكِ لن تكوني في مكان بعيد . »

وأجال في الغرفة نظرة مرتابة . كانت بسيطة الاثاث ، فهي لا تحتوي إلا على سريرين حديديين يعلوهمـــا غطاءان نظيفان مطرّزان ، وعلى خوان عالٍ ، وكرسيين هزازين ، وعـــدة كراسي مستقيمة الظهور خيزرانية المقاعـــد . كان ثمة مرآة بيضاوية الشكل فوق الموقد ، وتقويم جداريّ كبير يمثل رجلاً وصبياً صغيراً يصطادان في جدول ماء ، وكان هـــذا التقويم معلقاً بين الموقد والباب الأمامي . ذلك كان ، تقريباً ، كل مـــا انطوت عليه تلك الغرفة التي اتخذت منها اسرة هاريسون حجرةً للقعود وحجرة للنوم في آن معاً. وكانت ارضية الغرفة المصنوعة من خشب الصنوبر وغير المفروشة بأي بساط قد أصبحت بيضاء

نتهجة للفرك .

وألقى غرايدي نظرة اخيرة خلفـــه ، ومضى الى الفراش الذي استلقت لوسيان فوقه متوفزة بالخوف . كانت أســـارير وجهه تتكشّف عن غضب كالح . وسألها :

ــ « ماذا تعنين بالفرار من المنزل والاختباء هنا ؟ »

وشاع الدم فيوجهه ، ولكن شفتيه كانتا بيضاوين.وذكرت لوسيان يومرأته يطرح زنجياًعلىالارض ويضربه بسلسلةحديدية. كانت تعلم جيداً الى أي حـــد من الوحشية يستطيع الغضب ان يسوقه .

واضاف ، رافعاً صوته :

ــ « لماذا هربتِ؟ أما آن للأيام أن تجعلك أعقل منذلك ؟»

وتقدّم براد بضع خطوات ، ووقفخلفغرايديمباشرة .

وقال غرايدي :

ــ « وأين قضيت الليل بطوله ؟ »

ومن غير أن ينتظرها حتّى تجيب ، التفت الىأم براد وقال :

ــ « ما الذي تفعله هنا ، في هذا المنزل ؟ »

ونظرت سارة الى عينيه مباشرة، وضغطتشفتيها فيإحكام. لقد عرفَ في الحال أنها غير خائفة منه ، فاستدار نحو لوسيان.

وقال ، وهو ينحني ويمسك بذراعها في خشونة :

ــ «لماذا لا تجيبين حين أتحدث اليك ؟ لماذا لا تقولين شيئاً؟ ما بالك ؟ »

وراقبته لوسيان في خوف بالغ.ولم تجرؤ علىالتماس النجدةمن

براد لأنها كانت تعرف أن اي شيء قد يحدث اذا صبّ غرايدي غضبه عليه في وقت كهذا .

وقال لها ناخعاً ذراعها على نحو موجع :

– « عندما اخاطبك اريد جواباً ، وأريده في سرعة ! اريد ان أعرف من أين دخل في رأسك ان في استطاعتك الفرار مني ! »

ونخعها لتتخذ في سريرها وضعاً قاعداً ، ورفع الغطاء عنها. كانت ترتدي احدى غلالات سارة هاريسون القطنية البيضاء ، وكان ثوبها الممزّق القذر منطرحاً على كرسي بجانب السرير .

وأصدر أمره اليها :

– « اخرجي من هذا السرير وارجعي الى البيت . »

وسحبها الى حافة السرير قبل أن يُطلق يدها .

وتوسلت اليه لوسيان ، غير قادرة على احتمال الألم :

– « أرجوك ، لا تؤذني ! »

فقال لها :

– « سوف تتوسلين خيراً من ذلك بكثير قبل ان أنتهي من تأديبك ! سأعلمك درساً لن تنسَيْه في سرعة . انك لا تستطيعين ان تهربي مني من غير ان تدفعي الثمن . هـــذا شيء لا يجوز عندي . »

فصاحت :

– « أرجوك ان لا تقول ذلك ، يا غرايدي . اوه ، أتوسل اليك ان لا تؤذيني . »

– « إخرسي ! سوف أقول ما يروق لي ، وسوف أفعل ما

يروق لي! انا لن أرضى ان يخدعني أحدٌ ثم ينجو من العقاب.»

وفيما هو يتكلم دخل ويل هاريسون الى الغرفة. لقد بدا هادئاً غير منزعج مما سمعه لدن دخوله . واستدار غرايدي .

فقال ويل في لهجة وديّة :

— « صباح الخير يا غرايدي . »

فهز غرايدي رأسه ، ولكنه لم يجب .

وقال ويل :

— « لقد رأيتك مقبلاً على جوادك منذ بضع دقائق، ولكني ما عرفت هل تريد أن تراني أم لا . ثم فكرت انّ من الأفضل ان أجيء الى المنزل لأرى ما اذا كان ثمة شيء تريدني أنافعله .»

وأومأ غرايدي برأسه نحو لوسيان ، وسأل ويل :

— « متى جاءت الى هنا ؟ »

— « لقد جاءت خلال الليل ، يا غرايدي : حوالى منتصف الليل ، أو بعد ذلك ، على ما أظن . طبعاً ؛ انا لم تكن لي اية علاقة في هذه المسألة ، يا غرايدي . انت تعرفني معرفة جيدة بحيث لا تجهل اني لا أشارك في أي شيء يغضبك . لقد جاءت هي الى هنا ، ولقد رأينا اننا لا نستطيع ان نرفض استقبالها في ذلك الليل البهيم . »

فقال غرايدي في ارتياب :

— « ما الذي جاء بها الى هنا ؟ »

— « لست أدري ، يا غرايدي . لقد رفضت ان تقول لنا شيئاً . »

ورفع غرايدي الثوب الممزق ، وتأمله لحظةً قبل ان يلقيه على الأرض :

— « كيف تمزّق ثوبها على هذه الشاكلة ؟ »

— « لقد كان ممزقاً على هذه الصورة عندما جاءت الى هنا ، يا غرايدي . جائز ان تكون الاسلاك الشائكة قد فعلت ذلك ، وجائز أن يكون نبات البريار هو الذي فعله. إن هناك رقعة كبيرة من نبات البريار عند حافة الحقل . »

وقال له غرايدي :

— « ان النساء يُغتصَبن في هذه البلاد . »

فقال ويل ، مسارعاً الى ابداء موافقته على ما ذهب اليه :

— « من غير شك ، يا غرايدي . ويبدو أنهن يجب ان لا يخرجن في الليل وحدهن على هذا الشكل ، لانك لا تستطيع ان تحزر متى يحاول احد الزنوج أن ... »

فقال غرايدي ، ناظراً الى بْراد :

— « ليس الزنوج هم الذين يغتصبون النساء دائماً . »

فأقرّه ويل قائلاً :

— « انت مصيب في ذلك ، من غير شك ، يا غرايدي . »

وسأله غرايدي ، ملتفتاً نحو بْراد :

— « مَنْ يوجد هنا غيره وغير الزنوج ؟ »

فسارع ويل الى القول :

— « لا أحد على الاطلاق ، يا غرايدي: ليس هناك سواهم من غير شك . »

كان غرايدي ينظر الى براد نظرات ترشح بالحقد :
ثم قال له :
- « لماذا لا تتكلم وتقول شيئاً ، بدلاً من ان تقف هنـــاك وفمك مغلق كالمعتوه ؟ وسيان عندي سواء أكنت انت الذي دعاها الى المجيء الى هنا ام كان الزنوج هم الذين فعلوا ذلك ، لأني اذا علمت على وجه التأكيد أنّ .... »

واستدار غرايدي قبل ان يكمل كلامه وحدق الى لوسيان مغضباً :
- « وأنتِ ، لم لا تقولين شيئاً ؟ ما الذي تحاولين إخفاءه ؟ من الخير لك ان تخبريني ! »
فتنهدت وقالت :
- « لا شيء ، يا غرايدي ! أنا لا احاول ان أخفي شيئاً : صدقني ، يا غرايدي ! »
- « هل خرجتِ لكي تجتمعي بأحد ؟ »
- « لا . »
- « هل غادرت المنزل وحدك ؟ »
- « نعم ، يا غرايدي ! »
- « لست ادري ما اذا كنت اصدقك أم لا . »
- « أرجوك ، يا غرايدي ، ان تصدقني ! »
- « اذا كنتِ تكذبين عليّ فسوف اكتشف الحقيقـــة ، وحذارِ أن تظني أني لن أفعل ! إن في استطاعتك أن تسهّلي الاشياء كثيراً على نفسك اذا اخبرتني الحقيقـــة قبل فوات

الأوان ! »

— « ولكني قلت لك الحقيقة ، يا غرايدي ! قلت لك الحقيقة ! »

ونظر غرايدي اليها بضع لحظات ، ثم التفت فجأة الى براد .

وسأله :

— « ماذا تفعل هنا ، على اية حال ؟ لماذا لا تذهب وتشتغل حيث يجب ان تشتغل ؟ »

وتطلع براد الى أبيه وكأنه يلتمس منه ان يسمح له بأن يقول شيئاً . وهز ّ ويل رأسه ، وتقدم فوقف بين براد وغرايدي .

— « غرايدي ، اني اتعهد بأن يعوّض براد عن كل دقيقة تضيع . انا لا اريدك ان تفكر ان اياً منا يُهمل عمله . »

— « واذن ، فلماذا لم ينصرف الى عمله حتّى الآن ؟ »

— « لقد قضينا ساعات الصباح ونحن نصلح التراكتور ، لقد انكسر في الحقل امس مساء : ولقد قاده بيت والعم جيف دايفيس الى براد ليصلحه . »

فقال غرايدي :

— « وما أدراني ما الذي كان يفعله الليلة البارحة ؟ إن هذا ما أريد ان اعرفه . »

فأجابه ويل :

— « ليس ينبغي ان تشغل بالك من ناحية براد . سوف ادبّر المسألة . والى هذا ، فأنه ولد طيب . »

– « انا افضل ان تتخلّص منــه . إبعثْ به الى مكان من الامكنة . انا لا أريد ان أراه يتسكّع هنا. انا لا احبه الآن اكثر مما فعلت في اي وقت مضى . »

– « ولكن غرايدي ولدي ، وأنا .... »

– « هل تحاول ان تجادلني ؟ »

قال ويل في وداعة :

– « لا ، يا غرايدي . انا لا افكر في الأقدام على شيء مثل هذا . انت نفسك تعرف اني حاولت دائماً انافعل ما تطلبه مني على وجه الضبط . »

– « تخلّصْ منه اذن . »

ومضى غرايدي الىالسرير ، وامسك بلوسيان من ذراعها، وجذبها في قسوة اخرجتها من السرير نصف إخراج .

وقال لها :

– « والآن اخرجي من هنــا ، وارجعي الى البيت الذي خلِقت للعيش فيه . »

فتضرعت اليه ، متنهّدة والدموع تملأ عينيها :

– « أرجوك ان لا تطلبإليّ الذهاب ،يا غرايدي ! ارجوك ان لا تفعل ! انا لا اريد ان اذهب ! »

– « انت لا تريدين ان تفعلي ماذا ؟ »

– « لا اريد ان اذهب ، يا غرايدي . »

– « حسناً ، سوف اكون ملعوناً ... »

– « انا اعني ما اقول ، يا غرايدي ! أنا أعني ذلك! لست

اريد ان اذهب ! »

— « هل تعرفين ماذا تقولين ؟ »

— « اعرف ذلك على وجه الضبط ، يا غرايدي ! »

وصفعها على وجهها صفعة غاضبة صرعتها على جانبها ؛ وصاح :

— « ان هذا سوف يعلمّك شيئاً ! انا لا أبالي قلامة ظفر سواء اردت ان تذهبي أم لم تريدي — إنك سوف تذهبين على كل حال ! »

وتطلعت لوسيان في ضراعة الى سارة . وقبل ان تستطيع ان تمضي الى لوسيان ، بسط ويل يده وأوقفها ، هازاً رأسه في الوقت نفسه .

وقال في صوت خفيض :

— « لا ، يا سارة . لا تفعلي . »

فاحتجت قائلة :

— « ولكن ، يا ويل ... »

وهز ويل رأسه كرة اخرى ، وردّها عن لوسيان .

وسحب غرايدي لوسيان من السرير ، ورفع ثوبها الممزق ، وقذف به اليها . كانت تبكي في عجز .

وقال لها غرايدي :

— « إلبسي حذاءك ، وأسرعي في هذا . لا تدعيني أسمع مزيداً من ذلك الكلام عن عدم رغبتك في الذهاب الى المنزل . انتِ زوجتي ، وينبغي أن تفعلي ما أقوله لك . »

ولم يحاول ويل أن يوقف سارة عندما ركعت على ركبتيها وساعدت لوسيان على لبس حذائهـــا . وأومأ ويل لبْراد ، فقصد الى الرواق الأمامي . لقد مضيا الىالدرابزون ووقفا هناك يصغيان بضع لحظات الى الاصوات المنبعثة من الغرفة خلفهما:

وقال براد وقد تفجرت منه الكلمات فجأة :

ـ « بابا ، كيف تستطيع ان تَدَعَه يعاملها على هـــذه الشاكلة ؟ الا ترى أنها لا تريد ان تذهب ؟ يجب أن لا تسكت على طريقة غرايدي في إصدار الأوامر اليك . »

ـ « لقد حاولتُ ان افعل كل ما يطلب اليّ غرايدي ان افعله ، يا بنيّ ، وأحد هذه الأشياء هي ان لا أفارق مكاني . »

فقال براد ، رافعاً رأسه وخافضاً اياه في أناة :

ـ « حسناً ، إنه لا يملكني . أنا لا أتلقى الأوامر من أحد . »

ـ « انا اكره أن اسمعك تتحدث على هذه الشاكلة ، يا بنيّ . إن هذا النوع من الحديث لا بدّ ان يجرّ علينا ، عاجلاً او آجلاً ، بلاءً ومتاعب : »

ـ « اذا كنت تخشى ان تتكلم فسوف اتولى أنا هذه المهمة. أنا لن اسمح لغرايدي دانبار بأن يجعلني اخاف من خيالي . »

فقال ويل في نبرة جازعة :

ـ « إنّ ما تقوله ، يا بنيّ ، قد يكون صحيحاً . ولكن صحته هذه لا تعطينا حق التدخل في حياته الخاصة . »

فقال له براد غاضباً :

— « ان لي كل الحـــق في الاستمرار في موقفي . واذا ما ضربها مرة اخرى كما ضربها منذ بضع دقائق فسوف اوقفه عند حده . »

وانتهت لوسيان وغرايدي الى الباب ، تتبعها سارة مضطربة جازعة . وأمسك غرايدي بذراع لوسيان وجذبها عبر الرواق ثم هبط السلّم بها الى الفناء . كانت تبكي منسحقة الفؤاد .

وحلّ غرايدي العنان ، ودفع الفرس الى الاستدارة .

ثم قال محدّقاً الى براد :

— « لست مكتفياً بكل ما اعرفه عن وجودها هنا . ولكني سوف اكتشف الحقيقة . سوف اكرهها على الكلام . »

ودفع لوسيان نحو الفرس دفعاً وحشياً .

وقال لها :

— « امتطي هذا السرج . »

١٠

ورفعت لوسيان الغلالة فوق ركبتيها ، وحاولت أن تضع قدميها في الرِّكاب . كان الركاب أعلى من ان تبلغه . ورفس الفرسُ بقائمتيه الاماميتين في قلق جاعلاً نزولها عند رغبة غرايدي مهمةً اشدّ عُسْراً . واذ لم تستطع سارة ان تقف مكتوفة اليدين وان لا تفعل شيئاً من اجلها فقد هرعت عائدة الى المنزل، موصدةً البـــاب خلفها . وخفض ويل بصره، نحو الارض، في

قلق واضطراب.

وقال لها غرايدي :

ـ « على مهلكِ . استطيع ان أبقى هنا طول النهار . »

وأدارت لوسيانَ وجهها نحو ويل وبراد ، فلم تكد تتبيّنهما من خلال دموعها .

فقال غرايدي :

ـ « اذا كانت لديّ نصيحة اقدّمها اليك فهي ان تسارعي الى امتطاء هذا الفرس كما قلت لك . »

وهبط براد السلّم في تؤدة ، ووقف في الفناء . وراقبه غرايدي من زاويتي عينيه .

وصاحت لوسيان :

ـ « كل ما في الأمر اني لا استطيع بلوغ الركاب ، يا غرايدي . ألا ترى ، يا غرايدي ؟ »

وبدلاً من ان يجيبها دفعها في عنف الى جانب الفرس . فنشجت مثل طفلة صغيرة ، ورفعت غلالتها كرة ثانية ، وحاولت أن تبلغ الرِّكاب. وفيما كانت تفعل ذلك ارتدّ الفرس الى الوراء ، فزلت قدمها وسقطت على الارض .

وقال غرايدي ، ضاحكاً في سخرية ، غير محاولٍ ان يساعدها على الوقوف :

ـ « هكذا ، هكذا يكون ركوب الخيل ! ليس عليك إلا ان تستمري في هذه الرواية التمثيلية وأن تريَ أيّ شيء تجنينه من ذلك . أنا اعلم أنك تحاولين ان تسخري مني . إني استطيع

ان أحتمل ذلك أطول مما تستطيعين بكثير . وحين يتطرّق السأم الى نفسك إنهضي عن هذه الارض وامتطي متن ذلك الفرس كما قلت لك منذ البـــدء . اني لا أظنك تحسبينني قرداً تضحكين منه ! »

وقبل ان يتم غرايدي كلامه كان بـْراد قد تقدم نحو لوسيان، وسرعان ما انحنى وأنهضها عن الأرض . وفيما كان منحنياً فوقها رفسه غرايدي رفسةً حقوداً بأقصى ما استطاع من قوة. وكادت الرفسة ان تصرع براد ، ولكنه احتفظ بتوازنه ، وقاد لوسيان الى الفرس ووضع يديها على السرج لكي تستطيع ان تثبّت نفسها. ثم استدار وواجه غرايدي، ووجهه ينتفض بالغضب كما لم ينتفض قط في ايما يوم من الأيام. أما غرايدي فكان يضحك في استهزاء.

وقال غرايدي في نبرة زاجرة :

— «ما بالك ؟ هل انت خائف ؟ لماذا لا تقاتل اذا لم يعجبك ذلك ؟ »

وفيما هو يتكلم تحرّكت يده نحو مسدسه واستقرت هناك. ثم اضاف :

— « لقد رأيت كثيراً من امثالك قبل اليوم. انا اعرف كيف ينبغي ان أعاملك . »

ونظر براد الى ابيه . كان ويل يهز رأســهُ هزات عصبية سريعة .

وقال غرايدي :

— « ارفع يديك القذرتين عن زوجتي . فلست أنـــا من

يرضى بذلك . »

وأدار براد ظهره لغرايدي ، ومضى الى لوسيان . وشرع يساعدها على امتطاء صهوة الفرس . وقبل أن يوفق الى رفعها عن الارض وثب عليه غرايدي وامسك به من كتفه . فما كان من براد إلا ان نتر ذراعه نترةً قوية أقصت يد غرايدي عنه .

وصاح غرايدي في غيظ :

— « قلت لك ان ترفع يديك القذرتين عن زوجتي ! انت تتصرّف وكأنك تحسب نفسك مثل أيّ انسان يعيش هنا! سوف أطيّر دماغك بضربات سريعة تجعلك لا تدري اي شيء ينهال عليك ! »

وحاولت لوسيان ان تحول دون اشتباكهما . فدفعها غرايدي جانباً .

وقال له براد في صوت هادىء :

— « في استطاعتك ان تقول ما تشاء ، يا غرايدي دانبار ، ولكني لا اجيز لك أن تسيء معاملتها عندما أكون هنا . واذا ما آذيتها مرة أخرى بعد اليوم فلن أقف مكتوف اليدين من ذلك. هذا كل ما اريد ان أقوله ، يا غرايدي دانبار . »

واستبد الدهش بغرايدي وارتدّ خطوة واحدة الى الوراء . لقد تلوّت على شفتيه ابتسامة كلها ازدراء .

— « انك لمعتوه حقاً ! »

— « لا ، أنا أعني ما اقول ، يا غرايدي دانبار . »

— « ومن تحسب نفسك بحقّ الجحيم ؟ »

– « انت تعرف من انا . »

– « الواقع اني رأيت كثيراً من امثالك من قبل . »

كان الدم قد شاع في وجهــه ، وكانت شفتاه ترتعشان بالغضب . وبصق في غطرسة عند قدمي برْاد .

– « من أي عهد بدأتَ تُعْنَى بأمر زوجتي ؟ منذ متى بدأ ذلك ؟ »

– « هذه مسألة خاصة بي . »

– « يا للجحيم ! »

وخطا غرايدي خطوة نحوه، ولكن براد لم يتحرك . وعندما رأى غرايدي أن براد غير خائف منــه ، ضحك في عصبية ووضع يده على مسدسه كرة اخرى .

وقال غرايدي في استخفاف :

– «وهكذا سمعنا صوتك آخر الأمر ! لقد كنت أعجب لماذا كنت هادئاً الى هذا الحد كله طوال هذا الوقت، ولماذا تصرّفت وكأنك تخاف أن تفتح فمك . انت لم تُرد ان تدعني اكتشف ان ثمة شيئاً دائراً بينكما ، أليس كذلك ؟ »

ولم يقل براد شيئاً ، ولكنه ظلّ ينظر الى عيــني غرايدي مباشرةً .

– « إنك تريد ان تُظهر بطولتك أمامها ، وتُدخل في نفسها أنك رجل فحلٌ كبير ، أليس كذلك ؟ »

– « تستطيع ان تفهم المسألة على الوجــه الذي يروق لك ، يا غرايدي . »

ــ « حسناً ، إفرض ان ذلك لم يعجبني . »

ــ « هذه مسألة تستطيع أنت ان تقررها . »

ــ « لقد قررت وانتهيت ، ولا تحسِبْ اني لم افعل بعد . »

فقال براد في هدوء :

ــ « هذا يلائمني . »

وحرك غرايدي ذراعه على نحو متوعد وكأنما يريد أن ينتزع مسدسه من جيبه ، وهبط ويل هاريسون درجات السلم مسرعاً وحاول أن يفصل ما بينهما . ودفع براد أباه جانباً .

وقال رابط الجأش :

ــ « سوف اتولى هذه المسألة بنفسي ، يا أبي . إني اعرف ما انا صانع . إبقَ انت بعيداً عن هذه المشكلة . »

فقال له غرايدي :

ــ « ان الشيء الوحيد الذي ستقوم بـــه هو أن تغلق فمك الكبير . »

فقال براد :

ــ « دعها وشأنها أبقِ فمي مغلقاً . »

فضحك غرايدي في سخرية :

ــ « اذن أغلِقْهُ وأبقِه مغلقاً ايها الأبيض الوضيع ! إني أنا الرجل الوحيد الذي يتكلم هنا . وإنك اول أبيض وضيع بلغت به الحماقة حداً جعله لا يلتزم مكانه حين يُطلب اليـــه ذلك . ايها المخبول ، انك تتصرف وكأنك تحسب نفسك مساوياً لي ! »

وتقدّم غرايدي نحو الفرس ، ولكنه غيّر رأيه فجأة واستدار

نحو براد :
وسأله :
– « ما الذي كان يجري بينك وبينها ؟ »
ونظر اليه براد ولكنه لم يقل شيئاً .
– « لماذا لا تجيبني عندما اتكلم معك ؟ ما الذي تحاول ان تكتمه ؟ »
– « ماذا تعني بذلك ؟ »
– « أعني ما اعنيه . انت لست أبكم كما تبدو. انك تعرف ما اعني . »
– « لست مضطراً الى الاجابة عن هذا السؤال . »
– « سوف تضطر اذا رغبتُ انا في ذلك . »
– « حاول ان تُجبْرني واكتشِف ما يكون . »
وأخذ غرايدي نفَساً عميقاً .
وقال متوعداً :
– « انك لن تحيا حتى تجيب اذا ما تأكدت من الأمر . اذا ظهر لي ان شيئاً كان يجري بينك وبينها فأنني سوف ... فأنني سوف ... »
ووقف ويل هاريسون حاجزاً بين ابنـــه وغرايدي ، كرة اخرى . وهـــذه المرة واجه غرايدي ولم يلتفت لمحاولات براد الرامية الى إبعاده جانباً .
وقال في رصانة :
– « والآن ، يا غرايدي ، انك تعلم اني لست الرجل الذي

يعارض أي شيء مما تقوله : لقد نزلت دائماً عند رغباتك ،ولن أنسى موضعي الاجتماعي ، مهما حدث . ولو كنت أعتقد أن ولدي اساء اليك بأية طريقة لكنت أول من يحاسبه على ذلك . كنت اؤثر الف مرة أن ابعده عن هذا المكان لو فعل شيئاً لا تحبه وترضاه ، على أن ابقيه هنا و يُحدث خلافاً بيني وبينك ؛ انت تعرفني جيداً الى حدّ يجعلك تثق اني من ذلك النوع من الرجال ، يا غرايدي. والآن يخيّل الي انه ليس ثمة ايما سبب على الاطلاق لهذا الشجار كله ... »

فقال له غرايدي :

— « من الخير لك أن لا تتدخل في هذه المسألة . واذا ما احتجت الى نصيحة منك فلن أحجم عن طلبها. اذا ما سمعتُ منك شيئاً من مثل هذا الهراء بعد اليوم فسوف اطردكم جميعاً — انتم ابناء هاريسون الملاعين — من هذا المكان. اني لن أسمح لأحد بأن يقول لي ما الذي يجب عليّ ان أعمله في ايّ امر من الأمور . »

وقال ويل خافضاً رأسه في خضوع :

— « نعم ، يا غرايدي . يخيّل اليّ اني نسيت ولم أحسن كبح جماح نفسي ، واني لمتأسف لهذا كله . انا من غير شك لم أقصد الى ان أقول لك أيما شيء مثل هذا . »

فقال غرايدي ، ناتراً رأسه نحو براد :

— «يحسن بك، انتوهو ، ان تأخذا حذركما جيداً بعدالآن. واذا ما اكتشفت ما يخيّل اليّ اني سأكتشفه فسوف يكون الذي ستدفعانه غالياً. اني لن اسمح لأحد من وضعاء البيض بأن يخدعني

ويسخر مني من غير أن يلقى جزاءه . هـــذا شيء أستطيع أن أعيدكما به منذ الآن . »

فسارع ويل الى القول :

— « هذا صحيح ، يا غرايدي . انا لا ألومك مقـــدار ذرة على موقفك هذا من الأشياء . »

ورفع غرايدي لوسيان وقذف بها الى السرج . وتقدم براد حتّى حاذى الفرس لكي يكون في موقف يمكنّـــه من مساعدة لوسيان على الاستقرار في السرج اذا ما أطلق غرايدي العنـــان لفرسه ، فجأةً . وبحركة خاطفة وثب غرايدي الى أمام ودفع براد الى الوراء .

وقال له مهدداً :

— «سوف اؤدبك. سوف اؤدبك، ولو كان هذا العمل هو آخر اعمال حياتي . انا أعرف كيف ألقنكم ، انتم يا وضعاء البيض ، درساً يجعلكم تلتزمون حدكم . »

ونتر زمام الفرس فاذا بحركتها المفاجئة تكاد تطرح لوسيان على الأرض . واندفع عبر الفناء متجهاً نحـــو الممّر الضيق . وراقبها براد وأبوه في صمت حتّى بلغا منتصف المنحدر .

وقال ويل في قلق :

— « كنت اعلم ان ذلك سيؤدي الى مشكلة منذ ان رأيتك ترجع من الحقل حاملاً زوجة غرايدي . كان ذلك العمل خطأ من أساسه . »

— « وماذا كنت تفعل لو كنت في مكاني ؟ أكنت تركض

الى البيت الكبير ، وذيلك بين رجليك ، وتسأل غرايدي ما اذا كان من المستحسن مساعدتها ؟ »

— « والآن ، يا بنيّ ، ليست هذه هي الطريقة التي يتحدث بها الابن الى ابيه . »

— « هذه هي الطريقة الوحيدة للكلام مع إنسان يتمرّغ في التراب كلما نظر اليه غرايدي دانبار. لقد رأيتك تفعل ذلك طوال حياتي . إن هذا يثير اشمئزازي . »

وهز ويل رأسه في أسىً ، وخفض بصره الى الارض فترة طويلة . وكان براد يراقب غرايدي وهو يقود فرسه نحو البيت القائم فوق الكثيب .

وقال ويل اخيراً :

— « انا اكره ان اقول ذلك ، يا بنيّ . ولكن يبدو أن الشيء الوحيد الذي يحسن بك ان تفعله هو ان تقوم وترحل . ان بقاءك هنا لن يعني غير المتاعب لي ولأمك. ان غرايدي ليس من صنف الرجال الذين يتحملون بقاء مثير للمشاكل ، مثلك ، في أرضهم. لقد رأيته يتخلص من الزنوج لأسباب أقلّ من هذا السبب بكثير. ان الشيء الوحيد الذي يجب ان نعمله هو ان تستعد وترحل في أسرع وقت مستطاع . هذا هو العمل العاقل الذي ينبغي ان تقوم به . إن هذا العمل سوف يضع حداً للبلاء قبل ان يقع . »

وقال له براد :

— « انا لست خائفاً من غرايدي دانبار أو اي شخص مثله.

إن غرايدي دانبار لم يستطع ان يلقي الذعر في فؤادي . واذا ما صوّب مسدسه اليّ فأني أصرعه بضربة عاجلة تحمله على الاعتقاد بأن صاعقة قد انقضّت عليه . »

— « خفف من حدّتك ، يا بنيّ . لعلك تحسب ان في استطاعتك ان تدافع عن نفسك ، ولكنك كلما أطلت البقاء هنا ازدادت الحياة عُسْراً عليّ وعلى أملك . »

— « ما كان يوجد في هذه البلاد ايّ غرايدي دانبار لولاك ولولا سائر لاعقي الأحذية من أمثالك . وفي استطاعتك ان تثق اني لن أبقى هنا وأكون واحداً منهم . »

فسأله في لهفة :

— « واذن ، فأنت تعتزم الرحيل يا بني ؟ إنك اذا سمحت لي شرحتُ لأمك لماذا رحلتَ . فلستَ مضطراً الى ان تحدثها في هذه المسألة . سوف اشرحها لها لكي تفهم الواقع . انها سوف تغتمّ حتى المرض اذا بقيتَ هنا اكثرمما فعلت لأنها ستظل خائفة مما قد يفعله غرايدي . إنها لا تريد ان يصيبك ايّ اذى ، على كل حال . »

فقال براد ناظراً الى أبيه في وجهه :

— « لا ، انا لست راحلاً الآن. انا لم أصبح مستعداً، بعد ، للرحيل . هناك شيء يجب ان أقوم به اولاً . »

واعتصم ويل بالصمت وقد غلب عليه الدهش .

١١

وصعّدا في الكثيب ، تحت حرارة الظهيرة المرهقة ، قاصدين الى البيت الكبير القائم في ظل شجرات السنديان الطويلة الحمراء . كان الجو حاراً ، دائماً ، في ذلك الوقت من السنة عندما تصبح سماء الربيع الزرقاء الصافية مخططةً بسحائب الصيف التي استحالت تدريجياً الى لون القطن القذر . إن الحرارة سوف تصبح لاهبةً بعد شهر واحد ، وان الهواء سوف يصبح رطباً ثقيل الوطأة على النفس . وعندئذ ترى النباتات الناضرة التي كانت الآن شديدة الخضرة والخصب وقد انقلبت تحت وهج الشمس المحرق الى مجموعة من أوراق وسُوَيقات هشّة متغضّنة ضارب لونها الى السمرة . ليس هذا فحسب بل سوف يصبح هناك فترات أطول بين المطرة الراعدة والمطرة الراعدة ، حتى اذا أوشك الصيف على الانتهاء عمّ الجفاف والغبار أرجاء المنطقة كلها .

كان غرايدي قد اعتصم بالصمت طوال المسافة الواسعة المجهدة من بيت هاريسون الى أعلى الكثيب ، ولكنه كان ينظر من فوق كتفه ، بين الفينة والفينة ، لكي يتأكد من ان لوسيان لم تحاول القفز عن الفرس والركون الى الفرار . كان قد نتر الزمام في نكد ، وقاد الفرس عبر الفناء الرملي الابيض الى المدخل الجانبي . حتى اذا بلغ السلم أوقف الفرس بنترة للزمام مفاجئة .

وصاح بأعلى صوته :

– « بيكوم ! بريسكو ! اين انتما يا ولدَيْ الزنا الأسودين ! من الافضل أن تسارعا الى هنا قبــل ان أسلخ جلدكما معاً ! بيكوم ! بريسكو ! »

وفي الحال تقريباً هرع غلامان زنجيان – كل منهما في نحــو العاشرة – من خلف البيت حيث كانا يلعبان فوق ركام الحطب. كانت ثيابهما الممزقة تتدلى مــن جسديهما البضّيْن المستديرين وكأنها سوف تتهافت وتنحلّ نهائياً قبل أن يصل الغلامــان الى هناك . كان لا يطرأ على مظهرهما من العام الى العام غير تغيّر طفيف ، باعتبار ان الفارق الوحيد الملحوظ كان ظهور رقعة جديدة من قماش عتيق على قميصيهما وبنطلونيهما . كان شعرهمــا الأسـود الجعد ، مجزوزاً جزاً يكاد يُبــدي عـن جمجمتيهما المستديرتين .

ولم يكن بيكوم وبريسكو ليتلقيا ، في أيما يوم من الأيام ، تعويضاً على تنظيفهما الفناء من الاغصان والحصى ، وعلى قيامهما بمختلف المهامّ اليومية الأخرى حول المنزل . كانا يلتقطــان اعقاب السجاير ويدخنانها في الاصطبل . وكانا يلعبان تحت الشرفة حين يكون ثمة رفاق ، ويبحثان عن بعض القطع النقدية التي كانت تسقط أحياناً من الشقوق التي في ارضية الشرفة . كانا يلويان رقاب الدجاجات الصغيرة وينتفان ريشها للطاهيات ، وكانا يترصدان زجاجات « البوربون » التي كان غرايدي يقذف بها من نافذته ، فيلعقان بشقّ النفس آخر نقطة ويسكي فيها . وكانا الى ذلك يقرعان الجرس الكبير في الفناء ، عندما

يحين موعد الغداء ، ثم يتطلعان من خلال النافذة اثناء سكب الطعام . وشهراً بعد شهر ، كانا يقومان بعشرات من المهـــام المنزلية الصغيرة في أمانة وصبر ، وفي نوبات متعاقبة من الحماسة والكسل. كانا يقضيان وقتهما ،من مطلع الفجر الى ما بعد المغيب بكثير ، حول المنزل الكبير ، مستعدّيْن للقيام بأيما عمل ، لأن ذلك ما كان غرايدي قد أمرهما به . ولقد كانا شديدي التوق الى معرفة ما يقع داخل البيت الكبير خلال الليل ، فهما كثيراً ما يتسلقان أعمدة الشرفة الضخمة التي انقشر عنها دهانهـــا ، ويراقبان لوسيان او غرايدي في غرفتهما المضاءة ، ولا يملاّن من ذلك إلا بعد انقضاء ساعات متواصلة .

أما خادمات البيت الأخريات ، الطاهيات ومنظفات الغرف والغسّالات ، فكنّ في بعض الاحيان يقبضن اجورهن الاسبوعية البخسة دولارات معدودة ، ولكن ذلك ما كان ليتّم في اكثر الاحيان لأنه كانّ من دأب غرايدي ان يصرّ على إعطـــائهن اجورهن ثياباً بالية أو كيساً من الحمص أو اي شيء من سقط المتاع منتزع من غرفة الأسلاب في الطابق الثالث. وكلما حاولت احدى النساء أن تحتج على إكراهها على أخذ شال اكله العث أو كرسي ذي ثلاثة أرجل مقابل اسبوع كامل من العمل عرف غرايدي كيف يسكتها بتهديدها بالسّوق الى سجن المقاطعة في ماغوفين بتهمة التخلف عن دفع الديون المستحقة له عليها منذ عدة سنوات لقاء احتلالها كوخاً من اكواخ الحي . وكتحذير لجميع الزنوج في مزرعته كان غرايدي يخلق الفرصة ، بين الفينة

والفينة ، لأرسال واحد منهم الى السجن . ولم يكن يحتاج من أجل ذلك الى اكثر من الزّعم ان الزنجي مدينٌ له ببضع مئات من الدولارات ، وانه يستعد لمغــادرة المقاطعة تهرّباً من دفع الدّين . وفي ماغوفين كان من عادة القضاء أن يأبى الأخذ بدفاع الزنجي عن نفسه وأن يؤيد وجهة نظر الرجل الابيض دائماً ، وهكذا كان الزنجي يجد نفسه عادة محكومــاً عليه بالسجن أو محكوماً عليه بالاشغال الشاقة .

وقال غرايدي متجهم الوجه أجش الصوت :

— « أين كنتما طول هذا الوقت يا بيكوم ؟ هل كنتما ، أيها العفريتان الأسودان ، في الزريبة ، تركبان ظهور الخنانيص * هذه المرة ايضاً ! »

— « لا يا سيدي ، مستر غرايدي ، اننا لم نركب في المدة الأخيرة ظهور الخنانيص على الاطلاق . »

— « اذا أمسكت بكما تتعفرتان خلف البيت ، بعد اليوم ، أطيّر دماغكما من رأسيكما. »

كان الغلامان يبتسمان في براءة . واضاف غرايدي :

— « وحين اناديكما في المرة القادمة أريد ان أراكما هنا قبل ان اتمّ كلامي . لقد بدأت أملّ اعظم الملل من انتظاركما حتى تصلا الى هنا . هل ستفعل كما قلت لك ، يا بريسكو ؟ »

فأكد له بريسكو ذلك ، وشفتاه ترتعشان بالخوف :

---

* جمع خنوص ، وهو ولد الخنزير .

– « أنا وبيكوم سوف نكون هنا كما تقول تماماً . لقد كنا هناك نكوّم الحطب لكي يصبح صالحاً ويجفّ كما يجب . »

والتفت غرايدي ، وحدّق في قسوة الى الغـلام الآخر . واصطكت ركبتا بيكوم .

وقال غرايدي :

– « ماذا تعني بهذا التباطؤ كله ، يا بيكوم ؟ لماذا لم تكن واقفاً تنتظر هنا لتأخذ الفرس ؟ هل يتحتّم عليّ ان انادي بأعلى صوتي كلما احتجت اليك ؟ علام تحسبني أستأجرك ؟ اني اذا رأيتك تتهرّب من العمل بعد اليوم فسوف اسلخ جلدك وانت حيّ . واذا لم تأخـذ حذرك فأني سوف أنتزع منك وظيفتك وأعهد بها الى شخص آخر . هل سمعت ما قلته لك ؟ »

فقال بيكوم مرتعداً على نحو اكثر عنفاً :

– « نعم يا سيدي ، مستر غرايدي . أنا أسمع كل كلمـة تقولها ، ولن اتهرّب بعد اليوم من وظيفتي ، بلا شك ، ما دمت حيـاً . وأرجوك ، يا مستر غرايدي ، ان لا تنتزع مني وظيفتي . اني أفضل ان تفعل ايّ شيء غير هذا . وأنا متأكد من اني احب وظيفتي حباً عظيماً ، يا مستر غرايدي . »

فقال لهما غرايدي :

– « اذا حدث هذا مرةّ اخرى فسوف آتي بغلامين آخرين من غلمان الأزقة يقومان بوظيفتكما وينهضان بالعمل المطلوب منكما على الشكل الذي أريده منكما . لقد سئمت من اضطراري الى تصيّدكما كلما احتجت اليكما . واذا لم تغيّرا من مسلككما ، فسوف

تجدان نفسيكما وقد رجعتما الى حي الزنوج هناك وليس في أيديكما عمل أو وظيفة . »

فرفعا صوتيهما معاً في الوقت نفسه تقريباً :

– « نعـــم يا سيدي ، مستر غرايدي . سوف نفعل كما قلت تماماً . »

فقال لهما :

– « حسناً . سوف أعطيكما فرصة أخرى . أنا الآن مشغول الى درجة تجعلني غير قادر على البحث عن غلمان ازقة جدد . »

فقال بيكوم مبتسماً في عصبية :

– « نعم ، يا سيدي مستر غرايدي . من الرائع ان تفعل هذا من اجلنا هذه المرة . »

وسألهما في ارتياب :

– « ما الذي كنتما تفعلانه طول الصباح ، على كل حال ؟»

فأجابه بريسكو قائلاً :

– « قضينا معظم الوقت ونحن نكوّم حطب الموقد وننظف بيت الدجاج ونعزق الأرض في الحديقة . »

وقال لهما غرايدي :

– « حالما تقودان الفرس الى الاصطبل شمّرا عن ساعد الجد وابحثا عن عمل اضافيّ تقومان به . ان الزنوج يتورطون في الحماقات عندما لا يكون لديهم عملٌ كافٍ يقومون به . »

فقالا في صوت واحد :

– « نعم يا سيدي ، مستر غرايدي . »

وبسط يده وجذب لوسيان الى الارض . ثم أسلم الزمام الى بيكـــوم ، في حين ألهب بريسكو الفرس بالسوط حتى ينطلق خبباً . وغاب الفرس والغلامان خلف باب الاصطبل.

ومن زوايا عينيها كان في ميسور لوسيان أن ترى عدداً من الخادمات العـــاملات في البيت. ومن بينهن سالي جون ، وقد استحوذ الفضول عليهن جميعاً ، فهن يحدّقن اليها من نوافذ حجرة الطعام غير المجللة بالستائر . واذ استشعرت الذل ، وأحسّت أنها لا تستطيع ان تنظر بعد اليوم الى النساء الزنجيات من غير ان تذكر ابتساماتهن المكبوتة ، فقـــد ارادت ان تستدير وتفر غائبة عن انظارهن الى الأبد . وفي تلك اللحظة بالذات استشعرت نظرة غرايدي تخترقها اختراقاً ، فالتفتت نحوه في ذعر .

واصدر امره اليها :

ـ « اذهبي الى غرفتك ... »

وقبل ان تتمكن من الحركة أمسك بهـــا من ذراعها ، ثم استشعرت أنها تُدفع نحو السلّم دفعاً عنيفاً كاد ان يوقعها على الارض .

ثم اضاف :

ـ « وعجّلي في الذهاب ، ان اضاعة الوقت هذه كلها لن تفيدك شيئاً . »

وحبست لوسيان أنفاسها ، وصعدت درجات السلم في عجلة ، وسارعت الى الرواق . وحين اجتازت بباب حجرة الطعام كان

في ميسورها ان ترى النسوة يحدّقن اليها .

انها منذ اليوم الاول الذي اقبلت فيه لتحيا هناك ، تقريباً ، استشعرت ضيقاً وحرجاً أمام النسوة الزنجيات. لقد عاملْنَها في احترام ، ولم تصدر من أيّ منهن كلمة نابية قط ، ومع ذلك جَعَلْنَها تشعر انها ليست ، ولن تكون ، جزءاً من البيت بقدر ما كنّ هنّ جزءاً منه .

وطوال تصعيدها في السلّم البالي غير المفروش بالبُسُط وسيرها في الرواق العريض الطويل الى غرفتها كان في امكانها ان تسمع وقع قدمي غرايدي يلحق بها متميزاً من الغيظ . كان الصمت والسكون يخيمان على المنزل الكبير ، وقد حمدت الله لانها لم تُضْطرّ الى مواجهة ماما إيلزي في وقت كهذا . وذات لحظة ، كانت على ثقة من أنها سمعت اصوات النسوة الزنجيات الهائجة، ولكنِ المكبوحة ، في الرواق السفليّ .

وهرعت لوسيان الى غرفتها ، عالمةً ان من العبث الذي لا طائل تحته ان تغلق الباب . وانطرحت في كلال على الأريكة . وما هي الا لحظات معدودات حتى سمعت وقع قدمي غرايدي الثقيلتين فيما كان يدخل الباب . وأوصد الباب خلفه في عنف جعل ذرات من الغبار تتساقط من شقوق السقف الصنوبريّ .

لقد بدا لها ان كل دقيقة تنقضي تعقبها دقيقةٌ أثقل منها وأشد وطأة ، فيما كانت هي منطرحة هناك تنتظر ان ترى ما يقوله غرايدي أو يفعله . وأيا ما كان ذلك فقد ادركت ان اللحظة الحاسمة قد حلّت الآن . كانت تحت رحمته بكل ما في

الكلمة من معنى . وخبــأت وجهها بذراعيها لتجتنب نظرات غرايدي النكدة ، أطول مدة ممكنة . ومن غير ان تنظر اليه فعلياً عرفت انه كان واقفاً هناك ، يرمقها في ازدراء .

وسمعته يقول في نبرته المتغطرسة :

– « هيا ، فلنبدأ . »

كانت هي النبرة الآمرة نفسها التي تعود اصطناعها عندما يلعن زنجياً قام ، على غير قصد منه ، بعملٍ اثار غضبه .

ثم اضاف :

– « اريد ان أسمع ما الذي تحسبين ان في استطــاعتك ان تقوليه دفاعاً عن نفسك . لقد آن لك ان تكوني على استعداد للكلام ، الآن . فقد كان لديك متسع من الوقت لكي تفكري في القصة التي ستحاولين اقناعي بها . تكلمي ! دعينا نسمعها ! »

وحبست لوسيان انفاسها ثانيةً بعد ثانية ، محاولةً على نحو يائس ان تفكر بالذي تستطيع ان تقوله . ولكن دماغها المروّع راح يختلج في ألم .

وقال في سخرية :

– « وهكذا أظهرت الايام اية سيدة رائعــة انت ! وايّ مُغفَّل كنت عندما سمحت لك ان تخدعيني هذه المدة كلها ! »

كانت لا تزال تجتنب النظر اليه ، ومع ذلك فقد عرفت انه كان واقفاً في منتصف الغرفة على بضعة اقدام من الأريكة ، وأنه كان ينظر اليها والبغض والريبة ملء فؤاده . لقد أدركت للمرة الاولى الى ايّ حد من الوحشية يمكن ان يبلغ به غضبه .

كانت الآن خائفة منه .

وقال في تهكم :

— « لن يدهشني ان اكتشف انك لفقت احدى القصص سلفاً . هيا اسمعينا اياها. ليس من الضروري ان تمثلي دور الفتاة الخجول . انا لا أملك وقتاً لمداراتك وتملقك . هات أسمعينا قصتك ! »

وسحب كرسياً ثقيلاً الى زاوية الأريكة . وقبل ان يجلس عليه أمسك بها من معصمها وأبعد ذراعيها عن وجهها .

وحذرها قائلاً :

— « وعلى أية حال فمن الافضل لك ، اذا كنت تعرفين مصلحتك ، ان تنطقي بالحقيقـــة كاملة . واذا كانت تراودك فكرة تقول بأن في استطاعتك التخلص من ورطتك بالكذب والحيلة فمن الخير لك ان تفكري في المسألة كلها من جديد . انا لن اجلس هنا وأستمع اليك تكذبين علي . انا لا أملك وقتاً كثيراً الى هذا الحد حتى أضيعه . »

١٢

أدركت لوسيان ، وهي منطرحة هناك مرتعدة الأوصال ، ان لا مفر لها منه . لم يكن ثمة شيء من كلام او عمل يستطيع ان يضع حداً لتعذيبـــه اياها . فلو انها توسلت اليه ان يرحمها اذن لسخر منها . واذا ما نهضت وحاولت الفرار اذن لأمسك بها

وردّها الى الأريكة . لقد عرفت الآن شيئاً لم تدركه قط عندما رأته يسيء معاملة احد الزنوج ، وهو أنه يجد متعةً في تعذيب من يتفق ان يكون ضحيته .

وأسند قدميه الى زاوية الاريكة ، رامقاً لوسيان بنظرة تنضح بالابتهـــاج الفظ ، وأشعل سيجارة ، وطرح عود الثقاب في عنف ، على البساط . وحاولت لوسيان ان تدفن وجهها في الوسادة ولكن غرايدي أمسك بها ، في قسوة ، من كتفها وأدارهـــا على ظهرها .

ــ « هيا أسمعينا ما تريدين ان تقوليه دفاعاً عن نفسك . انا لن أجلس هنا طول النهار مثل مجنون لعين . كفاك حيَلاً . »

وانتظرت لاهثةً ، متسائلة حتّام سيكون في امكانها أن تظل صامتة قبل ان يُكرههـــا على قول شيء . ورفع غرايدي قدمه ونكزها بمقدّم حذائه .

وقال في ضحكة قصيرة :

ــ « لقـــد لهوت لهواً كافياً ، فلنسمع الآن قصة ذلك . يقولون لي ان السيدة التي يدعونها فاضلة اذا ما ضلّت طريق الفضيلة فأنها تسعى الى غايتها من غير مواربة . وأنا طبعاً ما كنت لأتطفل على سرّكِ الصغير لو لم يتفق أن كنت زوجاً لك . »

ومدّ رجله نحوها ، رافساً اياها هذه المرة بعَقِب حذائه الجلدي القاسي . فبعث الألم رعدة اثر رعدة في اوصالها كلها .

وارتفع صوته الى نبرة عصبية عالية :

ــ « في استطاعتك ان تبدأي بأخباري عما كنت تفعلينه في

ذلك الحقل الليلة البارحة . أنت لستِخجلة الىدرجة لا تساعدك على رواية التفاصيل على مسمعي ، أليس كذلك ؟ نحن كلنا من أبناء الجلدة نفسها . ان في استطاعتك ان تتحدثي الى اصحاب البشرة البيضاء ، أليس هذا صحيحاً ؟ انك حين قبضت عليك هذا الصباح في بيت هـــاريسون ذاك تصرّفتِ وكأنك قمتِ بعمل تفخرين به . فلماذا لا تنطقين بشيء الآن ؟ »

وهزت لوسيان رأسها ، باذلة جهدها لكي تمسك الدموع التي كانت تندفع الى عينيها . كان في استطاعتها أن تحسّ بعيني غرايدي تراقبانها في غير رحمة. وللمرةالاولى في حياتها تمنّت لو ماتت قبل هذا .

وتمهّل ، وقد أخذ يلهث لهاثاً سريعاً :

— « والآن ، انك لن تواصلي صمتك السخيف هذا اكثر مما فعلتِ، أليس كذلك؟ إنيسوف أنتزع الحقيقة منك بالضرب اذا لم استطع انتزاعها منكبأية وسيلة أخرى. أنت تعرفين ذلك، أليس هذا صحيحاً ؟ »

فتوسلت اليه :

— « أرجوك ، يا غرايدي ! »

وسألها :

— « ماذا بك ؟ هل انت خجلة من التحدث عن ذلك ؟ هل اصبحت فجأة سيدة جليلة اكثر مما ينبغي ؟ الا تريدين ان اعرف انك تسلّلتِ للاجتماع ببراد هاريسون في ذلك الحقل الليلة البارحة ، وهناك استمتعتِ بالوصل العنيف ؟ ان وُضعاء

البيض هؤلاء يعاملون نساءهم في خشونة ، أليس كذلك؟ أنت ما كنت تعرفين ذلك عنهم ، أليس هذا صحيحاً ؟ إنك لم تكوني تعلمين انه سوف يمرّغك في التراب ويصرعك بضع مرات اولاً ، أليس كذلك ؟ لا ريب في انك قد دُهشت دهشاً عظيماً عندما اكتشفت كيف يعامل الأبيض الوضيعُ المرأة . أم تظنين ان من واجبي ان اخاطبك كما يخاطب المرء سيدةً فاضلة ؟ »

فصاحت خائرة القوى :

— « اوه ، غرايدي ، ارجوك . كيف تستطيع أن تقول اشياء كهذه ؟ ارجوك ، يا غرايدي ! »

واستوى في كرسيه مُنزلاً قدمه عن الأريكة ، وراقبها وعلى وجهه انطباعة ساخرة . انها لم تره متغطرساً ووحشياً الى هذا الحد من قبل .

— « أي نوع من الحيلة تحاولين ان تختلقي الآن ؟ هل تحاولين ان توقعي في نفسي انك تعلّمت درساً ؟ هل تريدين مني ان أعتقد انك بعد ان قمت بهذا كله ندمت على فعلتك وأصبحت تعتقدين أنها لا تستأهل سماحك لأبيض وضيع بأن يضربك ؟ هل هذا ما تريدين إقناعي به ؟ اتريدين مني ان أعتقد انك لن تتسللي من البيت كرة اخرى ؟ »

— « ارجوك ان لا تقول اشياء مماثلة ، يا غرايدي ! انها غير صحيحة ! إنها ظالمة ! »

واعتصم بالصمت بضع لحظات ربما كان يراقبها مبتهجاً

بشقائها . كان يعلم أنها تتألم. وكانت الدموع تنحدر على وجهها ، وكانت حنجرتها تختنق بالتنهدات .

وقال آخر الأمر :

— « حسن جداً ، اذن ، دعينا نسمع روايتك للحادث ، اذا كان هذا ما تبكين من أجله . لعل روايتك هذه ان تكون شيئاً جديداً. أنا رجل أحب الاطّلاع دائماً على آخر الأخبار . وإنه ليسوؤني جداً ان أرى نفسي متخلّفاً عن الأحداث. والواقع انه ليس هناك ما هو أروع من ان تكون لك زوجة تتسلل في الظلام للاجتماع بخادم وضيع وترجع اليك حاملةً آخر وجهات النظر . يا للجحيم ، لعله كان من واجبي ان اربّت على ظهرك مهنئاً بدلاً من ان أوبخك ! »

فهزّت رأسها ، محاولةً أن تجعله يصدّقها :

— « هذا غير صحيح ، يا غرايدي . ليس هناك كلمة واحدة صحيحة في ما قلته . انت تعلم أني كنت دائماً وفيةً يا غرايدي ! »

وسخر ضاحكاً من آلامها ، مسنداً ظهره الى الكرسي ، مالئاً الغرفة بجَرْس ضحكته التهكمية .

وقالت في يأس :

— « غرايدي ، يجب ان تصدّقني . يجب ... يجب ...! »

— « إنك لم تخبريني شيئاً حتى الآن . فأيّ شيء تريدين مني ان اصدّقه ؟ لماذا لا تخبرينني كيف كان ذلك ؟ »

وتغيّرت لهجته فجأة . لقد استبدّ به الغيظ والغضب .

واضاف :

— « لقد أعطيتك مهلة كافية لأسماعي قصتك . فما الذي تريدين مني ان أفعل اكثر من ذلك ؟ أتريدين ان اركع على ركبتيّ واتضرع اليك ؟ »

واستوت لوسيان قاعدةً ونظرت اليه في تحدٍّ . وما هي إلا لحظة حتى أدركت انها ليست كفؤاً لغضبه ووحشيته . فشرعت يداها ترتعشان من جديد .

— « ما الذي يحدث عندما تتسلل سيدة جميلة ، تحت جنح الظلام ، وتهرب من منزلها لكي تتمرّغ في حقل الذرة مع خادم ابيض وضيع ؟ »

فقالت في حرارة :

— « ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، يا غرايدي : ليس هناك شيء مثل هذا . »

— « وتتوقعين ان أثق بكلامك ؟ »

— « نعم ، يا غرايدي . »

— « هل تعتقدين اني سوف اصدّقك ؟ »

— « انا أرجو ذلك ، يا غرايدي . إني اريد منكِ ان تصدّقني . »

— « وماذا تفعلين اذا لم اصدقك ؟ »

— « لست ادري ، يا غرايدي . »

وبدا لها لحظةً انه سوف يلين ، ولكن صمته كان خادعاً : لقد بدأ يضحك ساخراً منها كرةً اخرى ، فحجبت وجهها

بيديها وبكت منكسرة الفؤاد .
وصاح :
ـ « سوف أصدّقك من غير شك! ما الذي يمكن انتكوني قد فعلته هناك غير ذلك؟ أكنتِ ترتِّين جواربي في ضوء القمر؟ هل يبدو على وجهي أني ذلك المعتوه الذي يستطيع ان يصدق مثل هذا الكلام ؟ »
وعضّت لوسيان على شفتيها ، غير عارفة ما ينبغي ان تقوله. كانت تخاف ان تقول شيئاً خشية ان يتهمها غرايدي بالكذب عليه .
وقال غرايدي :
ـ « وذلك الوغد الذي كان واقفاً أمامك هذا الصباح ! يا للجحيم ، هو يعتقد بعد تلك الليلة انك مِلكٌ له . »
فاحتجت قائلة :
ـ « لا ، يا غرايدي ! »
ـ « كان يجب عليّ ان أقتله عندما سنحت لي الفرصة. لقد أخطأت بعدم قتله في الحال . ولكنه لن يفلت من يدي . سوف أؤدبه قبل ان ينتهي الامر . »
وقالت محاولةً ان تناشده :
ـ « يجب ان لا تفعل ذلك ، يا غرايدي . هذا شيء رهيب حقاً . انهم سوف يعتقلونك ويحاكمونك بتهمة القتل . »
ـ « ماذا تنتظرين مني ان أفعل ؟ أتريدين ان أطوف في المزرعة ضاحكاً مثل معتوه لعين بينما يسخر هو مني كما يسخر

المرء من القرد ؟ يا للجحيم ! إني رجل ذو كبرياء . وانا لن اسمح لأحد بأن يتمرّغ مع امرأتي ، طوال الليل ، في حقل الحنطة ثم يمضي من غير عقاب . قد يكون في العالم بعض المعتوهين الذين يسمحون لك بأن تتضرعي من أجله ، ولكني لست واحداً من هؤلاء . سوف أنتقم منه ، ولن يتأخر ذلك كثيراً . »

ورُوّعت لوسيان بوعيده . كانت تعلم انه لن يتردد في قتل برا داو أي امرىء آخر ، حين يكون غاضباً .

وقالت في جزع وهي تنحني الى أمام وتحدّق الى عينيه :

— « غرايدي ، انا لا أعرف جميع الأشياء الرهيبة التي تفكر فيها . ولكن ما اتهمتني به غير صحيح — غير صحيح جملةً وتفصيلاً ! يجب ان تصدقني ، يا غرايدي ! »

— « وإذن فلماذا أبديت كل هذا الخوف عليه عندما قلتُ اني سوف أنتقم منه ؟ لماذا لا تُلقين اللوم عليه ؟ »

فسارعت الى القول :

— « لانه لم تكن له اية صلة بذلك . بل إنني لم أره إلا بعد ان وجدني في الحقل وحملني الى البيت . ان شيئاً آخر لم يحدث — ذلك كان كل شيء . في استطاعتـــه ان يخبرك بذلك ايضاً ، يا غرايدي . »

— « الى الجحيم به ! » .

— « اذن ، فيجب ان تصدقني ، يا غرايدي . »

— « لماذا يتعيّن عليّ أن اصدقك ؟ »

— « إنك لم تشكّ في صحة كلامي قط من قبل . »

وضحك من حماستها وقال :

— « قبل الليلة البارحة ! أليس من الطريف ان أهضم قصة مثل هذه ! اني اذا صدقتها فعندئذ أصدّق كل شيء . »

— « لو انك تستمع اليّ ، يا غرايدي، اذن لصدقتني. انت تعرف اني لن أحاول ان اقول شيئاً غير الحقيقة . »

وأسند ظهره الى الكرسي وحدّق اليها في لامبالاة طارئة . وأشعل سيجارة اخرى ، وقذف بعود الثقاب الى البساط .

وقال :

— « ليس عندي وقت أضيعه . هيا واروي عليّ قصتك بالطريقة التي تريدين مني ان أسمعها . »

وسُمعت سلسلة خفقات وجَلة على الباب . وساء غرايدي أن يُقاطَع . فنهض وفتح الباب في عنف . كان بيكوم واقفاً عند الجانب الآخر من العتبة ، منكّس الرأس ، محاولاً ان ينكمش ليبدو أصغر ما يمكنه ان يبدو . وفي بطء دار بياض عينيه كبيراً ملتمعاً عندما رفع رأسه ونظر الى غرايدي واقفاً فوق رأسه . وعندما رأى الانطباعة الصارمة على وجه غرايدي ارتد خطوة الى الرواق . لقد تحركت شفتا الغلام ، ولكنه لم يُطلق صوتاً .

وصاح غرايدي في حنق :

— « اغرب من هنا ، يا بيكوم ! انني أتعثّر بك كيفما سرتُ ! » .

وارتدّ بيكوم ، مرتعداً ، بضع خطوات الى الوراء حتى

أمسى بعيداً عن متناول غرايدي ، وأغرق رأسه بين منكبيه عندما رفع غرايدي يده متوعداً .

وغمغم :

— « نعم يا سيدي مستر غرايدي . نعم يا سيـــدي مستر غرايدي . لقد سمعتُ ما قلتَهُ . »

بيد أنه لم يبرح المكان .

وقال له غرايدي :

— «ماذا تعني بأزعاجك لي على هذا الشكل ؟ أنا لم استدعك.»

فقال في جزع :

— « أنا لا أقصـــد الى ازعاجك ، يا مستر غرايدي . ولا أحاول مثل ذلك ابداً . »

— « واذاً ، فماذا تعني بقرعك هذا الباب ؟ ألا تدري انك قد تقتلع هذا الباب من مفصلاته اذا استمررت على ذلك . »

— « نعم ، يا سيدي ، انا أدري ذلك ولم اكن أفعله لأني اريد ازعاجك . انما فعلت ذلك لأني انا وبريسكو كنا ننظف الفناء الامامي تنظيفاً حسناً كما نودّ دائماً ان نفعل كلما فرغنا من أعمالنا الاخرى ، وهو ما أمرتنا بفعله عندما لا نكون مشغولين بكناسة الفناء ... »

— « أهذا كل ما جئت الى هنا لأزعاجي به ؟» قال غرايدي ذلك وخطا الى أمام وضرب رأس الغلام بيده . فما كان من بيكوم ، وكان متعوّداً التملّص بسرعة ، إلا ان خفض ذقنه الى صدره وحرّك رأسه بمهارة الى جانب . واضاف غرايدي :

– « لو لم اكن مشغولاً لاطفأت عينيك يا بيكوم ! »

فغمغم بيكوم :

– « نعم يا سيدي مســتر غرايدي ، ولكن اذا سمحت لي بأن اخبرك ... »

فقال وقد فرغ صبره :

– « إخرس وارجع الى الفناء وابدأ في الكنس . »

وصفع الباب خلفه وارتد الى كرسيه .

وقال للوسيان في تبرّم :

– « والآن ؟.. »

١٣

عندما نظرت لوسيان، ذلك اليوم، الى غرايدي، وليس في فؤادها ايّ حب له لأول مرة ، تساءلت لماذا تزوّجت منــه . كان في استطاعتها الآن ان تنظر الى الوراء، الى حياتها المشتركة ، فترى في وضوح انه ما كان يعرف معنى للحنان واللطف ، وانه سوف يبقى كما كان ، متغطرساً ، وحشياً أنانياً . إنها لن تطمع ان تحتل مكاناً ما في فؤاده .

كانت قد أحبته ذات يوم ، وأحبّتْهُ حباً جماً . ولكنها لم تعد تعتقد انها سوف تستشعر بعد اليوم مثل هذه العاطفة نحوه . وطوال فترة أليمة غير قصيرة ارتعد جسدها عندما ادركت انها كانت تنتظر بآمال خادعة ، طوال تلك الاشهر الماضية ، أن

يبدي غرايدي بعض الحب لها ، وانه كان من المتعذر عليه ان يعبّر عن شيء غير موجود . وقالت لنفسها إنه لو كـــان يحبها اذن لكان عاجزاً عن اخفاء ذلك عليها . وفيما كانت جالسةامامه في تلك اللحظة ، وقد تصلّب جسدها كله بالكراهية ، اقتنعت بان الدافع الوحيد الذي حمله على الزواج منها هو حاجته الى ان يجد في البيت شخصاً يحل محل ماما ايلزي ، عندما تقضي هذه نحبها ، لكي يرضي طبيعته الانانية . لقد كان غير قادر على ان يحب ايما امريء غير نفسه ، ولقد أدركت لوسيـــان انها هي وحدها الملومة على عدم فهمها ذلك حتى تلك اللحظة .

كـــان غرايدي يراقبها في فروغ صبر ، وكانت عينـــاه الصغيرتان الوحشيتان تحدّقان اليها من خـــلال أجفانه نصف المغمضة . وتساءلت ما الذي سيقوله لو عرف الافكار التي تعصف بعقلها . كان في ميسورها ان تخبره بكل شيء ، ولكنها ما كانت راغبة في إيذائه على غير طائل . كان لا يزال زوجها وكانت لا تزال زوجته ، وقد عرفتْ انها لا تستطيع ان تقسو عليه وتعانده. كان الذي تحتاج اليه ، اكثر ما تحتاج ، هو ان توفق الى الهرب منـــه .

وكان صبرها هي ايضاً قد فرغ ، فأرادت ان تضع حـــداً لذلك كله بأسرع ما تستطيع . وأشعل غرايدي سيجارة اخرى بيدين عصبيتين . ودفعت لوسيان رأسها الى الوراء ، وردّت شعرها عن وجهها .

وسألها كالح الوجه ، اجشّ الصوت :

ــ « لماذا فعلتِ ذلك الليلة البارحة ؟ »

فأجابت في صوت مرتفع :

ــ « كل ما في الأمر اني لم أطق صبراً ، يا غرايدي . لم احتمل ذلك ليس غير . عندما رأيتك ... »

وبالرغم من عزمها على أن تكون صريحة الى أبعد حدّ فقد شعرت فجأة بالضعف والعجز عندما تذكرت ما رأته في مجتمع الاكواخ . وحتى على الرغم من انها كانت قد عقدت النية على مفارقته فأن ذكرى رؤيتها سالي جون وغرايدي معاً تحدّتها ، فهي تعزم على النضال من أجل انتزاعه من تلك الفتاة . إنها ما كانت تريده ، ولكنها ما كانت تريد ان ترى سالي جون تملك فؤاده . وراقبها غرايدي في فضول ، متسائلاً ما الذي سوف تقوله .

ــ « ايّ فائدة ترجى من تصريحي لك بذلك ؟ انتَ تعرف ما اعني . »

ــ « ومن اين لي ان أعرف ؟ هيّا ، تابعي . لقد جاءدورك في الكلام . »

كانت قد حُذّرتْ من هذا المصير . ولو انها أصغت لنصيحة أبويها اذن لما كانت جالسةً الآن هناك ، وسط دنياها المحطمة وقد اخذ دماغها ينبض في ألم ، لأنهما كانا قد حاولا ثنيها منذ البدء عن الزواج من غرايدي . كانا عالمَين بسمعة آل دانبار ، شأن كل امريء في ذلك الجزء من البلاد ، وحاولا أن يقنعاها بأنها لن تنعم بالسعادة مع غرايدي ، بأن نبهاها الى ان اسرة

دانبار قد تخلّفت عن عصرها عشرات من السنين ، وان غرايدي يمثّل خصائص انحطاط اسرة دانبار كلها تقريباً . وكانت في المنطقة اسرٌ عديدة مشابهة ، فآل دانبار لم يكونوا ظاهرةً فريدة. وجميع تلك الاسر كانت تحيا في درجات من الفقر متفاوتة ، وقد نضبت حيويتهـــا ، وكانت لحسن الحظ عاجزة – على العموم – عن إنجاب جيل جديد من ذرّيتها . بيـــد ان بعض الرجال كانوا كثيراً ما يجدون إثارة جنسيـــة ملتوية في الاتصال بالزنجيات ، وهكذا كانوا يزيدون عـــددَ الخلاسيين وأرباع الزنوج في البلاد .

كانت كثرة الأسر القديمة لا تزال تتعلق ، في عناد ، ببيوتها الاقطاعية المهترئة المتهدمة ، وتتشبّث بطريقة في الحياة مهجورة على حساب الزنوج وغير المثقفين من البيض الذين أبقَوا في شبه عبودية بوسائل التهديد والارهاب . وعلى كرّ الايام ذبلت تلك الأسر مثل شجرة مضمحلّة ، ولكن العنف كان كثيراً ما ينفجر – وكأنما فرغ صبر الطبيعة بهذا التباطؤ – فيقضي عـــلى البقية الباقية من أعضاء تلك الأسر بين ليلة وضحاها ، وكان ذلك هو السبب الرئيسي الذي من اجله تعوّد غرايدي أن يحمل مسدساً . لقد قُتل ابوه برصاص عاهرة في التاسعة عشرة من عمرها كان قد عاد بها من سافانا ، وصُرع جده إثر مجادلة دارت بينـــه وبين ربان مَركب نهري على ملكية برميـــل كبير من براميل الويسكي . وقُتل عم غرايدي الوحيد ، دانكان دانبار ، برصاص سائق سيارة فاجأه دانكان في غرفة زوجته في فنـــادق آتلانتا

الفخمة خلال موسم الاوبرا . وطوال فترة مديدة عاش غرايدي في خوف مقيم ، وكان يرجو – من طريق مسدس يحمله – ان يُطيل حياته .

وأغمضت لوسيان عينيها لحظةً ، محاولةً أن تخفّف الألم الذي يعصف برأسها . حتى اذا فتحتها بدت الغرفة وكأنها تدور من حولها .

وقالت :

– « لقد ذهبت الى ذلك الحي في الليلة الماضية ، يا غرايدي ، ورأيتك و... وتلك الفتاة . لقد كان ذلك فوق ما أحتمل . انا لم اصدّق انك تقدم على مثل هذا العمل – واني لا ازال الى الآن عاجزة عن ان أفهم كيف استطعْتَ ذلك . »

وكفّت عن الكلام ، وأخذت نَفَساً عميقاً . كانت الغرفة قد كفّت عن الدوران حولها ، ولكن كل شيء فيها بدا منحرفاً معوّجاً . ثم اردفت :

– « كان عليّ ان أهرب – ان اهرب الى أيّ مكان . انا ما كنت عارفة الى اين تقودني قدماي ، وما كنت لأبالي بذلك . كل ما أردته هو أن اذهب الى ابعد نقطة استطيع الوصول اليها ، ولم تكن لديّ فكرة عن المكان الذي سأنتهي اليه عندما غادرت حيّ الزنوج . كنت أركض ليس غير . »

وتوقفت عن الـــكلام كرة اخرى . كان غرايدي مسنداً ظهره الى كرسيه ، وكان يراقبها في عبوس . لقد أمسى في استطاعتها ان تنظر اليه الآن في وجهه من غير أن توجس خيفة ،

وأضافت قائلة :

– « هذا هو السبب الذي جعلني أفرّ ، الليلة البارحة ، يا غرايدي . لقــد كنت مكرهةً على ذلك . ولقد وجدني آل هاريسون في الحقل ، قرب بيتهم . هذا كل ما هنالك . »

واستوى غرايدي ، متوانياً ، في جلسته وانحنى الى الأمام حتّى غدا مرفقاه مستندين الى ركبتيه. كان وجهه مشبعاً بالدم. وقال لها في صوت هـــادىء وقد ضاقت عيناه حتّى كادتا تغتمضان :

– « ماذا تعنين ؟ أنتِ رأيتني في حيّ الزنوج ؟ »

فحرّكت رأسها في تــؤدة ، ونظرت اليه نظرةً هادئة . كان في ميسورها ان تحسّ بأنفاسها تجري سريعة بين شفتيها المنفرجتين . ولم تعد تستشعر ايما ألم في رأسها تقريباً .

– « لقد رأيتك مع سالي جون . »

وران العبوس على وجهه، وكان في استطاعتها ان تراه وهو يكوّن كلمةً على شفتيه .

– « أين ؟ »

– « في ذلك الكوخ . »

– « واذن ، فأنت تتجسّسين عليّ ، هه ؟ »

وأطلق ضحكة قصيرة ، ولكن أسارير وجه لم تتبدّل .

– « لا ، يا غرايدي . انا لم اكن اتجسّس . »

– « وماذا تسمّين ذلك اذن ؟»

– « كنت أبحث عنك ، يا غرايدي . »

ـ « لماذا ؟ »

إنها لم تعد قادرة ، بعدُ ، على النظر اليه في وجهه. فخفضت بصرها وحاولت ان تنظر الى يديها .

ـ « لقد أحسست بوحشة الانفراد فأردتَ ان اراك. »

كانت العبرات قد اندفعت الى عينيها بالرغم من تصميمها على عدم البكاء في وقت كهذا . وتعالت الزفرات في صدرها فهي عاجزة عن كبح جماحها .

وقال من غير انفعال :

ـ « هو ذا ما ندعوه نوع المرأة الجديد بالرجل ان يقتنيها. من أيّ عهدٍ تخرجين من البيت وتتجسّسين عليّ هكذا ؟ »

ـ « كانت هذه اول مرة اذهب فيها الى اكواخ الزنوج ، اذا كان هذا ما تعني يا غرايدي . »

ـ « ما الذي حملكِ على ان تفعلي ذلك ؟ »

ـ « أنت تعرف لماذا فعلتُ ذلك، يا غرايدي . انت تعرف كما اعرف لماذا ذهبتُ الى هناك . »

وكان عليها ان تتمهل بضع لحظات قبل ان تواصل كلامها. كان غرايدي يراقبها في برود .

واردفت :

ـ « ما كنت أعتقد أني سوف اجدك ... على ذلك الوضع. وحين رأيتك انتو... وتلك الفتاة معاً في ذلك الكوخ لم استطع ان احتمل . انا لم احلم بأن اراك مع فتاة زنجية على مثل هـــذا الودّ الصميميّ . كان ذلك اشبه بكابوس رهيب. لقد كان شيئاً

فظيعاً . »

واجهشت للبكاء .

كان غرايدي معتصماً الصمت منــذ فترة غير قصيرة . وراقبها تبكي في لامبالاة بلهاء والانطباعة التي على وجهه عنيدة لا تعرف التغيّر . لقــد انتظرت منه ان يقول شيئاً يقطع ذلك التوتر ، ولكنه تعمّد ان يبقى هادئاً وكأن العذاب كان هو العقاب الذي يريد إنزاله بها . وانقضت دقيقة إثر دقيقة وهي تترقب ، متوترة الأعصاب ، ان ينطق بكلمة .

وقال ، اخيراً ، ضاحكاً في لامبالاة عارضة :

— « يا للجحيم ! أمن اجل هذا قمت بهذه الضجة كلهـــا ؟ هذا شيء لا يستحق كل هذا القلق . »

فصاحت ، محرّكة رأسها من جانب الى جانب وعلى وجهها أمارات عدم التصديق :

— « غرايدي ، كيف تستطيع ان تقول ذلك ؟ هل تدرك ما تقول ؟ انت لا يمكن أن تعني شيئاً مثل ذلك . »

وضحك ساخراً منها كرةً أخرى .

— « ولكن ما علاقة هذه المسألة الصغيرة بذلك كله ؟ إنّ علتك يا لوسيان هي انك حساسة اكثر مما ينبغي حول هـــذه الأشياء . انتِ لستِ ملاكاً فرّ من السماء . إنك تعرفين حقائق الحياة . إن كثيراً من الرجال البيض في هـــذه البلاد يعاشرون الفتيات الزنجيات ، وهو أمرٌ يحدث كل يوم . ان كل امرىء يعرف ذلك ، وأنتِ نفسك تعرفينـــه . إنه عمل لا ينطوي على اذى

حقيقي . إنه مجرد عادة ، شأنه شأن اشياء كثيرة في هذه الديار والاحتفاظ بكلاب القنص حول المنزل واحدٌ من تلك الاشياء أيضاً . ولم يسبق لأحد ان احتج على هـــذه الامور حتى جئتِ أنتِ اليوم تقومين بهذه الضجة كلها . يظهر يا لوسيان انه لا تزال ثمة اشياء كثيرة يتعيّن عليك ان تتعلّميها . »

فقالت له في عزم :

— « لا ، يا غرايدي . أنت مخطىء في ذلك . أنا لا يمكن أن أحمل نفسي على الشعور بطريقـــة مختلفة ، هذا شيء يتعيّن عليك أنت ان تتعلمه . »

وضحك ضحكاً خافتاً وردّ ظهره الى الوراء ليستوي في كرسيه . كان مظهره صبيانياً وكانت ابتسامته مهدِّئة الى درجة جعلتها تُكرهُ نفسها على عدم النظر اليه .

— « لقد حسبتُ أنكِ اذكى من ان تحاولي اثارة المشاكل حول مسألة مثل هذه ، يا لوسيان . حسْبكِ ان تنظري الى ما فعلتِ ! لقد أقمتِ القيامة من أجل لا شيء . ولا ريب أنكِ سوف تندمين على تصرّفكِ هـــذا في يوم من الأيام . اذا أقلعتِ عن التفكير في المسألة على هذا الشكل وأخذتِ تنظرين اليها كما انظر انا اليها ..... »

فقالت هازّة رأسها :

— « لا ، يا غرايدي . »

فقال في نكد :

— « حسناً ، ولنفرض أني كنتُ هنـــاك . فأيّ شيء في

ذلك ؟ »

فأجابته في قلق :

ـ « ولماذا ذهبت الى هناك ، يا غرايدي ؟ كيف استطعت ان تفعل شيئاً كهذا ؟ »

ـ « إن ما لا تعرفينه لا يُنزل بكِ أيّ اذى . فلو انكِ لم تتجسسي عليّ في ذلك المكان الذي لا شأن لكِ به اذن لما عرفتِ شيئاً من هذا كله . ان ذلك شيء ينبغي ان تلومي نفسكِ عليه ، يا لوسيان . »

فقالت :

ـ « هـــذا لا يبرّر ما فعلتَهُ يا غرايدي . انا لا يمكن ان اعيش معك حين أعلم انك تعاشر فتاة زنجية ... »

وقال لها وصوته يرتفع بالغضب :

ـ « يا للجحيم ! أنا لا احتاج الى تبرير لما فعلتُهُ . إني لن أسمح لأحد بأن يقول لي ما الذي استطيع ان أفعله وما الذي لا أستطيع ان افعله . انا أحيا حياتي كما اريد ان أعيشها . هـــذا شيء يجب أن تذكريه . انا افعل ما أشاء ، ولسوف يعجبكِ هذا ! »

وتنهدت لوسيان وخفضت رأسها . لقد استشعرتْ ان لهجة غرايدي المتغطرسة قد سحقتها سحقاً .

وسمعته يقول :

ـ « حسناً ، أعتقـــد انه مجرد شيء يجب ان تتعوّديه ، يا لوسيان . »

ورفعت بصرها فوجدته يبتسم لها . وكان ذلك كل ما تحتاج اليه للاقلاع عن كبت مشاعرهـــا ولألقاء نفسها بين ذراعيه . كان ذلك كل ما تريده . لقد استشعرت أن كل ما عدا هذا لم تعد له أهمية في تلك اللحظة . لقد كان احتضانه وتقبيله اياها ولمسها بيديه ـ لقد كان ذلك كله خليقاً بأن يضع حداً لهـــذه الكلمات القاسية جميعاً . فتقدمت نحوه محاذية جانب الأريكة ، وقد ساقتها اليه رغبة عارمة في ان يلاطف جسدها العاري كما لاطف جسد سالي جون . لم تعد ترى بأساً في ذلك الذي عملَه اذا ما ضمّها الآن الى صدره. وانحنت نحوه والأمل يغمر فؤادها ووضعت يدها على ركبتيه .

وقال لها في صوت رقيق :

ـ « في استطاعتك ان تفعلي ذلك ، أليس هذا صحيحاً يا لوسيان ؟ »

فقالت حابسةً انفاسها :

ـ « استطيع ان أفعل ماذا ؟ »

ـ « تستطيعين ان تفعلي ما كنا نتكلم عنه ، أن تألفي الامور على الطريقة التي تجري هنا في هذه الديار . »

ونظرت اليه ، ولكنها لم تعد تراه . لقد رأت سالي جون ، ضاحكة عارية ، واقفة امامها وقفة ساخرة . ووضعت يديها على وجهها ، عاصرةً عينيها باصابعها في جهد عصبيّ لتمحو تلك الرؤيا من ذهنها ، ولكنها ظلت حيةً لا تُنسى .

وأجابت وقد سحقها الانفعال :

– « لا . »

فقال غرايدي مبتسماً لها ابتسامة مشجعة :

– « بل انك تستطيعين ، من غير شك ، يا لوسيان . إن ذلك لن يسوءك في المدى الطويل . ان ابي هو الذي اصطحبني الى أكواخ الزنوج اول مرة . إنه لم يعتقد ان في ذلك اي ضرر ، وكانت له دائماً فتاتان زنجيتان او ثلاث فتيات زنجيات هناك . لقد نشّأني على هذه الشاكلة ، وعادةٌ كهذه لا يمكن تغييرها بين عشية وضحاها . إنها سوف تذوي تدريجياً . وفي استطاعة كل امرىء أن يقول لك ان الفتاة الخلاسية الوسيمة تتمتع بشيء لا يستطيع الرجل الابيض مقاومته ، وما إن يتعود المرء تلك العادة حتى ترسخ في دمه. هذا هو السبب الذي من أجله لم أقْرَبْكِ قط . فبعد ان يحيا المرء عشر سنوات مع الفتيات الزنجيات يتعذر عليه ان ينتقل الى فتاة بيضاء . يجب ان تذوي تلك العادة اولاً . وليس عليك إلا ان تنتظري لتتأكدي من ان الأمر سينتهي الى ما قلتُه لك . والآن وقد عرفتِ المسألة لم تعد تبدو جدّ رهيبة في عينيك كما كانت من قبل ، أليس كذلك ؟ »

فهزت رأسها في غم وقالت :

– « انا لن استطيع احتمال ذلك ابداً ، يا غرايدي . إن في استطاعتك ان تتحدث على هذا الشكل طوال هذا النهار ، ولكني لا أستطيع ان اغيّر مشاعري . »

– « اعيدي التفكير في ذلك فترةً قصيرة ، يا لوسيان . ولن تنقضي ايام معدودات حتى توافقيني على رأيي . »

— « لا شيء يمكن ان يغيّر ذلك . »

فقال هازاً رأسه في ثقة :

— « سوف نرى . انت لا تزالين صغيره السنّ . ولسوف تتعلّمين . »

ونهض ومشى في بطء الى الأريكة . كانت خائفة ان يمسّها ، فانحنت الى وراء لكي تكون بعيدة عن متناوله . كان في استطاعتها أن تحس بركبتيه تضغطان على رجليها ، وبعد لحظة كان قد ركع الى جانبها يحاول ان يبلغ يديها . لقد عرفتْ انه اذا طوّقها فسوف تستسلم من غير ما تردد البتة .

وسألها في دهش :

— « ما بلكِ ؟ »

— « لا يا غرايدي ، لا تلمسني . »

— « لِمَ لا ؟ »

— « لأنك كنت منذ ساعات بين ذراعي تلك الفتاة الزنجية . »

— « انت تتكلمين مثل اولئك الحلاسين البلهاء . »

— « إن لونها لا علاقة له بالمسألة . لقد كان جديراً بي ان استشعر الشعور نفسه لو كانت فتاةً بيضاء . »

وقال :

— « انت تحاولين الظهور بمظهر المرأة التي يعسر الوصول اليها . انا أعرف حيلكِ . »

وهزّت رأسها وابتعدت عنه .

وقالت في عزم :

– « لا فائدة من الاسترسال في هذا الحديث ، يا غرايدي. انا لن اغفر لنفسي ابداً اذا ما سمحتُ لمشاعري بأن تتغيّر الآن.»

– « هل تعنين ما تقولين ؟ »

– « اجل ، انا أعني ما أقول . »

فسارع الى القول :

– « انتِ زوجتي ولسوف تفعلين ما أقوله لك على وجه الضبط . أدخِلي هذا في رأسك سواء احببته أم لا ، لأن الاشياء هكذا سوف تجري . لقد سئمت حديثك الوقح هذا . »

وهزت رأسها ولكنها لم تقل شيئاً .

وصاح :

– « أصغي اليّ . اريد أن تبتعدي عن اسرة هاريسون الوضيعة هذه . واذا كنت لا تعرفين ما الذي سيحدث اذا رأيتك يوماً مع برّاد هاريسون كرة اخرى فسوف تكتشفين ذلك . يجب ان تبقي في هذا المنزل . انا لا اريد ان أسمع انك غادرتِه مرة اخرى من غير أن تطلبي مني اذناً. واذا حاولتِ ذلك فسوف اعلّمك أن لا تنسَي الدرس مرة ثانية . أفهمتِ ؟ »

فقالت في تصميم :

– « انا لا اريد ان أبقى هنا، يا غرايدي . أريد ان أرحل.»

فاجتاز الغرفة وامسك بذراعيها وراح يهزها في غضب ، وقال :

– « ما هذا الذي تقولينه ؟ ماذا تعنين بذلك ؟ »

– « يجب عليّ أن ارحل ، يا غرايدي . أنا لا استطيع

البقاء . »

فقال ، وهو يرتد الى الوراء وينظر اليها من بعيد :

— « هكذا اذن ؟ »

— « نعم ، يا غرايدي . »

— « تقولين لي انك تريدين هجري ؟ أهذا ما تعنين ؟ »

— « نعم ، يا غرايدي ، اذا كان هذا ما فهمته من كلامي. »

— « عليك لعنة الـ ... »

وصفع وجهها براحة يده ، فطرحتها قـوة الصفعة على الأريكة . وانحنى فوقهـا وصفعها من جديد . واشتعل وجهها وعصف الدوار برأسها .

وصاح غرايدي :

— « مشكلتك انك لم تنالي مقداراً كافياً من هذا . كان عليّ أن ابدأ بضربك وإعادة العقل الى رأسك عندما جئت الى هنا ! اني لن أسمح لأحد بأن يكلمني هكذا من غير ان ينال عقابه . »

وأمسك بها من طوق قميصها واكرهها على الجلوس. وتمزّق القماش كاشفاً عن كتفيها . وحاولت ان تغطي نفسها ، ولكن غرايدي ضربها ضربةً ردّت يدها الى الوراء .

وقال متشنجَ الشفتين :

— « والآن ، ألا تزالين مصرّة على رأيك ؟ »

فنظرت اليه وأومأت برأسها . فصفعها على وجهها صفعة صرعتها من جديد . وامتلأت عيناها بالدمع .

وقال لها :

— « إنك لن تذهبي الى أيما مكان . انكِ سوف تبقين هنا. أما اذا حاولتِ ان تغادري البيت وتفرّي بنفسك فسوف اكتشف مكانك واعيدكِ الى هنا . واذا كنت تعتقدين ان صفعاتي كانت قاسية اليوم ، فليس عليكِ إلا ان تجرّبي الفرار وتري اي نوع من الصفعات سوف تنالين اذا ما قبضتُ عليك . لقد سمعت ما فيه الكفاية من هذا الحديث الوقح ، ولست أريد ان أسمع منك شيئاً إضافياً . انتِ تتكلمين وكأنك لم تتزوجيني قط . والآن ، إخرسي قبل ان أجَنّ . »

فقالت له :

— « ان هذا لن يعوقني . والتهديدات لن تحملني على تغيير رأيي ، انك لا تملك حق اكراهي على البقاء هنا . انك تستطيع ان تضربني ليل نهار ومع ذلك فأني لن اغيّر رأيي . »

وقُرع الباب في رفق ، كرةً اخرى . وتجاهل غرايدي ذلك باديء الأمر ، حتى اذا تكرّر القرع عدة مرات ، استدار وواجه الباب .

وصاح :

— « مَن هنا ؟ »

ولم يكن ثمة جواب . ولكن القرع استؤنف من جديد . واجتاز غرايدي الغرفة في خطى واسعة وفتح الباب ، فاذا به يجد بيكوم كرة اخرى . كان الغلام مروّعاً مرتعداً . وحين رأى غرايدي يحدّق اليه تراجع في وجل الى منتصف الرواق .

وقال غرايدي :

– « ألم اقل لك ان تغرب من هنا ؟ ألم تسمع مـــا قلتُهُ يا بيكوم ؟ »

واصطكت اسنان بيكوم من الخوف واومأ برأسه في حركة عصبية :

– « نعم ، يا سيدي غرايدي ، ولكن .. »

– « أتحاول ان تزعجني لأنك تعرف اني مشغول ؟ أهذا هو قصدك الشيطاني ؟ »

– « لا يا سيدي مستر غرايدي ، ولكن ... »

– « واذن فلماذا لا تبقى بعيـــداً عن هذا المكان وتتركني وحدي ؟ »

– « انا سوف افعل ذلك من غير شك يا مستر غرايدي ، ولكني ارغب من غير شك ايضاً ان تسمح لي بأن أقول لك لماذا جئتُ الى هنا اولاً . »

وبلع بيكوم ريقه في عُسر . وكفّت اسنانه عن الصرير ، ولكن ركبتيه بدأتا تصطكان .

– « كنت انا وبريسكو هناك في الفنـــاء الأمامي نكنسه وننظفه كما نود دائماً ان نفعل كلما وجدنا أنفسنا غير منهمكين بالقيام بجميع الاعمال الصغيرة الأخرى كما اخبرتنا .. »

فصاح غرايدي وقد فرغ صبره :

– « لقد سمعت ذلك في المرة الماضية . ماذا تعني بالمجيء الى هنا وبأعادة الشيء نفسه مرة ثانية ! »

– «ليس عندي غير شيء واحد أقوله لك، يامستر غرايدي»

وهذا كل ما اريد أن اقوله يا سيدي : انا وبريسكو ... »

— « قل ... قل ..! »

— « انا وبريسكو كنا هناك في الفناء الأمامي نكنسه وننظفه كما نود دائماً ان نفعل ..» قال ذلك ورفع بصره قليلاً فاختلس نظرةً الى وجه غرايدي ثم اضاف : « وبينما كنا نقوم بذلك جاء رجل ابيض في سيارة كبيرة وأوقفها في الدرب هناك . وناداني ونادى بريسكو طالباً منا ان نتقدم الى حيث كان قاعداً وقال لنا ان نخبرك انه يريد ان يراك ، يا سيدي مستر غرايدي . هذا هو السبب الذي من أجله جئت الى هنا وأزعجتك كما فعلتُ في المرة الماضية ، ومنذ ذلك الحين والرجل الأبيض الواقف هناك بسيارته يجبرني على ان أرجع الى هنا واقول لك انه يريد أن يراك . انها ليست خطيئتي على الاطلاق اذا جئت الى هنـا وأزعجتك ، يا مستر غرايدي ، ولكن الرجل الأبيض يقول ... »

— « ماذا يريد ؟ »

— « انه لم يقل شيئاً عن ذلك على الاطلاق كل ما يقوله هو انه يريد أن يراك . »

— « من هو ؟ »

— « هو يقول ان اسمه سكيتر ويلهايت . »

واستبد الدهش والغضب بغرايدي ، وقال :

— « ذلك اللعين ... »

ثم كفَّ عن الكلام وخفض بصره عبر الرواق في اتجـاه السلم وكأنما كان يتوقع ان يرى سكيتر واقفاً هناك . ثم انـه

نظر الى بيكوم كرة اخرى وسأله بصوت عاوده الهدوء :

— « هل جاء منذ فترة طويلة ، يا بيكوم ؟ »

— « منذ جئت الى هنا اول مرة وحاولت ان أحدثك عنه يا مستر غرايدي . إنهـــا ليست غلطتي ، يا مستر غرايدي . انا لم أرد ان اجيء الى هنا واخبرك ، ولكنه اجبرني على ذلك . »

فقال غرايدي وهو يومىء اليه بالابتعاد :

— « حسن . اذهب من هنا الان . »

واندفع بيكوم راكضاً نحو السلم ، فيما كان غرايدي يوصد الباب في تؤدة . حتى اذا اغلقه وقف مسنداً ظهره الى البـــاب لحظة . ومن غير ان يقطع حبل صمته ، مضى مجتازاً بلوسيان ، وفتح أبواب الشرفة العريضة والقى نظرة على سيـــارة سكيتر ويلهايت الكبيرة السوداء الواقفة في الطريق المعبّدة .

وسألته لوسيان :

— « ما المسألة ، يا غرايدي ؟ »

وهز برأسه من غير ان يقول شيئاً. إنه لم يرد ان يرى سكيتر ويلهايت ، ولقد أغضبه ان يرى سيارة سكيتر أمام البيت . كان غرايدي يعرف ما الذي يريده سكيتر . ان سكيتر يريد مالاً . فقد كان من عادة سكيتر ، حتى الآن ، ان يمهله حتى يذهب الى المصرف في ماغوفين ويرهن جزءاً جديداً من الأرض ، اما هذه المرة فكان سكيتر قد ربح الفين وخمسئة دولار ، وكان قد اوضح ان هذا المبلغ أضخم من ان يمهل رجلاً من آل دانبار في دفعه . وكان غرايدي قد وعد بجمع المبلغ وإعطائه اياه في موعد

لا يتعدي ظهر ذلك اليوم . وكان قد نسي كل شيء خلال ازمة الصباح هذه ، وكان الظهر قد انقضى ، وكانت الساعة قد تجاوزت الآن الثانية بعد الظهر .

لقدانقضت سنتان وغرايدي يخسر المال في نادي سكيتر على نحو موصول ، وكان قد انتهى الى زمان عجز فيه لا عن تحمّل الخسارة فحسب بل عن جمع المبالغ التي يفي بها تلك الخسارة ايضاً. وكان سكيتر مقامراً ذكياً عرف انغرايدي سوف يصبح عاجزاً في وقت قريب عن دفع دولار واحد، فهو يريد انيفوز من غرايدي باكبر مقدار ممكن من المال في اسرع وقت ممكن. وكان سكيتر قد كسب ثروة لا بأس بها ، خلال فترة لا تزيد على السنتين إلا قليلاً ، في مقمرته القائمة في ضواحي ماغوفين. وكان غرايدي نفسه قدأنفق في ناديسكيتر هذا نحواً منخمسين الف دولار في تلك الفترة ، كما انفق عدد غير قليل من ابناء المنطقة مبالغ مماثلة . وكلما فاحت ريح فضيحة ما من فضائح القمار عنده كان سكيتر يسارع الى زيادة الجعالات التي يدفعها كل شهر مقابل الحماية . وزيادة في الاحتياط كان من دأبه ان يحمل مسدساً اوتوماتيكياً في كمّ سترته التي كلفته، هيوبنطلونها، مئتي دولار .

وغادر غرايدي باب الشرفة وارتد الىالغرفة . وأخذ يذرع الغرفة في عصبية .

وفجأة وقف امام لوسيان ونظر اليها في عجز . وقال :

— « لوسيان ، لست أدري ما الذي سأفعله . اني في ورطة

فظيعة . وإن عليّ ان أجيء ببعض المال على وجه السرعة ومن اي مكان .. »

واومأ برأسه نحو باب الشرفة ثم أضاف :

- « سكيتّر ويلهايت ينتظرني هناك في الفناء . انه يريد ان ادفع له ، ولست املك من المال شيئاً . لقـــد حاولت ان اقنعه بالانتظار بضعة ايام ، ولكنه اقبل الان لاستيفاء المبلغ . يجب ان افعل شيئاً ، يا لوسيان . ان سكيتّر لا يمكن ان يُرد خائباً . انه لا يحتمل ذلك . »

وارتمى في الكرسي ، وقد تدلّت ذراعاه فوق جنبيه .

- « هل لديكِ شيء من المال تستطيعين أن تقدميه اليّ ، يا لوسيان ؟ إن عليّ ان احصل على الفين وخمسمئة دولار بأية طريقة . ان البنك لن يقرضني بعد اليوم . »

فسارعت الى القول ، وقد أخذها الأسف عليه فجأة :

- « انت تعرف يا غرايدي اني لا أملك مالاً . انا لم املك هذا القدر من المال في يوم من ايام حياتي . »

فسألها وقد راوده شيء من الأمل :

- « ما رأيك في ارسال برقية الى أهلك في سافانا طلباً لهذا المال ؟ »

وجلس لحظةً من غير ان يقول شيئاً ، وانشأ يحدّق الى ارض الغرفة . حتى اذا نهض آخر الامر كان في ميسورهـا ان ترى مدى الغمّ الذي ران عليه . لقد ارادت ان تهرع اليه وان تقول له انها على استعداد لأن تبذل قصارى جهدها ، ولكنها كانت

تخشى الاقتراب منه . وفي صمت ، ومن غير ان ينظر اليها كرة ثانية ، غادر الغرفة واجتــاز الرواق ، في تؤدة ، الى السلّم ؛ عندئذ اوصدت لوسيان الباب وسقطت على السرير وهي تنشج.

١٤

ومن غير انذار غير هبوب ريح مفاجيء وعنيف لوى أغصان شجرات السنديان الأحمر الثقيلة وعبث بها هدرت صاعقة فوق النهر من جانب الوادي فوشحت السماء السوداء بألسنة من البرق متقدة. وهزّت العاصفة البيت الكبير حتى مادت به من آساسه، وأطّت ألواح الخشب المتهــرئة في صرير فاجع ، وتساقطت شظايا من الخشب البالي من السقف وتطايرت وكأنها قصاصات من الورق . وطوال ربع ساعة ، انهمر وابل من مطر غزير نقع البيت نقعاً أجرى في كل غرفة من غرف البيت تقريباً جدولَ ماء . وكان من دأب الخادمات الزنجيات ، كلما هطل مطر قويّ ، ان يركضن خلال البيت وينثرن في غرفه كل ما تستطيع ايديهن الوصول اليه من قدور وأحواض غسيل وآنية لالتقاط الامطار الراشحة .

وهدأت العــاصفة في سرعة كما هبّت في سرعة ، ولكن الرعد دوّى ، بعد فترة قصيرة ، في أرجاء المنطقة فشقّ خطوطاً من البرق عند الافق . وانقلبت التربة الحارة الى تربة رطبة ينبعث منها البخار ، وأشبــع الهواء الرطب بالريّا الموصولة الفائحة

من زهرات الخوخ التي سحقها المطر . ونعق زاغٌ من الزيغان نعيقاً مشؤوماً فوق شجرة برسمون في الحقل .

كانت الشمس قد غابت خلال العاصفة وكان الظلام قد خيّم عندما نهضت لوسيان ، آخر الأمر ، ومضت الى الحمّام. لقد مددت ساقيها في الحوض وتركت المياه تجري حتى بلغت ذقنها . وفيما كانت المياه تغمرها حاولت ان تبعد عن ذهنها كل تفكير في الذي كانت تعتزم فعله أو في الحال الذي ستنتهي اليه . كانت خائفـــة من غرايدي ، ولقد أبغضت البيت المشؤوم ، ولكنها كانت خجلة آنذاك من ان ترجع الى بيت امها وأبيها وأن تُعلمها أن زواجها قد اخفق اخفاقاً كاملاً . إنهما سوف يحيطانها بالعطف والحنان ، من غير شك ، ولسوف يُحجمان عن التحدث عن الماضي ، ولكن وجودها هناك سوف يذكّرها على نحو موصول بهذا الذي حدث لها . إنها اذا اتخذت بعض الاحتياطات لقادرةٌ على الهرب والابتعاد عن حياة غرايدي الى الأبد، ولكنها كرهت ان تفكّر انها ستصبح واحدةً من آلاف الفتيات اللواتي لا بيوت لهن ، واللواتي يعشن حياةً قلقة خطرة في النهار أو في الليل . وكان ثمة اختيار واحدٌ ليس غير ، وهو أن تبقى هناك بقيةَ حياتها . وفي تلك الحال يكون من الحتم عليها ان تذعن لأرادة غرايدي مثل سائر الزوجات اللواتي عرفتهن الأسرة واللواتي خضعن آخر الأمر لارادة آل دانبار .

وسمعت ضجــــة في مكانٍ ما من البيت ، فأضاءت النور وسارعت الى المنشفة تجفف بها جسدها . وحين فتحت الباب

وخرجت مسرعةً ، ذُهلت اذ وجدت ان شخصاً قد اضاء النور في حجرة نومها. بيد انها لم تدهش عندما استدارت فألفت ماما إيلزي جالسةً في الكرسي العريض تحـــدّق اليها في صمت مؤنب . لقد علمت لوسيان طوال تلك الفترة أنها لا بدّ ان تواجه امّ غرايدي عاجلاً أم آجلاً وان تتحمل سخريتها المحتومة . وكانت حتى هذه اللحظة قادرة على عدم التفكير في البلاء الذي ينتظرها .

كانت ماما ايلزي ترتدي أثوابها المتفخة الناصلة المخيطة من حرير بلون الخزامى ، وكانت تنظر إلى لوسيان من قمة رأسها الى أخمص قدميها نظرة ازدراء ، ولكن من غير أن تقول شيئاً حتى وجدت لوسيان مبذلاً * سارعت الى تغطية جسدها به . كان في استطاعتها أن ترى اصابع ماما ايلزي تدقّ على ذراعي الكرسي في فروغ صبر ، وكانت تعرف من تجاربها السابقة أن ذلك مقدمةٌ لا تخطىء لانفجار من انفجارات الغضب والسباب. واجتنبت لوسيان عيني ماما ايلزي المحدقتين اقصى ما استطاعت أن تتجنبها .

وقالت ماما ايلزي آخر الأمر :

ــ « حسناً ، ما الذي فعلته ؟ ايّ عذر تستطيعين ان تقدّميه لسلوكك هذا ؟ ما الذي اصابك ؟ ألست تعرفين الخجل ؟ »

وتلفّعت لوسيان بالمبذل تلفّعاً محكماً وجلست على الأريكة.

---

* « روب دو شامبر . »

وأنشأت ماما ايلزي، وقد أطبقت شفتيها، ترمق لوسيان بنظرة ساخرة .

ثم إنها اضافت :

ـ « لقد صُدمتُ صدمةً قوية ولكني لست مستغربة هذه النتيجة البتة . لقد كان من المفروض فيّ ان أعرف ما الذي يجب ان أتوقعه من فتاة نشأت مثلك في الطرق والشوارع . فلم يكن لك اي حقّ في الافادة من ضعف غرايدي كرُجل واستغلال جسدك لأغرائه بالزواج . ولن يفيدك قلامةَ ظُفر أن تهزي رأسك على هذه الصورة لأنك تعلمين ان هذا صحيح . ان في استطاعتي ان اكتشف اساليب المومسات حين أراهن متبرّجات أمامي . ان الاسرة لم تعرف مثل هذه الكارثة من قبل ، وإنه لعار لن نستطيع ان ننساه أبد الدهر. لقد أدركت أول ما وقعت عيناي عليك ، أنك ما أنت تماماً . لقد خدعت ولدي البريء المسكين وأغويته بالزواج منك، لأنه كان شهماً الى درجة جعلته يحجم عن ردّك الى الشوارع لتعيشي هناك مع سائر الفتيات امثالك . ولو كان فيك أثارة من احتشام لما حاولت قط ان تستغلي شهامته ومروءته. ولكن لا، إن امثالك يعشن بالخداع ! لقد كان القدر المشؤوم هو الذي ساق ولدي المسكين الى سافانا وأقحمه في طريقك . إن الشيء نفسه حدث لأبي في سافانا . فليس في تلك البالوعة الرهيبة نسوة صالحات . انهن جميعاً مومسات لا يعرفن الخجل. إرحمني يا رب ! »

ـ « هذا غير صحيح ، يا ماما ايلزي ! أنا لم افعل ايما شيء

مخجل ! »

– « لم تفعلي شيئاً مخجلاً ! إرحمني يا رب ! لا ريب في انك لا تعتقدين لحظةً انك تخدعينني ببراءتك الزائفة ! »

– « انا لا استطيع ان احول بينك وبين التفكير على الشكل الذي تريدين ، ولكنْ يجب ان تصدقيني عندمـــا اقول إني لم ارتكب أيما خطأ . »

– « لم ترتكبي أيما خطـــأ ! لقد اخبرني غرايدي بكل شيء . »

وانتظرت لوسيان، مدركةً انه ليس ثمة سبيل لتلافي غضب ماما ايلزي . كان شيئاً لا بدّ لها من احتماله .

– « حتى لو تظاهرتِ بأنك اقلعتِ عن حياتك السابقة – وهذا ما لا اعتقد به لحظةً واحدة – فأنك لم تظهري اقلّ الاحترام لي ، أو لأيّ شخص آخر ، وبخاصة لولدي. لقد كان غرايدي دائماً فتى طيباً مستقيماً ، وهو الشخص الوحيد على ظهر هذه الارض الذي لا يستحق مثل هـــذا العار والأذلال . انا لم اشعر بالأسف على الفتى المسكين ، طوال حياتي ، كما اشعر الآن . انا لا استطيع ان افكر انك فررت وذهبتِ في منتصف الليل الى حيث لا يعرف احد الا الله واجتمعتِ بهـــاريسون الحقير ذاك وارتكبتِ معه إثماً صريحاً مكشوفاً. ولكنْ أيّ عجب في ذلك؟ لقد سلكتَ وكأنك رجعتِ الى تلك المدينـــة الآ ثمة واستأنفتِ إغرائك الوقح للرجال . كيف يستطيع غرايدي أن يحتفظ باحترام فلاّحيه عندما تخونه زوجته من وراء ظهره في الليل !

ان ايما امرأة من آل دانبار لم يسبق لها ان سلكت هذا السلوك المعيب قبل اليوم خلال تاريخ اسرتنا الطويل النّبيل كله . ما الذي سوف يقوله الناس عنا الآن ؟ ما الذي سوف يقولونه عني في غيـابي ؟ يا للعار ! اني لن اقوى على رفع رأسي في حضرة للصالحين من الناس بعد اليوم . وانها لكارثة ان اصاب بكنّة لا تعدو ان تكون عاهرةً عادية من عواهر سافانا ؛ ولكن الشيء الذي لا يُحتمل هو تباهيك بسلوكك الفـاجر أمامي. إرحمني يا رب ! »

وارادت لوسيان ان تنفجر بالبكاء، ولكنها عرفت ان عليها ان تبذل غاية جهدها لاقناع ماما ايلزي بأنها لم ترتكب ايّ منكر ، وادركت ان الدموع تبدو في وقت مثل هذا وكأنها اعتراف بالجريمة .

فقالت في اضطراب :

— « انا لا اعرف ماذا قال لك غرايدي ، يا ماما ايلزي ، ولكن كل ما فعلته هو اني غادرت البيت وذهبت الى الحقل في الليلة البارحة . ان شيئاً غير ذلك لم يحدث. ارجوك ان تصدّقيني. اني اقول الحقيقة . لقد عثر عليّ آل هاريسون واخذوني الى منزلهم . كل ما في الأمر اني لم احتمل البقاء هنا أكثر مما فعلت. انا لم استطع ان ابقى . كان عليّ ان ارحل . ان غرايدي .... »

— « انا لا املك اقلّ فكرة عما تتحدثين عنه . ايتها المرأة الشابة ، ولكني والدة غرايدي ولن اسمح لك ، او لأي انسان آخر ، بأن تفكري ان في استطـاعتك اثارتي على ولدي . ان

غرايدي ولد طيب ، وانا لن احتمل ان اراه ملوماً على آثامك، فأنا ، اولاً ، لم ارغب يومـــاً في تزويج غرايدي ، ومن باب أولى لم ارغب على وجه الضبط في ان يتزوجك او يتزوج واحدة من طبقتك . اني قادرة ، شخصياً ، على العناية بغرايدي ، ولو عشتِ هنا مئة عام لما استطعت ان تحتلّي مكانتي في فؤاده . ان ايما مخلوقة تُقدم على ما اقدمتِ عليه الليلة البارحة ..... »

فقالت لوسيان في حزم :

— « ولكنها كانت غلطة غرايدي ، يا ماما ايلزي . لو أنّ غرايدي لم .... »

— « لا ! انا لن اسمع كلمة من هذا الكلام ! ألم يكفك انك فررتِ من البيت ووُجدتِ نصف عارية مع هاريسون الوضيع ذاك ، حتى جئت الآن تحاولين القول ان غرايدي هو المسؤول ؟ لا ! انا لن اصدق كلمة مفردة من هذا كله ! وفي استطاعتك ان توفري انفاسك اذا كان هذا هو ما اعتزمتِ ان تقوليه . ولو ان غرايدي أصغى اليّ لما كنتِ هنا وهذا العار يجلّلني ، لأني توسلت اليه ان لا يتزوج من أية امرأة . لقــد عرفت ان شيئاً مثل هذا سوف يحدث . فليس على سطح هذه الارض امرأة تستطيع ان تحبه كما أحبه . ان الفتى المسكين لم يعرف شيئاً غير الشقاء والتعاسة منذ جئتِ الى هنا . »

— « هل اخبرك غرايدي لمـــاذا تركت البيت ، يا ماما ايلزي ؟ »

— « ليست لديّ اية فكرة عما تتحدثين عنه ، ايتها المرأة

الشابة . »

— « ولكنْ لا بدّ انه قد اخبرك بشيء ، لأنكِ عرفتِ اني خرجت من البيت . »

— « ما دمتِ تصرين على إلقــاء مسؤولية آثامك الوقحة على ولدي وأني ارفض الاستماع الى كلمة من حديثك. انا لست مهتمة بأي شيء مما تقولين . »

وفتح الباب ، ودخلت مارتا حاملةً صينية. وبنظرة خجلى الى لوسيان مضت الى المائدة واخذت ترتب صحون العشاء . ولم يُنطق بأيما كلمة خلال وجود مارتا في الغرفة. حتّى اذا أتمت مهمتها خرجت على رؤوس اصابعها الى الرواق وأوصدت الباب في أناة . وما ان فارقت مارتا الغرفة حتّى ارادت لوسيان ان تدعوها الى العودة وان تحملها على إخبار ماما ايلزي بالذي وقع في حيّ الزنوج ، ولكنها كانت خائفة ان تقوم بأي عمل قد يثير غضب ماما ايلزي .

وقالت ماما ايلزي في قسوة :

— « حسناً ، هيا تناولي عشاءك . لعلك لم تأكلي طوال هذا النهار . »

فقالت هازة رأسها :

— « لست استطيع ان آكل شيئاً ، يا ماما ايلزي . انا لست جائعةً . »

— « لن يفيدك شيئاً ان تقعدي هكذا وتحاولي ان تجعلي من نفسك شهيــدة ، لأني لا أبالي سواء أأكلتِ أم لم تأكلي . إن

التصرف على هذه الشاكلة لن يكون له أيما أثر في نفسي . انك لن تنتزعي اي عطف مني ، ايتها المرأة الشابة . »

وانقضت عدة دقائق قبل ان يقال شيء آخر . وراقبتها ماما ايلزي في نظرة تشامخ وازدراء وكأنما تريد ان تقول إنها مقتنعة بأن لوسيان قد ارتكبت اثماً لا يُغتفر ، وان الغفران امرٌ غير وارد . وبدأت اصابع يدهـــا اليمنى تنقر على ذراع الكرسي نقراً رتيباً .

– « إرحمني يا رب ! انا لا اعرف ما الذي سيحلّ بسمعة اسرتنا الفاضلة الآن ، بعد ان مرّغتها بالوحل امرأة دخيلة . انا اعلم اني لن استطيع ان ارفع رأسي بعد هذا . وفي استطاعتي منذ الآن ان ارى ابتسامات السخرية على وجوه النـــاس ، من امثال آل هاريسون المقيمين هناك ، عندما يُذكر اسمي . إن امثال هؤلاء الناس لا هدف لهم في الحياة الا جرّ أسرة كأسرتنا الى مستواهم . ولكني أدركتُ الآن انك خدعتِه وهبطتِ به الى ذلك المستوى . »

فقالت لوسيان في يأس :

– « ماما ايلزي ، يجب ان تصغي اليّ وتصدقيني . ان هذا ما كان ليحدث لو لم اجد غرايدي .... »

– « انا لم ارَ في حياتي مخلوقة اكثر منك عنـــاداً وفساداً . الا تزالين مصرة على محاولة إلقاء اللوم على ولدي البريء المسكين ؟ »

– « لقد كان غرايدي في كوخ سالي جون الليلـــة

البارحة ! »

وذهلت المرأة العجوز ، ففغرت فاها وراحت تحدّق الى لوسيان تحديقـــاً اعمى . وبعد برهة ، رفعت يديها في بطء وأمرّت اصابعها فوق اجفانها في انشداه . لقد تلاشت سيماها المتشامخة تلاشياً كاملاً ، وتدلّى خداها الضخمان وقد فارقتهما الحياة .

وسألتها في وهن :

– « ماذا قلتِ ، يا بُنيَّتي ؟ »

فكررت لوسيان ما قالته من قبل .

وقالت ماما ايلزي :

– « تلك الزنجية التافهـــة ! تلك الجارية السوداء المنحطة المتكلفة ! إرحمني يا رب ! ان امثالها يَجْرين دائماً وراء انبل رجل ارستوقراطي أبيض يجدنه في متناولهنّ . فلست اعرف ان يوماً انقضى من غير ان تحـــاول واحدة منهن إغواء والد فرايدي. ولكن ولدي المسكين! هل انت واثقة من انك تقولين الحقيقة ؟ »

– « اجل ، يا ماما ايلزي . في استطاعتك ان تسألي مارتا . انها تعرف . وفي امكانها ان تقول لك الشيء نفسه . »

– « إرحمني يا رب ! »

وغرق جسدها الضخم في الكرسي ، وأطلقت زفرة طويلة موجعة .

وقالت في صوت خفيض بدا مُتعَباً ويائساً:

– « ولدي المسكين ، ولدي المسكين ! كان لا بد لهذا ان يحدث عاجلاً أم آجلاً ، لأنها لعنة ، يا بنيّتي . »

كان غرورها كله قد تلاشى ، وكانت الآن امرأة عجوزاً تبعث الاسى في النفس . وارتعدت شفتاها الرقيقتان وحدقت الى لوسيان في عجز ، ثم اضافت :

– «إنها لعنة آل دانبار ، يا بنيّتي . ان رجال الاسرة كانوا ولايزالون ينجذبون الى اولئك الفتيات الداكنات انجذاب الذباب الى الدبس . لقد أصيب والد غرايدي بهذا البلاء فلم يكن في ميسور التوسل والاقناع – مهما تعاظما – ان يبعداه عنهنّ . بل ان جدّ غرايدي كان اسوأ . كان يأتي بالفتيات الملونات الى قلب هذا البيت ، وكان يأتي بكل اثنتين أو ثلاث منهن دفعة واحدة ، ويوصد عليهن باب غرفته في الليل . وحين تزوجتُ والد غرايدي وجئتُ لأحيا هنا قضينا الليلة الأولى معاً في تلك الغرفة المواجهة ، وطوال الليل كان في ميسوري ان أسمع اولئك الفتيات الملونات العاريات يضحكن ويغنين في هذه الغرفة بالذات مع جد غرايدي. ولم أفهم لذلك معنى ، باديء الامر ، ولكني ما لبثت ان فهمت كل شيء . ومن العسير على المرء ان يتوقع من غرايدي ان يشذ عن هذه القاعدة . إن بعض النـاس يدمنون الخمر ، وبعضهم الأخر يدمنون الفتيات الملونات. أما رجال اسرة دانبار فيدمنون الخمر والفتيات الملونات . إرحمني يا رب . »

وارتعد جسدها ، وارتفع صدرها وانخفض ، وتحدّرت الدموع على خديها المتجعدتين . وسرعان ما استبدت بهـا نوبة

عويل كان في الامكان سماعها في ارجاء البيت كله . ولم تستطع لوسيان الا ان ترثي لهـــا . فنهضت ومضت الى ماما ايلزي ، ووضعت يدها على منكبي المرأة العجوز المرتعدين . وفي الحال رفعت ماما ايلزي نظرها الى وجه لوسيان، ثم ردّت يدها عنها في عنف وثورة مفاجئين .

وصاحت ضاربة صدرها بجمعَيْ كفيْها وكأنها تحاول ان تنتزع الألم المربر من جسدها الضخم :

ــ «انا أعرف الى اي شيء ترمـــين . إرحمني يارب ! كان عليّ انأفهم ذلك ! انها مكيدة اخرى منمكائدك! لقدحملتيني على الاعتراف لك بخطيئات غرايدي لكي تجدي عذراً يساعدك على هجره في سبيل هاريسون الوضيع ذاك . ذلك هو ! تلك هي مكيدتك ! لقد عرفتها ! انك سوف تسحقين قلب غرايدي ــ ذلك ما تهدفين اليه . سوف تضربين به عرض الحائط ، مثل اي مومس من المومسات ، بعد ان شبعتِ منه . والان ، إنك ذاهبة الى رجل أصغر سناً.ولن يكون لغرايدي المسكين احدٌ يعني به بعد وفاتي . إنه سيكون وحده في هذا العالم . انا لا أستطيع ان اتخيّل انك سوف تقفين منا هذا الموقف ، بعد ان عاملتك دائماً وكأنك ابنتي . أجل . لا استطيع ان أتخيّل ذلك ! ان مثل هذا الصنيع خليقٌ بأن يقتلني قتلاً ، انــه خليق بان يدفع بي الى سنواتي الاخيرة قبل الأوان ! إرحمني يا رب ! »

وغاصت في كرسيها أعمق فأعمق ، طارحةً ذراعيها حول رأسها ، متأوهةً في الم .

وركعت لوسيان امامها على ركبتيها ، وحاولت ان تسرّي عنها . فصدتّها ماما ايلزي ونهضت واقفة . وتأرجحت على قدميها بضع لحظات .

وقالت ماما ايلزي ضامّةً يديها الى صدرها :

– «انه قلبي . ان هذا فوق ما استطيع احتماله . سوف تكون هذه نهايتي . اني سأموت . ان شيئاً يهتف بي اني سأموت ، ارحمني يا رب ! »

ومن غير ما مساعد تقدمت مضطربة الخطى نحو البـاب . وظلت لوسيان الى جانبها حتى بلغت الرواق . وبايماءة من يدها اوعزت الى لوسيان بالابتعاد .

وقالت في صوت متوسل :

– « كل ما اسألك اياه أن تنتظري حتى يرجع غرايدي . اني اسألكِ ذلك بآخر نفَسٍ من انفاسي . ارجوكِ ان تبقي حتى يرجع . »

فسألتها لوسيان في دهش :

– « الى أين ذهب ؟ »

– «لقد ذهب بسيارته الى المدينة بُعَيْدَ ذهاب مستر ويلهايت . لعل لديه عملاً هاماً يجب ان يقوم به في ماغوفين . »

وشرعت تُعوِل من جديد .

ثم أضافت :

– « انا لا اسألكِ شيئاً غير البقاء حتى يرجع الى البيت . »

واجتازت الرواق نحو غرفتها ، متمايلةً في اضطراب . وبعد

أن غابت عن النظر أوصدت لوسيان الباب، وغرقت في الكرسي مجهَدة واهنة .

١٥

كان ثمة شخص على الشرفة . وما ان سمعت لوسيان صرير ارضية الشرفة المهترئة ، ذلك الصرير البطيء الموصــول ، حتى تصدّرت في ذعر . كان الصوت لا يشبه اياً من الأصوات التي قُدر لها ان تسمعها من قبل، و كانت واثقة من أن هذا الشخص لم يكن بيكوم أو بريسكو هذه المرة. ووثبت من مكانها، وهرعت الى باب الشرفة ففتحته .

وفي باديء الأمر لم تستطع أن ترى شيئاً في الظلام . ولكن فيما كانت واقفة هناك مروّعةً لاهثة ، تشكّلت في بطء صورة رجل يتقــدم نحوها . فما كان منها إلا ان ارتدّت راجعةً الى الغرفة .

وقال وهو يمضي نحوها :

— « لوسيان ، إنكِ تبدين رائعة ! لوسيان ... »

فقالت في خوف :

— « ماذا تفعل هنا ؟ يجب أن لا تدخل الى هنا ! »

وبحركة سريعة ، أمسك بها من ذراعها وسحبها عبر الباب الى شبه الظلمة المخيّم على الشرفة . ثم طوّقهـا بذراعيه وسحق جسدها بضغطه على صدره . لقـد كان باستطاعتها ان تستشعر

انفاسه الحادة تلفح وجهها فيما كان يبحث عن شفتيها . حتى اذا قبّلها احسّت بانها أضعف من ان تقاومه. كان مبذلها قد زلّ عن كتفيها ، وكان في ميسورها أن تستشعر يديـه الخشنتين تداعبان جسدها . وأوقع الانفعال والخوف دواراً في رأسها ، وخانتها ركبتاها فجأةً . وتلقّفها براد وحملها الى المقعـد المحاذي للحائط . وحين فتحت عينيها ، كان راكعاً الى جانبها مطوّقاً خصرها بذراعيه . حتى اذا حاولت أن ترده عنها أحكم تطويقها اكثر فأكثر .

وسألها :

— « هل انت بخير الان ؟ »

وهزت برأسها وقالت :

— « نعم . »

— « انا لم أستطع البقاء بعيداً عنكِ ، يا لوسيان . انا لم افعل شيئاً غير التفكير فيكِ طول النهار . ولقد جئت الى هنا في هذه اللحظة لكي أراكِ . »

— « ولكن ما كان ينبغي لك ان تفعـل ، يا براد . فلو أن غرايدي رآك ، او لو أنماما ايلزي رأتك هنا اذنلما صدّقا كلمة مما قلتَه . »

— « لقد قلتِ انك لا تريدين العودة الى هنـا . فلماذا يهمك رأيهما فيكِ بعد اليوم ؟ »

— « لست أدري . ولكنه يهمني . »

واقترب منها اكثر ضاغطاً وجهــه الملتهب على بشرتها .

وأخذت لوسيان في اللهاث .

وقال في صوت عصبي أجش :

— «اريدكِ ان تفرّي معي. هل انت مستعدة للذهاب معي ؟»

وحاولت أن ترده عنها قائلة :

— « لا ! انا لا استطيع ذلك ! يجب ان لا تقول اشياء مثل هذه ! »

فسألها :

— « ولم لا ؟ لقد قلتِ الليلة البارحة ... »

— « لا أدري ماذا قلته في الليلة البارحة . ولكني لا استطيع ان أعمل شيئاً كهذا . »

— « انتِ نعتقدين اني لست كفؤاً لك — أليس هـــذا هو السبب ؟ »

قال ذلك ، ونظر اليها وعلى شفتيه ابتسامة باهتة ثم اضاف :

— « أليس هذا هو السبب الحقيقي ؟ »

فسارعت الى القول ، واضعةً يدها على يده ، خائفـــةً أن تكون قد جرحته :

— « لا ، طبعاً ، يا بْراد . ليس لهذا ايّ صلة بالأمر . »

— « واذن فلماذا لا تذهبين معي ؟ »

— « انت لا تعرف شيئاً عني ، يا براد . انت لا تعرف اي نوع من المرأة انا . »

— « انا أعرف أنكِ رائعة ، واني أحبك واريدك . »

— «ولكنك لا تعرفَ عني شيئاً، أو لا تعرف اي شيء كنت

قبل أن أجيء الى هنا ، إفرضْ اني اخبرتك اني كنت ... فتاة مستهترة بعض الشيء . اني كنتُ فتاة من نوع آخر مختلف جداً قبل أن اتزوج غرايدي وأجيء الى هذا البيت . مـا الذي تقوله عندئذ ؟ »

ـ « لن اصدق ذلك . »

فضحكت في ما بينها وبين نفسها لحظةً :

ـ « ماما ايلزي لا تصدّق اني كنت صالحة ، وأنت لا تصدق اني كنت طالحة . أحسب ان الناس يعتقدون بما يريدون ان يعتقدوا به . »

ـ « لست أبالي بماضيك . ان هذا لا صلة له بما انت عليه الان . انت جميلة ورائعة ، وانا أحبك واريـد ان اتزوجك . هذا كل ما يهمني . »

وهزت رأسها وأشاحت بوجهها عنه . وخـلال الصمت الطويل الذي تلا ، عرفتْ انه كان ينظر الى وجهها ، فبـذلت قصارى جهدها لكي لا يقع نظرها على نظراته المحدّقة تحديقاً موصولاً . واخيراً نهض عن الأرض وجلس الى جانبها على المقعد العريض .

وقال في صوت خفيض :

ـ « انا أعرف السبب . ذلك لأنك تعيشين هنا ، فوق ، في البيت الكبير ، وأعيش انا هناك ، تحت ، في بيت حقير . كان عليّ ان أدرك ذلك . إنك تخافين ان تقولي لي السبب الحقيقي . وهذا ما جعلك تخترعين هذه القصة عن ماضيك . إن الفتيات لا ينشرن أشياء مثل هذه عندما يحاولن التخلص من رجل ما إلا اذا

أردن بذلك تغطية السبب الحقيقي . صحيح اني أعيش في منزل حقير. وأي بأس في ذلك. انا لست دونك شأناً أو دون اي امرىء آخر ممن يعيش هنا في البيت الكبير ، وانت تعرفين ذلك. ولو كنت أحيا في واحد من هذه البيوت العتيقة المهترئــة وأتسكع طوال الوقت من غير عمل وأستدين المال لكي أعيش اذن لتزوجت مني بمثل السرعة التي تزوجت بها من غرايدي . حسناً ، إنك لا بدّ ان تندمي في يوم من الأيام، لانك سوف تستيقظين وتكتشفين انك ارتكبت غلطة . لقد قررتُ ان أصبح شيئاً في الحياة ، وفي استطاعتي ان اقدّم اكثر مما يستطيع أيما انسان آخر ان يقدمــه اليك ، ولن يكون المال هو الشيء الوحيد على كل حال . واذا غيّرتِ رأيك في وقت قريب فأخبريني بذلك . »

وشرع في النهوض ، ولكن لوسيان اكرهته على الجلوس . كانت العبرات تملأ عينيها ، وكانت عاجزة عن حبس زفراتها في صدرها. لقد جلست ساكنةً متوترة الاعصاب ، وقد تشبثت أصابعها بيده .

وهناك في الحيّ كانت احدى الفتيات الزنجيــات تتغنى . وفوق صوت الغيتار كان صوت شجيّ واضح ينساب جهورياً مع نسائم الليل الرطب . ولكن الموسيقى التي سمعتها هذه المرة بدت مهدّئة مسرّية :

سوف أقدم اليك كل ما ترغب فيه ،
ولسوف أبقى دائماً صحنك الطائح !

وجلسا هناك فترة غير قصيرة يصغيان الى كلمات الأغنية التي

بدت وكأنها لن تنتهي . وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل منذ مدة طويلة ، وواحداً بعد واحد كانت مصابيح الاكواخ تُطفأ .

وقالت له أخيراً :

ـ « ان لك الحق في ان تفكر بما تشاء . ولكن غرايدي ..»

فقال في خشونة :

ـ « وما باله ؟ »

ـ « إن غرايدي في أزمة . انا لا أستطيع ان افكر بفراقه الآن . »

فقال في صوت يرشح بالمرارة :

ـ « هذه طريقة مضحكة في النظر الى المسألة بعد الاسلوب الذي عاملك به . إن لديك أعذاراً كثيرة لا اؤمن بأي منها . »

ـ « انا لا أزال زوجته . ولست استطيع ان افارقه حين يكون في بلاء . إنني لن أغفر ذلك لنفسي ابداً . »

فسألها في ارتياب :

ـ « أي نوع من البلاء ؟ هل فرّت سالي جون ؟ »

ووضعت لوسيان رأسها بين يديها وبكت . وراقبها بْراد في قلق ، شاعراً بارتباكه ، ومحاولاً أن يفكر بشيء يستطيع أن يقوله فيزيل الأذى الذي سبّبته كامته . لقد أدرك حالما ذكر اسم سالي جون انه كان قاسياً الى أبعد الحدود ، قليل التبصّر الى ابعد الحدود .

وقال لها :

– « انا آسف ، يا لوسيان ، ما كـــان ينبغي لي ان أقول شيئاً مثل هذا . »

واستعادت هدوءها بعد ذلك وأراحت رأسها عـــلى ظهر المقعد . ثم قالت في هدوء :

– « أرجوك ان لا تقول اي شيء مثل هذا بعد اليوم . انا لا أستطيع احتمال ذلك . »

فوعدها قائلاً :

– « انا لن أعود الى مثل هذا ، يا لوسيان . »

فقالت :

– « حسناً ، لقد انتهى كل شيء الآن . فلنقلع عن الكلام عن هذا بعد اليوم . »

– «حدثيني عن غرايدي . ما نوع البلاء الذي يعانيه الآن ؟»

– « متاعب مالية . انه مدين بألفين وخمسمئه دولار هذه المرة . هو لا يملك هذا المبلغ ، ولكنـه مضطر الى البحث عن طريقة تمكّنه من الدفع . أنا لا ادري ما الذي سوف يفعله. هذا شيء رهيب . »

– « ولمن هو مدين بهـــذا المبلغ ؟ أهو مدين به لسكيتر ويلهايت ؟ »

وهزت رأسها ، وقالت :

– « كيف عرفت ؟ »

– « هذه مسألة يسهل على المرء ان يحزرها ، ذلك هو المكان

الذي يُضيع فيه كل ماله ، أليس كذلك ؟ »

ـ « هل تعتزمين ان تساعديه ؟ »

ـ « ليس لديّ اي مال . »

ـ « واذن ، فلماذا لا يرهن قسماً جديداً من الارض ؟ »

ـ « لقد فعل ذلك في المرة الماضية؛ فعل ذلك للمرةالاخيرة وان البنك لن يقرضه اي مال اضافيّ على هذه المزرعة . »

وقال .

ـ « حسناً ، يبدو وكأن غرايدي قد انتهـى الى مأزق لا مخرج له منه هذه المرة . واذا ما تخلّص من هذه الورطة يكون اذكى بكثير من اي انسان آخر كان مديناً بالمال لسكيتر ويلهايت. فليس هناك أقسى من سكيتر حين تكون المسألة مسألة جمع ما له من ديون . »

ونهض براد . وخفض بصره نحـو لوسيان متردداً بعض الشيء ، ثم مضى في تؤدة الى السلم الذي عند أقصى الشرفـة . وراقبته لوسيان حتى كاد يغيب عن النظر قبـل أن تنهض من مكانها . ثم رأتـه يقف ويستدير في سرعة . ولم ينبس اي منهما ببنت شفة . وانقضت لحظةٌ بعد لحظة ، وفجأةً انطلق نحوها وطوّقها بذراعيه في عناق شديد متطاول. وللمرةالأولى لم تحاول أن تقاومه عندما قبّلها. وبعد ذلك استشعرت انها تُرفع وتُحمل عبر الباب الى سريرها .

١٦

كان غرايدي مغتماً – مغتماً اكثر من أيما يوم مضى من أيام حياته . لقد وصل الى المدينة ، ذلك الأصيل ، بعد ان اغلقت المصارف أبوابها ، ولكنه دخل البنك من الباب الخلفي وتحدث حديثاً مع مديره هووارد فيليبس. وقال له هووارد، في صراحة، ان البنك لن يدرس مسألة اقراضه المال لأن ممتلكات آل دانبار كانت مرهونة الى الحد الاقصى ولأنه لم يقدم للمصرف أيما ضمان آخر . حتى اذا هم غرايدي بمغادرة البنك نصحه هووارد بأن يحاول استدانة المبلغ من اصدقائه، واشار عليه ، اذا ما اخفق ذلك ، بأن يبذل جهده لاقناع سكيتر ويلهايت باعطائه مهلة جديدة. ولكن كلا الرجلين كان يعرف ، في ما بينه وبين نفسه، أن الاقتراحين متماثلان في الاستحالة .

وبعد ذلك كان غرايدي ينطلق بسيارته طوال ساعات عديدة عبر شوارع ماغوفين العريضة المزدحمة جوانبها بالاشجار ، مخترقاً بادىء الأمر الاحياء الراقية من المدينة ، ثم مخففاً سيره في تطوافه بدار البريد، وبقصر العدل، وبنصب جيفرسون دايفيس التذكاري ، محاولاً طوال ذلك الوقت ان يفكر بطريقة تمكنه من الحصول على ألفين وخمسمئة دولار قبل صباح اليوم التالي

وعند منتصف الليل كان قد شخص آخر الأمر الى حانة سكيتر ويلهايت راجياً ان يقنعه، بطريقة ما ، باعطائه مهلة جديدة. ولم يكن غرايدي قد نسي ان سكيتر كان قد أنذره، أصيل ذلك

اليوم ، بضرورة مبادرته الى دفع المال قبل ان يهبط الليل .

وكانت حانة سكيتر ، التي ماكانت تعرف بأي اسم آخر ، والتي كان روّادها يتبيّنونها من علامة « بيرة جاكس » القائمة فوق مدخلها ، نقول كانت هذه الحانة الواقعة على بعد ثلاثة أميال تماماً من دار القضاء ، مدرسةً ابتدائية قديمة . وكان سكيتر قد اشترى البناء ذا الغرف الأربع من الادارة الحكومية عندما وُحّدت مدارس المنطقة ، وطوال سنتين اثنتين استطاع ان يدير المقمرة على نحو موصول ورابح بأن كان يدفع خمسة عشر بالمئــة من الربح الاجمالي لقاء الحماية . ولم يستطع أحد ان يقول كيف كان المال يُدفع ، أو الى من كان يُدفع ، لأن ذلك كان سراً لايعرفه غير سكيتر ومحاميه القاضي لوفجوي . وعلى أية حال فقد كانت هذه الحماية سلطانية وفعالة . ولقــد حاول غيره من اصحاب المقامر ان يفعلوا الشيء ذاته . ولكنهم وجدوا أنفسهم مطرودين من المقاطعة خوفاً من رصاصة تنطلق نحوهم من مسدس «شريف» او نائب « شريف » .

وكان بناء المدرسة السابقة ، البريء المظهر ، ينهض في غابة صنوبر طويل الأثر على بُعد خمسين ياردةً من الطريق العام . وكان ملعب كرة السلة ، الذي لا يزال عمودا الهدف فيه قائمين ، يُصطنع مكاناً لتجمّع سيارات المقامرين . وكانت الغابة نفسها ، حتى في زمان المدرسة ، مكاناً يألفــه الناس في الليل ، وكان المرء يرى في العادة زوجين او ثلاثة ازواج من العشاق تحت شجرات الصنوبر بعد الظلام .

وعدة مرات خلال السنتين الماضيتين حاول رجال الدين في ماغوفين – وقد راعهم تناقُص ما تجمعه الكنيسة من اتباعها – ان يطردوا سكيتر من المقاطعة بألقاء مواعظ شديدة اللهجة ضد القمار وبيوت القمار. ولم يُذكر سكيتر باسمه قط، ولكن جميع الذين سمعوا تلك المواعـــظ الكنسية ادركوا أنه هو المقصود، وكلما ألقى احد رجال الدين عظة في القمار وشنّ حملة على حفلات السُكْر والعربدة في غابة الصنوبر وعلى النادلات الثلاث اللواتي ارتدين مآزر حريرية سوداء في حجم منديل اليد، كان روّاد حانة سكيتر يزدادون عدداً، وكانت سلة جمع التبرعات تنطوي يوم الاحد التالي على هبةٍ ضخمـــة في ظرف مختوم. وكلما اعلن احد رجال الدين عن مثل هذه العظات مقدّماً، تدفق الناس على الكنيسة –سواء أكانوا من أتباعها أم من غير أتباعها– ليسمعوا الى تفاصيل وصفه الساخر لاستهتار نادلات سكيتر غير المحتشمات، ومسلك الفتيات السكّيرات الداعر في غابة الصنوبر تحت جنح الظلام، فتكون النتيجة ان يغصّ ملعب كرة السلة القديم في حانة سكيتر بسيارات الروّاد في ليالي ايام الاحد التالية لأحدى تلك المواعظ، فلا تغادرها حتّى مطلع الفجر. وفي ما بعد شكا رجال الدين الأمر الى «الشريف»، ولكنه أحجم عن القيام بأي عمل بدعوى انه لا يستطيع التدخل في شؤون رجل من دافعي الضرائب الا اذا وقعت جريمة ما في حانته أو أدّى عمله الى الاخلال بالأمن. وبعد ذلك ذهب رجال الدين الى مفوّضي الشرطة واتهموهم بالتقصير في أداء واجبهم بتركهـــم سكيتر

يشجع حفلات الهجوع في الغابة ، حيث كان نصف دزينة من الشبان والفتيات يقضون الليل معاً فوق وسائد السيارات أو على ابر الصنوبر تحت الشجر ، ولكن هذه المحاولة لم تثمر شيئاً أيضاً .

وحين وصل غرايدي الى حانة سكيتر أوقف سيارته في ملعب كرة السلة القديم الى جانب البناء ودخل . كان ثمة عدة رجال قاعدين لدى المشرب عندما دخل الغرفة الأمامية. ودعاه بعضهم الى شرب كأس من البيرة ، ولكن غرايدي رفض ومضى الى الغرفة الخلفية . وكان ثمة خمسة رجال أو ستة رجال متحلّقين حول مائدة القمار ، وكان عـــدد آخرون جالسين الى الموائد يشربون الجعة أو الويسكي. واجتاز غرايدي بالمائدة الخضراء ، ثم عاود النظر الى الوجوه التي في الغرفة . ولم يكن سكيتر هناك. وأومأ أحد اولئك الرجال الى غرايدي . ودعاه بحركة من يده الى الجلوس . وهزّ غرايدي برأسه ، ومضى الى الزاوية حيث كان من عادته ان يجلس. وهناك كان في ميسوره ان يرى الغرفة كلها وان يرى كل داخل اليها وخارج منها. لقد عرف معظم الرجال في الغرفة . كان واحد منهم سمساراً يشتري الخشب اللبّي لاحد مصانع الورق ، وكان ثان مهندس طرق من مهندسي الدولة ، وكان ثالث مديراً لمكتب ماغوفين التـــابع لشركة الكهرباء . وبالاضافة الى هؤلاء عرف اثنين او ثلاثة من رجال دار القضاء وقد جلسوا الى المائدة الخضراء . وبين الفينة والفينة كان احد الرجال الذين في الغرنة يلتفت وينظر اليه في فضول ،

ولكن غرايدي كان يتجـاهل ذلك بالتظاهر بأنه لم يعرف احداً .

كان قد انقضى على جلوسه في الزاوية نحو من نصف ساعة عندما رفع بصره فرأى « بيغي » تبتسم له . وكانت « بيغي » هي النادلة الطويلة الداكنة الشعر وفتاة المشرب التي تحمل الى غرايدي حاجته من الويسكي كلما رغب في ذلك . كانت رشيقة القوام ، متناسقة التقاطيع ، وسيمة الطلعة . وكانت في مئزرها الاسود القصير – التي أريدَ به ان يكون مثيراً اكثر منه حاجباً – أجمل من ايةّ من النادلتين الأخريَيْن . كانت قد عملت في حانة سكيتر منذ ستة اشهر ، ولكن احـداً لم يوفق الى معرفة المكان الذي اقبلت منه . وكلما حاول احد الزبائن اقناعها بأن تحدثه عن نفسها ابتسمت وهزت رأسها . وكانت النادلتان الأخريان – وكل منهما رقيقة الشفتين ، شقراء ، ممتلئة الجسم – قد نقمتا عليها جمالها ذاك منذ البدء ، ولم تدعا فرصة تمرّ الا وأعلمتاها باستيائهما كلما َحظيَتْ من انتباه الزبائن وهباتهم المالية باكثر مما ُقدّر لهما ان تحظيا به. وكل ليلة تقريباً كان بعضهم يفد الى حانة سكيتر ليكحل طرفه برؤية « بيغي » ليس غير ولمراقبتها وهي تمشي عبر الغرفة . كانت رؤية ابتساماتها العريضة الحارّة وور كيها الرشيقين ما تلبث ان تسحر كل رجل يراها ، فكان معظمهم – من متزوجين وعزّاب – يعرضون عليها الزواج . وكانت « بيغي » ترفض دائماً ان تفكر في عروضهم جدياً ، ولكنها كانت عاجزة عن اخفاء ارتياحهـا لمثل هذه العروض

المتملّقة . واذ ضاقت الفتاتان الاخريان ذرعاً بشعبية « بيغي » فقد أخذتا تعرضان على الزبائن استعدادهما للاجتماع بهم حتى في الهزيع الأخير من الليل بعد ان تكون الحانة قد اغلقت ابوابها. ومع ذلك ، فقد ظل الرجال يتوافـدون على حانة سكيتر لأن « بيغي » هناك .

وكان قد نشب ، منذ عدة اسابيع ، خلاف بين غرايدي وسكيتر ، وانما حدث ذلك عندما وقع نظر سكيتر على غرايدي وهو يعطي « بيغي » عشرة دولارات . وكانت الفتيات الثلاث يقبلن « البقشيش » ، ولم يكن من المألوف ان يقدم رجل الى احداهن دولاراً او دولارين ، ولكن ورقة الدولارات العشرة كانت شيئاً غير مألوف . وكان سكيتر قد اختطف الورقة المالية من يد « بيغي » وقذف بها نحو غرايدي طالباً منه ان يكفّ عن محاولة التودّد اليها. وكان غرايدي قد تعوّد ، منذ فترة طويلة ، اعطاء « بيغي » اوراقاً نقدية من فئة الخمسة الدولارات والعشرة الدولارات وما كان يعتزم ان يكفّ عن ذلك ما دام يملك مالاً ينفقه ولكنه آثر اجتناب الاصطدام بسكيتر ، الذي كان يحتمي في مثل هذه الحـالات بأموري غلوفر ، وهو ملاكم قديم يبلغ وزنه مئتي رطل انكليزي ، فرفس الورقة في اتجـاه النادلتين الشقراوين وغادر الحانة . وحين رأى « بيغي » في المرة التالية قالت له ان سكيتر كان غاضباً لانها رفضت ان تكون خليلته ، وانّ من الخير ان لا يقدّم اليها « بقشيشاً » بعد اليوم . ومنذ ذلك الحين اخذ غرايدي يطوي الورقة المالية ويدسّها في يدها

حين يأمن اعين الرقباء .

وطـــافت « بيغي » بالمشرب كرة اخرى، حتّى اذا قدّمت للزبائن ما طلبوا من زجاجات الخمر اقبلت على مائدة غرايدي التي في الزاوية . لقد وقفت امامه بضع لحظات، خافضة بصرها نحوه في تساؤل. حتّى اذا ضنّ عليها بأيّ جواب سارعت الى الجلوس الى جانبه .

وسألته في لطف :

– « ما بك، يا غرايدي ؟انت مشغول البال بأمر ما، أليس كذلك ؟ ما الذي يشغل بالك ؟ »

فالتفت ونظر اليها ولكنه لم يقل شيئاً .

وقالت وقد فهمت كل شيء :

– « أنت لم توفق الى الحصول على المال الذي يطالبك سكيتر بدفعه ، أليس كذلك ؟ »

وهز غرايدي رأسه .

وقالت وهي تنظر الى وجهه مباشرة :

– « اوه غرايدي ، انا آسفة جداً . لقد كنتُ اخشى ان لا توفق الى الحصول على ذلك المال بهذه السرعة . كان ينبغي ان تُعطى مهلة اطول . »

وهزّ رأسه في اناة .

– « كنت اتمنى لو كان ثمة ما استطيع ان أعمله من اجلك، يا غرايدي . هل يفيدك ان تأخـــذ متّي دولار ؟ ان لديّ متّي دولار ادّخرتها ، وفي استطاعتي ان اقدمها اليك اذا شئت ،

يا غرايدي : »
فقال هازاً رأسه :
ــ « اني مدين له بألفين وخمسمئة دولار ، يا بيغي »
ــ « اجل ، انا اعرف . لقد سمعت كل شيء عن ذلك . »
وألقى سيجارته نصف المدخّنةعلى الارض وسحقها بقدمه.
ــ « اين سكيتر ؟ »
ــ « لست ادري ، يا غرايدي. »
ــ « هل جاء الى هنا هذا المساء ؟ »
ــ « لقد غادر الحانة منذ ساعة . ولقد سمعته يقول لأموري غلوفر انه سوف يرجع عما قريب. انا لا اعرف الى أين ذهب.»
ووضعت « بيغي » يدها على يده ، فخفض ذقنه الى صدره وراح يتأمل اظافرها الحمراء المشرقة برهة طويلة .
ــ « هل عرف سكيتر انك سوف تجيء الى هنا هذه الليلة ، يا غرايدي ؟ »
فضحك ضحكة مبتسرة وقال :
ــ « طبعاً ، لقد عرف . لقد طلب اليّ ان اكون هنا . »
ونهض بعد ذلك وبدأ يبحث في جيبه عن سجاير . ووجد العلبة . وبأصابع مرتعشة اخرج منها سيجارة واشعلها. حتّى اذا تمّ له ذلك ألقى عود الثقاب على الارض .
وقال من غير أن ينظر اليها ، وكأنما كان يخاطبها ويخاطب نفسه في آن واحد :
ــ « يجب ان يكون هناك طريقة للتأثير فيه . ان في مكان ما

من صدره لقلباً ؟ لا بدّ ان يكون له قلب . فليس في استطاعته ان يحيا وان يتنفس اذا لم يكن له ما يقوم مقام القلب . ولكني اراهنُ انك لو غرزتـهِ بدبوس لما احسّ بوخزهِ . بل ان جلده الخشن ليلوي الدبوس على كل حال . »

— « لعلي استطيع ان اساعدك ، يا غرايدي . »

— « كيف ؟ »

— « انه يريدني ان اكون .... ان اكون خليلته . لقد سئم من ترديد ذلك على مسمعي منذ ان جئت الى هنا للعمل في خدمته. وهذا هو السبب الذي من أجله لا يجيز لي آن آخذ اكثر من دولار واحد ، على سبيل « البقشيش » ، من أيّ انسان . انه لا يريد ان يستحوذ عليّ احد غـيره . واذا ما قلت له اني غيّرت رأيي .... »

فقال غرايدي في خشونة :

— « انت معتوهة ! ماذا تحسبينني ؟ انا لن اسمح لك بأن تَرْشيه بهذه الطريقة . اني قد اكون فاسداً جداً ولكني لم أبلغ هذا المبلغ ! »

— « ولكني لا اجد بأساً في ذلك، يا غرايدي، اذا اعتقدت انه سوف يكون ذا فائدة . ولأن اقدم على ذلك خير الف مرة من ان ادع سكيتر يفعل شيئاً رهيباً . انت تعرف طباعه . انه لن يتورع عن شيء . ولقد سبق له ان قال لك ما الذي سوف يصنعـه اذا لم تدفع اليه دينه . الا ترى ، يا غرايدي ؟ ألا تدعُني .... »

وردّ الاقتراح بحركة من يده ترشح بفروغ الصبر :

— « لا ! »

وتوسلت اليه :

— « ارجــوك ، يا غرايدي . سوف أذهب الى سكيتر و... واتحدث اليه. سوف اقول له اني فكرت في المسألة، واني غيرت رأيي ، واني اريد ان اكون خليلتــه . وحين يمتلكني سأقول له اني سوف احبه اكثر اذا استعمل الحكمة واعطاك مهلة كافية لجمع المال الذي يطالبك به . ينبغي ان تسمع كلامي. انا واثقة من اني قادرة على خدمتك . ألن يكون هذا حسناً ، يا غرايدي ؟ »

فقال :

— « إنسيْ ذلك ، يا بيغي . انتِ تتحدثين عن محاولة عقيمة. ولست اريد ان تكون لي اي مشاركة في ذلك . خذي ... »

قال ذلك ووضع يده في جيبه وأخرج منها ورقة متغضّنة من فئة الخمسة دولارات . وبعد ان ملّس الورقة على المائدة الرطبة قدّمها اليها وقال :

— « احتفظي بدولارين لنفسك وانظري ماذا تستطيعين ان تفعليه بالباقي . وكبداءة ، إبتيني بكأسين في الحال . »

ثم نظر اليها ، مبتسماً ، واضاف :

— « وحاولي أن لا ينقلب الكأسان وانت تحملينهما اليّ . »

— « ولكني لا اريد المال ، يا غرايدي . لا أريده هذه المرة على الاقل . »

– « اذا رفضتِ الدولارين فعندئذ يكون كل شيء بيننا قد انتهى . »

والتقطت الخمسة الدولارات ووضعتها على صينيّتها . ثم نهضت مبتسمةً ، هازّة برأسها .

وقالت :

– « لا بأس ، يا غرايدي . فليس هناك شخص آخر في العالم أطيعه كما أطيعك . انك تفعل بي ما تشاء . »

وفارقته ؛ وبعد دقائق قليلة رجعت وعلى صينيتها كأسان من الويسكي وكأس ماء. ورتبت الكؤوس على المائدة في صف انيق ، وجلست.وتجرع غرايدي الكأسين واحدةً بعد الاخرى. وحين التفتت ونظرت اليه رأت انه كان يراقبها من غير ان يقول شيئاً .

وقالت :

– « ما بالك ، يا غرايدي ؟ »

فقال في جد :

– « كنت افكر فيكِ ليس غير ، يا بيغي . »

– « ماذا تعني ؟ »

– « انك سوف تكونين زوجة رائعة لشخص ما ، يا بيغي. زوجة مذهلة. استطيع ان أحزر ذلك.ولكني اخشى ان تُكرهي على الانحراف ، مثل زوجتي . ان هذا هو ما يصيب افضل الفتيات دائماً . انهن يندفعن في طريق الخيانة. ولست ادري لذلك سبباً . لقد دفعتُ زوجتي في هذه الطريق ، ولم تكن لتستحق

ذلك . انها رائعة مثلك – ان كلاً منكما رائعة . واني انا الكلب القذر . يجب ان اموت رمياً بالرصاص . »

– « ان هناك اشياء لا يستطيع الانسان اجتنابها ، يا غرايدي. اننا جميعاً نضطر في بعض الاحيان الى المغامرة . »

– « طبعاً . ولكن لماذا تغامر فتاة مثلك ومثل زوجتي مع رجل من طرازي ؟ يبدو لي ان الواحدة منكن ينبغي ان تكون اعقل من ذلك . انا رجل فاسد . كل الناس تعرف ذلك . »

– « اظن اني اعرف لماذا تزوجتْكَ ، يا غرايدي . لقد احبتك ، هذا هو السبب . ولقد كان جديراً بي ان افعل الشيء نفسه لو كنت مكانها . انت رجل يسهل حبه ، يا غرايدي . يسهل حبه اكثر مما ينبغي . تلك هي المشكلة كلها ، أنا ادري. »

– « لو ان احداً سمعنا نتحدث هكذا اذن لظنّ اني احاول إقناعك بالزواج مني ، او انك تقومين بهذه المحاولة . »

قال ذلك وراقبها وعلى وجهه انطباعة ذاهلة . وغضت بيغي طرفها لكي لا تلتقي عيناها بعينيه . وبسط غرايدي يده وأدار وجهها نحوه وابتسمت له في خجـــل . ثم ان غرايدي اضاف قائلاً :

– « انا لست ادري ما افهم من ذلك الآن . »

وجلسا صامتين فترة طويلة ، واخـــيراً امسك بيدها وانشأ يعتصرها .

وسألها في صوت كالهمس :

– « ما رأيك في ذلك ، يا بيغي ؟ »

وهزت رأسها في رفق ، مجتنبةً ان تلتقي عيناها بعينيه كرة اخرى . ثم قالت في عذوبة :

— « لا . انا لا استطيع يا غرايدي . لا استطيع ان افعل ذلك . »

وصرع الكؤوس الفارغة بضربة غاضبة من يده . كان الدم قد شاع في وجهه .

وقال عابساً :

— « انت لا تريدين الزواج مني لاني غرايدي دانبار . هو ذاك . لقد سمعتِ كل شيء عني . هذا هو السبب . »

— « ارجوك، يا غرايدي، لا تتكلم هذا. انا اعرفك جيداً، ولكني لا اظن .... »

فقال رافعاً صوته :

— « لا داعي الى ان تقولي ذلك . انا اعرف ما يجول في خاطرك . انتِ تعتقدين اني سوف اعاملك كما عاملت زوجتي. وانتِ لا تريدين ان تجازفي بالحياة مع غرايدي دانبار . لقد سمعتِ عنه اكثر مما ينبغي . »

كانت العبرات تترقرق في عينيها عندما نظر اليها . واخذ غرايدي نفساً عميقاً ، وغاص في مقعده .

— « انا احبك كثيراً يا غرايدي — احبك اكثر مما تعرف . انا لا اريد ان افعل شيئاً يؤذيك ، ولكن ... »

فقال وهو يطلق ضحكة مكبوتة :

— «حسناً. لعلك على صواب، يا بيغي. انا لست غير انسان

ملعون ، مهما تمدّحتُ وتفاخرت في الحديث . واني لسعيد بأن تكوني من الذكاء بحيث عرفتِ ذلك. ان هذا سوف يوفر عليكِ كثيراً من الصداع . »

فقالت ضارعة :

ـ « غرايدي ، ارجوك ان ترجع الى زوجتك قبل فوات الاوان . فلا يزال ثمة متسع من الوقت للقيـــام بذلك . ولسوف تكون اعظم سعادةً ، إذا فعلتَ . وانا اعرف انك ستفعل . فهذه هي الطريقة الوحيدة التي تكفل لك السعادة . انك اذا رجعت اليها وابديت لها اسفك فسوف تغفر لك، اذا كنت تعني ما تقول . كل ما عليك ان تفعله هو ان تظهر لها انك جادّ حقاً ، ولا ريب في انها سوف ترحب بك ؛ لانها تحبك . لقد كان خليقاً بي ان اشعر بمثل شعورها لو اكتشفتُ انك اقدمتَ على ما اقدمتَ عليه ، وكان خليقاً بي في الوقت نفسه ان افرح بعودتك ايضاً. لو كنت مكانها لغفرت لك يا غرايدي ، ولسوف تغفر هي ايضاً من غير شك . »

فقال في ارتياب :

ـ « لست ادري . قد لا تسير الأمور وفق مـا تتصورين ، لقد عقدت زوجتي النية على مغادرة البيت . »

ـ « ولكنها سوف تغير رأيها ، يا غرايدي، اذا ذهبت اليها وقلت لها ... وقلت لها انك تحبها وتودّ لو تنسى الماضي . »

ـ « هذا كلام يبدو جميلاً ، واكنه لن يحلّ المشكلة. انكِ لا تعرفينني معرفة كافية . ولكن زوجتي تعرفني . إنهـــا تعرف

اني انتمي الى اسرة ارستوقراطية متفسخة . اني آخر هذه الاسرة الارستوقراطية . لقد تهرّأنا . ان كل امريء يعرف ذلك. فحين أدخل من باب المصرف الأمامي ينسحب المدير من الباب الخلفي. وليس في استطاعتي ان احصل على مئة دولار ولو كانت حياتي متوقفة على هذا المبلغ . وحتى ابن عمي ، بين باكستر ، على الرغم من انه نصف دانباريّ فحسب ، مضطر الى ممارسة المحاماة. انه يكسب دولارين بين الفينة والفينة كلما دلّ الزنوج كيف يقترضون خمسة وعشرين دولاراً على اثاث مرهون سابقاً . هذا هو المصير الذي انتهينا اليه . إن آل دانبار لاّ مستقبل لهم . »

ووثبت بيغي ، فجأة ، على قدميها ، فرفع غرايدي بصره نحوها متسائلاً . فسارعت الى جمع الكؤوس الفارغة ووضعها على صينيّتها . ولم يعرف سبب قيامها المفاجيء إلا بعد ان ابتعدت عن المائدة وأمسى في ميسوره ان يرى سكيتر واقفاً لدى الباب الفاصل بين الغرفتين. كان سكيتر يراقبه ويراقب بيغي بنظرات باردة ثاقبة،

وهمست فيما هي تستدير وتبتعد عن المائدة :

— « يتعيّن عليّ ان أفارقك ، يا غرايدي . »

وحين وصلت الى البـاب كان سكيتر لا يزال يسـدّه ، فاضطرت الى الوقوف. وأكرهها على الانتظار عدة لحظات قبل ان يبتعد من طريقها وليمكّنها من متابعة السير نحو المشرب في الغرفة الثانية . لقد فعل ذلك من غير أن يقول لها كلمة واحدة .

وفي اناة تقدم سكيتر نحو المائدة الخضراء ، وراقب اللعب بسلسلة من النظرات الخاطفة. وأقام على ذلك عدة دقائق ثم اختلس

النظر الى ايموري غلوفر . وهز ايموري رأسه ، اشـــارة الى ان اللعب يجري كما ينبغي له ان يجري. حتى اذا غادر المائدة الخضراء اجال بصره في الغرفة وأخذ يعدّ الزبائن .

كانت عشر دقائق قد انقضت بين ظهور سكيتر عند الباب وبين سيره الى الزاوية التي كان غرايدي ينتظر فيها . وحتى بعد ان جلس الى الجانب الآخر من المائدة ظـــل يجتنب النظر الى غرايدي مباشرة. وهرعت النادلتان الشقراوان الى المائدة. وأومأ سكيتر الى غرايدي، فمضت الفتاتان لسبيلهما. وما هي إلا لحظات حتى رجعتا بكأسين من الويسكي وكوب ماء لغرايدي . وتجرّع غرايدي احدى الكأسين في الحال ، ثم وضـــع الكأس الفارغة جانباً ، وتناول الكأس الاخرى بيده .

وقال سكيتر :

— « ارى انك جئت الى هنا في الوقت المحدد . لا بدّ ان تكون هذه دلالة طيبة . »

ولم يقل غرايدي شيئاً ، ولكن كتفيه اختلجتا اختلاجاً طفيفاً. وواصل إدارة كأس الويسكي بين أصابعه .

وقال سكيتر ، وعيناه تراقبان الغرفة :

— « كان عندي بعض الاعمال الصغيرة في المدينة ، هـــذه الليلة . ولولا ذاك لما تحركت من هنا قط . »

ورفع غرايدي الكأس الى فمه ، وافرغ الويسكي في جوفه . كانت يداه ترتعشان عندما رفع الكأس عن المائدة .

وقال في عصبية :

- « لقد عجزت ، يا سكيتر . صدقني في ذلك . انا لم استطع ان أجمع المال . ولقد حاولت ذلك بكل طريقة خطرت ببالي . ولكني مع ذلك لم أنجح ، يا سكيتر . »

ولم يجب سكيتر بشيء . وران السكوت برهة غير قصيرة . كانت يدا غرايدي ترتعشان على المائدة . وأطبق أصابعه حول الكأسين الفارغتين محاولاً ان يهدىء نفسه .

وقال في يأس :

- « انت لا تستطيع ان تفهم الوضع ، يا سكيتر . فحين يعجز المرء عن اقتراض المال فعندئذ يصبح عاجزاً عن ان يفعل أي شيء . »

فقال سكيتر رافعاً صوته حتى يصبح مؤنباً وساخراً :

- « أحقّ ما تقول ؟ »

- « لقد بذلت غاية جهدي ، يا سكيتر . ان البنك رفض ان يقرضني المبلغ لأنه لم يبق لدي ما أرهنه . ولست أعرف احداً آخر اذهب اليه . ان اسرتي مفلسة . نحن لا نملك فلساً واحداً . »

- « ما الذي كنت تفعله لو ربحت مني الفين وخمسمئة دولار بدلاً من أن تخسر الفين وخمسمئة دولار ؟ »

- « اعتقد اني كنت اطلب اليك دفعها . »

- « حسناً ، واذا رفضتُ ان ادفع ؟ »

- « لست أدري « يا مستر سكيتر . ولكني كنت اطالب بها على كل حال . »

- « طبعاً . ولن تتورع عن تكليفي بالاتيان بالمال من تحت

الارض . »

— « أظن ذلك . »

— « حسناً ، هذا على وجه الضبط ما أطلب اليك ان تفعله من الآن حتى ظهيرة الغد . تلك اثنتا عشرة ساعة . وانها آخر اثنتي عشرة ساعة اعطيك اياها . والآن ، اخرج واتني بالمال من تحت الارض . وإلا .. »

— « وإلا ماذا ؟ »

— « ماذا تظن ؟ انا لا أبالي من أين تأتي بالمال ما دمت تضعه في يدي . »

وهز سكيتر منكبيه في لامبالاة ثم اضاف :

— « إسرقْ مصرفاً . إنشل محفظة رجـل . إبعث بزوجتك للحصول على المبلغ . لا فرق عندي ، ما دمت أفوز بما أريد ان افوز به . ولكني لن استعطيك بعد الآن ، واني لأقول ذلك لك للمرة الاخيرة . »

ونهض غرايدي على ركبتين راعشتين .

وقال في صوت أجش :

— « حسن ، يا سكيتر . سوف أفعل شيئاً . سـوف اذهب للاجتماع ببين باكستر من جديد . »

ورأى سكيتر يهز برأسه هزة ذات مغزى عندمـا استدار ، وغادر الغرفة الملأى بالدخان الى هواء الليل البارد . وحين اجتاز بالمشرب ، لم يكن قد رأى بيغي ، وقال بينه وبين نفسه : لعلها تتجنب الاجتماع بي عامدة متعمّدة .

١٧

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بعض الشيء عندما هُرع بين باكستر – وكان غرايدي قد أيقظه من نومه في الساعة الخامسة والربع من ذلك الصباح – مجتازاً المرجة المكسوّة بالندى ودخل البناية المربعة المشيّدة من آجرّ أحمر ، والمزدانة بأعمدة بيضاء شاهقة ، وارتقى السلم الى الدور الثاني ، واندفع في رشاقة الى أقصى الرواق حيث وقف متمهلاً بضع لحظات ابتغاء التأمل قبل أن يفتح الباب الذي كتب عليه : « مكتب قضائيّ » .

وبينما كان « بين » واقفاً بالباب ويده على تفاحة ذلك الباب تحدّث اليه عدد من الموظفين والمختزلين فيما كانوا يجتازون بالرواق ، ولكنه كان من الانهماك بحيث لم يستطع ان يسمعهم ، بَلْهَ ان يردّ تحياتهم . لقد وفد الى هناك من غير ان يحلق لحيته ، ولقد كان وجهه المهزول يبدو كالحاً وعازماً في ضياء الصباح الباكر .

وحين دخل بين باكستر الغرفة ، آخر الأمر ، واغلق الباب خلفه في عنف كان ماك بويندكستر وستوب بيتيغرو ، وكل منهما نائب « شريف » ، والمسجل القضائي اولين ثارب ، جالسين الى المائدة المستديرة الضخمة مع القاضي لوفجوي . وكانت رائحة دخان التبغ النتنة تملأ ارجاء الغرفة الموصدة النوافذ. كانت مصاريع النوافذ الخشبيةُ ما تزال مغلقة ، وكان المصباح الكهربائي المتدلي من سلكٍ مغطىً بالذباب فوق الطاولة لايزال

مضاء . وكان الحاجب الزنجي، لامار ، يجمع على رسْليهِ نثاراً من اعقاب السجاير ورماد السيجار في احدى المنافض . فلم يكد يرى « بين » يدخل حتى كفّ عن الجمع وانحنى انحاءةً مغالى فيها .

وقال لامار ، في لهجة ودية ، وقد اسند احدى ذراعيه الى الموقد والاخرى الى مقبض المكنسة :

ــ « صباح الخير ، مستر بين . إنه صباح رائع من غيرشك أليس كذلك ، يا مستر بين ؟ »

فقال « بين » هازاً برأسه :

ــ « صباح الخير يا لامار . »

فسارع الحاجب الى القول :

ــ « آه ، مستر بين ! لقد كنت أطمع في التحدث اليك عن شيء صغير . آه ، لقد حسبت ان من الجائز ان تكون راغباً في الذهاب الى شاطىء « بيغ ساندي » لصيد السمك في يوم من الايام ، وانا واثق من اني احب أن أذهب معك اذا لم يكن في ذلك ازعاج لك ، وألقي الصنارة بنفسي الى سمك السّلور. فقد اخبروني انأسماك السلور تعضّ عضاً جيداً في هذه الأيام . آه، هل تعتقد يا مستر بين ان فياستطاعتي ان اذهب معك واساعدك في الصيد ؟ »

فقال له « بين » :

ــ « سوف اخبرك عندما اذهب فيالمرة القادمة، يالامار » .

فقال الزنجي منحنياً كرة اخرى :

- « اشكرك ، يا مستر بين . »

وسحب « بين » احد الكراسي الى المائدة . وجلس خلف القاضي لوفجوي وانحنى الى أمام وذراعاه مستندتان الى ركبتيه

كان القاضي لوفجوي رجلاً في الثمانين ، لطيف الوجه ابيض الشعر ، يرتدي دائماً بنطلوناً رمادياً مخططاً وسترةً من الجوخ الأسود ذات حاشيــة حريرية مضلّعة . كان طوله يبلغ ستة أقدام ، وكان حسن الصحة بالنسبة الى سنه ، وكانت له لحية مشذّبة على شكل مُرَوّس . كان منتصب القامة ، وكانت عيناه دائمتي اللمعان . لقد شغل نحواً من ربع قرن منصب قاضٍ في دار العدل ، ولكنه انصرف ، منذ أن تقاعد خلال السنوات العشر الاخيرة ، الى ممارسة المحاماة ، وسيطر بطريقته اللطيفة ، ولكن الجازمة ، على سياسة المنطقة سيطرة مطلقة وقاسية . فلم يكن ثمة موظف يعيّن إلا بموافقته ، ولم يُقدّر لأي من المرشحين الذين حُرموا من رضاه النجاح في الانتخابات العامــة . وبين الفينة والفينة كانت النقمة تعصف بنفوس هؤلاء المرشحين ، فيتوعدون ويتهددون ويثورون ، ولكن القاضي لوفجوي بطريقته الهادئة ، كان يقوم بكل عمل ضروري لضمان خدمة الجمهور . وكان القاضي عزباً شَغَل طوال السنوات الاربعين الماضية غرفة في فندق ماغوفين . ولم يكن له ، على قدْر ما يعرف الناس ، ايما نسيب حيّ . وكان قد وفد الى ماغوفين وهو غض الأهاب ، قاطعاً المسافة كلها ، ما بين الجبال الواقعة في الجزء الشمالي من الولاية وبين ماغوفين ، سيراً على القدمين . ولقد قيل انه اول دولار

كسبه من ممارسة المحاماة موضوع ضمن إطار ومعلّق على جدار حجرة نومه، وان ثروته تبلغ الآن تبلغ نحواً من مئتي الف دولار او ثلاثمئة الف دولار .

وقال القاضي لوفجوي بطريقته الهادئة وابتسامته اللطيفة السرمدية مصوّبة الى المسجّل القضائي :

— « زدْ خمسة وعشرين سنتاً ، يا ثارب . واستطيع ان أقول اني اريد أن ارى قرارك في المستقبل القريب . »

وأوصد اولين ثارب فمه ، وغضنّ جبينه. وأمرّ اصابعه على ركام الاحجار المستديرة البيضاء القائم امامه على المائدة . لقد كان من دأب اولين ان يطيل التفكير قبل ان يلعب، سواء أكان الحظ حليفه ام لا . وكان ذلك يثير حفيظة القاضي لوفجوي.

وقال ستوب بيتيغرو في استخفاف :

— « يا للشيطان . إنه لا يملك شيئاً . لو كنت مكانك لما سمحت للقاضي بأن يروّعني الى هذا الحد . انه ليس غير ثور عجوز في مرج فهو يحاول ان يجعل العجول تعتقد ان في استطاعته اقامة القيامة عليها اذا شاء . وآخر مرة طلبت منه ان يكشف عن أوراقه كان معه ورقتان بائستان من فئة الاثنين . هيا، يا اولين ، إلعب . إرفع الخمسة والعشرين سنتاً . »

وخفض اولين عينيه ناظراً الى القاضي لوفجوي ،وانشأ يحك رأسه في تفكير ، ثم قال ممسكاً أوراقه على مقربة دانية من ذقنه مبعداً اياها عن الانظار :

— « هذا مبلغ كبير لا تجوز المخاطرة به ما دام مجموع

المراهنات على مثل هذا الصغر . ولو كنت قد لعبتَ مع القاضي منذ عهد طويل كما قد فعلتُ انا اذن لعرفتَ ان المرء لا يستطيع ان يشعر بالطمأنينة معه . ان الآخرين يرمون أوراقهم حين لا يكون معهم شيء . اما هو فلا . »

فقال ماك بويندكستر ، مُميلاً رأسه بعض الشيء ، باصقاً عصير التبغ في اتجاه المبصقة :

— « بحقّ الرب الاله ، يا أولين ، لا تدع ابن الزنا يجلس هناك مثل يسوع المسيح على منصة خطابة ويلقي الرعب في فؤادك حتى تفرّ مــن اللعب . وأيّ بأس في ان تخسر خمسة وعشرين سنتاً هذه المرة ؟ كل ما يتعيّن عليك ان تفعله هو ان تذهب الى البيت وتشحذ من زوجتك العجوز دولاراً آخر وترجع الى اللعب من جديد . »

كانت يدا اولين ترتعشان . وتفصّد العرق قطرات قطرات على جبينه . وفي الوقت نفسه اشرقت ابتسامته السرمديةً اشراقاً انيساً على وجه اولين المضطرب .

وفي هذه اللحظة دخل نايت سنودي مفتش الطرق العامة ، وسحب أحد الكراسي . وبدأ يخلط أوراق اللعب المطروحة ، فيما كان اولين يحاول ان يقرر ما الذي ينبغي ان يفعله . ولم يتحدث أحد الى نايت ، وكالعادة لم يتحدث هو الى أحـد ايضاً . كان الرجال الذين يدخلون للاشتراك في اللعب فترة معينة قد سبق لهم ان لعبوا ثم انصرفوا ليأخذوا سِنةً من النـــوم او ليأكلوا بضع لقيمات . إن لعبة البوكر هذه ما تزال مستمرة ، تقريباً ، منـــذ

عدة سنوات ، ولعل جميع محامي المدينـة وموظفيها جلسوا الى مائدتها في ساعة ما من ساعات الليل أو النهار .

واخيراً أعلن اولين وهو يهز رأسه هزة حاسمة ويضع خمسة من الاحجار المستديرة البيضاء في وسط المائدة :

— « سوف أغامر ، هـذه المرة ، وليكن ما يكون . سوف أراك ، ايها القاضي . »

فقال ستوب بيتيغرو في اشمئزاز :

— « اولين ، لماذا بحق الجحيم لا ترفع ابن الزنا ؟ انك اذا رفعته يضطر الى الانسحاب اذا لم يكن معه شيء . انت لن توفق الى شيء بمجرد طلبك ان يكشف القاضي عن أوراقه. ألا تريد ان تكسب شيئاً في يوم من الأيام ؟ »

وتساءل القاضي لوفجوي وهو يبتسم :

— « هل انتهيتم ايها السادة ؟ »

فقال بنويندكستر :

— « أجل ، إكشف عن أوراقك ، ايها النغل . »

وكشف القاضي لوفجوي عن اوراقه ، فاذا في يده اربعة أوراق من فئة الاثنين . وطافت ابتسامته المشرقة بالوجوه الجالسة الى المائدة . واطلق ستوب بيتيغرو زفرةً متطاولة .

وانحنى اولين فوق المائدة ، فاغر الفم ، وعـدّ الاوراق الأربع ورقة ورقة . ورانت على وجهه سيما بائسة .

وقال ماك بويندكستر في ذعر :

— « اني أكون ابن زانية من آ تلانتا اذا لم يكن معه أربع

بنات . ما رأيكم ؟ »

وقذف اولين بأوراقه الى نايت . وجمع القاضي لوفجوي مكاسبه والابتسامة لا تفارق ثغره . ثم شرع يكدّس حجارته المستديرة البيضاء في أعمدة مستقيمة امامه .

— « لقد سئمت هذا النوع من النصائح التي أسمعها هنا» قال اولين ذلك في اشمئزاز ونهض واضعاً ما بقي من حجارته البيضاء في جيب بنطلونه. « وحين أعود، ارجو ان لا أرى جماعة ممن يحملون لقب « نائب شريف » يضيعون الوقت هنا . إن عليهم ان يكونوا في الخارج يتعقبون المجرمين على اية حال. تلك هي المهمة التي يتقاضون الرواتب من أجلها . ان من حق دافعي الضرائب ان يروا اعمالاً مقابل المال الكثير الذي يدفعونه . ولا ريب في ان الناس سوف يضعون حداً لهذا الوضع في يوم من الأيام . »

ولم يقل أحد شيئاً فيما كان أولين يغادر الغرفة ويغلق الباب ، حتى اذا مضى لسبيله أطلق ماك وستوب ضحكات مدوية . أما القاضي لوفجوي فواصل توزيع ابتساماته الكريمة على الجميع .

وانتظر بين باكستر حتى انتهت احدى جولات اللعب وبدأ الاستعداد لجولة جديدة . ثم انه انحنى حتى أصبح على مقربة دانية من القاضي لوفجوي ، وحتى أصبح في ميسوره ان يلفت نظره .

ثم انه قال في صوت خفيض :

— « ايها القاضي ، أحب ان اتحدث اليك دقيقة واحدة . »

فقال القاضي في نبرة صوته المألوفة :

— « عمّ تحب ان تحدثني ، يا بُنيّ ؟ »

— « عن غرايدي دانبار . »

— « ما باله ؟ »

فقال بين ، في صوت خفيض ايضاً :

— « ذلك ما اريد ان أحدثك عنه ، ايها القاضي . أرجو ان تخرج معي الى الرواق لنتحدث بضع دقائق ... »

— « ولكن ، يا بنيّ ، انت تعلم اننا لا نقوم بالاشياء على هذا الشكل . ان كل ما يُقال في هذه الغرفة يقـال في طمأنينة وثقة ، ونحن نحترم ذلك . ولكن ، هيا يا بني ، وقل لي ما الذي يجول في خاطرك . »

وأجال « بين » طرفه في الرجال المتحلّقين حول المائدة ، مقرباً في الوقت نفسه كرسيه الى كرسي القاضي لوفجوي .

وقال في صوت كالهمس :

— « لقد جاء غرايدي الى منزلي قبل الساعـة الخامسة من صباح اليوم ، ايها القاضي . انه محتاج هذه المرة ايضاً الى مال لقد حاول ان يقترض ذلك المال من البنك ولكن ارضه مرهونة على آخر دولار تستأهله . وقد رهن كذلك بغاله وتراكتوراته. والشيء الوحيد الذي لم يرهن بعد من ممتلكاته هو بيته ، ولكن احداً في المنطقة لا يريد استرهانـه لكي لا يضطر ذات يوم الى حرمان الراهن من حقّ فكاك البيت وأمّ غرايدي على قيد الحياة. انها اذا اكرهت على مغادرة البيت فعندئذ تكون المزرعة الفقيرة

هي المكان الوحيد الذي تستطيع الذهاب اليه . »

فقـــال القاضي لوفجوي وهو يرتب اوراق اللعب في يده بكثير من العناية :

— « ما مبلغ الدين الذي يرزح غرايدي دانبار تحته هـــذه المرة ؟ »

— « ألفان وخمسمئة دولار . »

وأصغى الرجال الآخرون الجالسون الى المائـــدة في اهتمام وشوق ، وكانوا يتبادلون النظرات ، بين الفينة والفينة ، ويومئون برؤوسهم إيماءة العارف. ووكز نايت سنودي ، بمرفق يده ، القاضي لوفجوي وكان جالساً الى جانبه.

وقال له نايت :

— « ان البقاء يكلفك عشر دولار . »

وألقى القاضي حجراً مستديراً أحمر .

وقال ماك بوينديكستر مومئاً برأسه الى ستوب ونايت :

— « ان غرايدي دانبـــار قد يكون مفلساً مثل زنجي صباح يوم الأحد ، ولكن عنده شيئاً واحداً لا ريب فيه ، وهو زوجته البارعة الجمال . ان في استطاعتي ان اقول لكم انها جديرة بأن تعنو لها الجبـــاه . انا اعرف ذلك ، لاني رأيتها عدة مرات . وقسماً بالرب العظيم لو كان في بيتي تحفة مثلها اذن لتركت هذه الوظيفة ولأقمت في البيت أربي الارانب كسباً للرزق ! »

فرفع القاضي صوته قائلاً :

— « عشرة سنتات على ورقتي (الشاب) هاتين» .

وقذف بحجرين ابيضين ، ثم استلقى في كرسيه مسترخياً ناعم البال .

وقال نايت :

– « وعشرة سنتات أخرى مقابل هذين الملكين . »

وتابع الجميع اللعب. وراقب «بين» وجه القاضي لوفجوي، منتهزاً ان تسنح له فرصة اخرى تمكّنه من التحدث اليه .

وقال ستوب رافعاً بصره الى ماك بويندكستر :

– « انا معك ، ايها الاخ ، ولكن الذي احبّ ان اعرفه هو ما يجري هناك في مزرعة دانبار. فكل انسان يعلم ان غرايدي يعبث طول وقته مع الفتيات الزنجيـــات ، سواء اكنّ هناك أم هنا في المدينـــة . فما الذي يُنتظر منها في مثل هذه الحال ؟ انك حين توصد باب الحديقة على امرأة جميلة مثلها فعندئذ لا بدّ ان يقفز من فوق الحائط شخص ما . لقد رأيت ذلك من قبل، وانا اعلم ان تلك التجربة قد اخفقت . ان هـــؤلاء المجانين الذين يتزوجون فتيات جميلات ثم يخرجون لتصيّد البنات من هنا الى الجحيم ويرجعون الى البيت ساعة يشاءون وكلهم امل في ان يجدوا الاشياء كما تركوهـــا ... إنّ هؤلاء المجانين لا بدّ ان يصابوا بصدمة كل مرة تقريباً . ان في ميسورك ان تسخر من اشياء كثيرة في هذا الكون ، ولكن الطبيعـــة البشرية ليست، واحدة من هذه الاشياء . »

وربح نايت الجولة بملكيه الاثنين وشرع ماك يخلط الورق استعداداً لجولة جديدة .

وقال « بين » في قلق :

— « انا اكره ان ارى غرايدي في ورطة كهذه ، ايها القاضي . ولقد حاولت جهدي ان احذّره ، ولكنك تعرف مبلغ عناده . ولكن على الرغم من اني حذرته المرة تلو المرة فأني لا ازال اشعر ان عليّ ان اساعده ما دامت أمه على قيد الحياة . وانها لمشقة حقاً ان تضطر زوجته وأمه الى الخروج من ذلك البيت ، لانه ليس ثمة مكان تقصدان اليه . انهما امرأتان بريئتان ، وهما لا تستحقان ان تتحملا ألماً لا ضرورة له . ذلك هو الجانب الذي يشغل بالي ، حقاً ، في هذه المسألة . »

فتساءل القاضي لوفجوي ، وقد استدار ونظر الى بين :

— « من ايّ عهدٍ تمارس المحاماة يا بنيّ ؟ »

فأجابه بين :

— « منذ خمس سنوات تقريباً . لماذا توجّه اليّ هذا السؤال ؟ »

وارتدّ القاضي الى ورقهِ وقال :

— « لانه لا يزال ثمة اشياء كثيرة يجب ان تعرفها عن حرفتك هذه . ان النزعة الانسانية محمودة عند الذين يستطيعون السعي وراءها ، ولكنها شيء لا علاقة له البتة بممارسة المحاماة . والشيء نفسه يمكن ان يقال في الروابط العائلية . وقد تكون هذه كلمات قاسية ، ولكنّ عليك ، لكي تعيش في عالمنا هذا ، ان تتعلم كيف تكون واقعياً في المسائل الواقعية . والآن ، حين تكون على استعداد لمناقشة النواحي القانونية من هذه المسألة تجدني مستعداً

للاصغاء اليك . »

قال ذلك وانحنى الى امام ، وقذف بحجرين مستديرين ، ثم اضاف في نبرة جدّية :

— « عشرة سنتات اكثر ، يا سنودي . »

وألحّ ماك :

— « هيّا ، يا نايت . منذ الصباح وابن الزنا يسرح ويمرح وكأنه وحده الثور ذو القرنين في هذه الساحة . لقد آن الاوان ليقوم شخص ما بانتزاع آخر فلس منه . هيــا ، يا نايت ، لا تخف منه . »

وتساءل نايت وفي صوته رعشة قلقة :

— « هل تعتزم البقاء ، يا ماك ؟ »

فأجابه ماك ، ملقياً باوراقه على المائدة :

— « وكيف استطيع البقــاء وانت تعطيني حثالة الاوراق هذه ؟ ولكنك ستبقى ، أليس كذلك يا ستوب ؟ »

فقال ستوب :

— « جائز . ولكن اذا فعلتُ فعندئذ يكون السبب في ذلك هو اني لا اجد مكاناً آخر اذهب اليه . »

فتساءل القاضي في لطف :

— « سنودي ، هل توصلت الى قرارك البطيء المعتــاد ، آخر الامر ؟ »

فقال نايت وهو يهز رأسه :

— « لست ادري . انا لا احب ان افعل ذلك في مثل هــذه

الساعة المبكرة من الصباح . »

فقال له ماك :

– « يا للجحيم ! انت تبدو مثل زوجتي العجوز تماماً ، يا نايت . أظهِرْ رجولتك اذا كنت راغباً في الاستمـــرار في اللعب . »

ودخل عليهم الغرفة سام ويدرسي ، مخمّن الضرائب في المنطقة ، وسحب كرسياً وجلس الى المائدة . وصفع ستوب على ظهره مميلاً قبعة ستوب فوق احدى عينيه .

وقال سام في صوت مبتهج :

– « حسناً ، ما الكلمة الطيبة ، يا ماك ؟ »

– « وايّ فائـــــدة ستعود به عليك ، اذا انبأتك بها ، يا سام ؟ »

– « في استطاعتي ان انقلها الى غيري ، يا ماك . انها قد تعود بالفائدة على بعض الفتيان ، كما قال صاحبنا . »

– « لقد دارت حول العالم عدة مرات حتى الآن ، ويكفيك ان تنظر الى البلاء الذي احدثتْهُ ! »

– « انها لا تُحدث بلاءً الا عندما لا يُحسِن المرء التصرف بها . الامر كله يتوقف على معرفتك كيف ، كما قال صاحبنا . »

فدندن ماك ، محركاً كتفيه :

– « كيف ومتى ، الآن وفي ما بعد ! »

فقال ستوب :

– « لماذا لا تخرسون ايها الغلمان ؟ الا تستطيعون ان تروا

هذين المحاميين وقد استعدا لتحريك الرأس او الذنب لبريا اي زبون سوف يشنقانه قريباً ؟ »

وتساءل سام ويدرسبي مومئاً برأسه الى بين والقاضي لوفجوي :

— « في اي موضوع يتباحث المحاميان الكبيران في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ »

فأجابه ماك :

— « في موضوع غرايدي دانبار . لقد تورط من جديد ، وإن « بين » ليحاول ان ينتشله . ولكن القاضي ابن زنا عجوز حقير ، وهو يريد من غرايدي ان يدفع المال من منخريه ... »

فقال سام في تساؤل العارف :

— « لقد رجع غرايدي الى القمار ، أليس كذلك؟ انغرايدي دانبار ذاك لمجنـــون لعين . انه ليراهن بمئة دولار على ورقة واحدة ، كما كان يفعل ابوه تماماً . ومنذ اسبوعين تقريباً رأيته يخسر ثمانمئة دولار في مقمرة سكيتر . والذي يبدو ان زوجته سوف تحمله على هجر القمار . »

فسأله ستوب :

— « كيف تتخيل ان توفق زوجة غرايدي دانبار الى حمله على هجر أي شيء ؟ يا الهي ، انها اعجز من ان تحمله على ان يبدأ شيئاً من الاشياء . »

فقال سام :

— « في استطاعتها ان تتمنع عليه ، أليس في استطاعتهـــا

ذلك ؟ لقد تمنّعت زوجتي عليّ عدة مرات، لعنها الله ! »

فأجابه ستوب :

– « انت تتحدث من غير ان تعرف . انه هو الذي يتمنّع عليها . والآن ، تخيّل هذا بمساعدة آ لتلك المخمنة للضرائب . »

– « انت تمزح ! انت لا تعني انه يهجر هـــذه المرأة الجميلة .... »

فأجال سام بصره في وجوه المتحلّقين حول المائدة ، وقد اشرق وجهه والتمعت عيناه .

وقال :

– « حسناً ، ايها الاخوان . تلك فرصة عظيمة لكل رجل طموح ، كما قال صاحبنا ! احسب ان من الخير ان اقوم برحلة الى ذلك الجزء من البلاد في مطلع الاسبوع القادم . فقـــد كان هناك في ذلك الجوار فلاح يدعى هادّون وكان يلاحقني منذ سنتين ويلحّ عليّ بالذهاب الى هناك لأعيد له تخمين الضريبة بحيث تصبح ادنى من ذي قبل ، ولكني لم ابال به . انا سعيد حقاً لأني تذكّرته الآن . وحقّ الالـه لأذهبنّ الى هنـــاك في الاسبوع القادم، ولاجسّنّ النبض ، كما قال صاحبنا. ولن ينشأ ايّ اذى من هذه التجربة ، لأنها قد تكشف عن نتائج عظيمة جداً . »

وتبادل ستوب وماك النظرات ، وحنيا رأسيهما في آن معاً ، وبعد ذلك هزّ ماك رأسه في اسى .

وقال ستوب :

— « انها لا تخفق ابداً ، أليس كذلك يا ماك ؟ »

فوافقه ماك قائلاً :

— « اجل ، انها لا تخفق . فما ان تذيع ان في مكان ما صيداً سميناً حتى يبصبص كل هرٍّ من هررة المدينة بذنبه ، قبل ان توفق أنت الى ابس حـذائك . اني اعتزم من الآن فصاعداً ان أبقي فمي مغلقاً ، فاذا وجدتُ بعد اليوم شيئاً فسوف احتكره لنفسي أولاً ثم اتحدث عنه بعد ذلك . تلك هي اللحظة الحكيمة التي يتعيّن على المرء اتّباعها في هذه البلدة . انا لم ادرك هـذه الحقيقة الا بعد ان خُدعت عشرات المرات. انا لن أحدّث احداً بعد اليوم عن اشياء مثل هذه . »

وسحب « بين » كرسيه ، اقصى ما استطاع ان يسحبه ، نحو المائدة ، وادار رأسه لكي يكون في ميسوره أن يرى وجه القاضي لوفجوي . وابتسم القاضي في كياسة .

وقال « بين » في صوت يرشح بالاهتمام :

— « اودّ ان انوصل الى نوع من التفاهم معك ، ايها القاضي . لو أعطينا غرايدي مهلة اضافية ، مثلاً ..... »

— « من هو صاحب هذا الدين ، يا بنيّ ؟ »

— « سكيتر ويلهايت . »

فقال في جرْس محزون :

— « ولكن ويلهـايت يدفع اليّ تعويضاً ضخماً يا بنيّ . ويلهايت هو موكلي . انا ملزم بخدمته إلزاماً لا مناص منه . »

— « انا اعرف ذلك ، ايها القـاضي . ومن اجل ذلك

جئت لمقابلتك . لقد حسبت أن في امكاننا ان نتوصل الى نوع من ..... »

— « ان المحامي، يا بنيّ ، المحامي الصادق الجدير بشهرته، يضع مصلحة موكله فوق ايما اعتبار عاطفي. لقد وضع ويلهايت ثقته بي . وإني لأمين لروح الرجل امانة الكاهن على اسراره اذ يجلس على كرسي الاعتراف . وهل استطيع ان أخون هـــذه الامانة . هل تستطيع انت ان تخونها ؟ هل يستطيع ذلك ايما محام غارق في تقاليـــد المهنة الشريفة ؟ اني لأعجب لك كيف تفد اليّ بمثل هذا الاقتراح غير القويم لأنك من غير شك لا تجهل آداب مهنتنا . »

— « انا لا اسألك ان تهمل مصالح سكيتر ، أيها القاضي . إني لا اسمح لنفسي بالتفكير بذلك . كل ما اسألك اياه هو ان تعدّل مطالبه بحيث تصبح اكثر انسجاماً مع مقدرة غرايدي على تنفيذها. الا تعتبر هذا مطلباً معقولاً ، ايها القاضي ؟ »

فقال في نبرة حاسمة :

— « في هـــذه الظروف ، لا ! انا لا اعتقد ذلك من غير ريب ! »

— « اية ظروف تعني ، ايها القاضي ؟ »

فاستدار القاضي لوفجوي في كرسيه حتى أصبح قادراً على النظر الى « بين » في وجهه وقال :

— « انا افضلُ ان لا اناقش هذه المسألة أو أية مسألة قانونية اخرى معك أو مع أيّ من طبقتك، يا باكستر . ونصيحتي اليك

هي ان تعود الى الميدان الذي خُلِقْتَ له . »

فقال « بين » منشدهاً :

— « لست أفهم ، يا سيدي القاضي . ماذا تعني ؟ »

فأجابه في قسوة :

— « انت محامي زنوج يا باكستر . لقد اكتسبتَ هذه الشهرة في السنوات القليلة التي عملت خلالها في حقل المحاماة . لقد راقبتُ نشاطك . وانا اعرف ما الذي كنت تفعله . فكلما جاءك زنجي ذو ضغينة على رجل ابيض تلقَّفْتَه في الحال وسحبْتَهُ الى مكاتبك واعلنتَ حرباً صليبية على العرق الابيض . خذ مثلاً قضية ذلك الزنجي الذي يعمل في منشرة الخشب . فعلى الرغم مما تتظاهر به من صداقة لغرايدي دانبار فقد شجعت ذلك الزنجي وحرّضته على تحدّي غرايدي وعدم الرجوع الى عمله في مزرعة دانبار . وفوق هذا ، فأنت تتواطأ على ذلك الزنجي في محاولة لأغراء ابويه بمفارقة غرايدي . ولو انك نجحتَ أنت وموكلك الزنجي في هذه المحاولة اذن لكانت سابقةً ملعونة ، وليس ينحطّ الى هذا المستوى غير محامي زنوج مثلك . وعلى اية حال فأني أرغب في الاجتماع بك والتوصل معك الى اتفاقية مُرضية حول تلك القضية الأخرى شرط ان تؤكد لي انك سوف تتخذ الخطوات العاجلة للتخلص من موكليك الزنوج . »

فقال « بين » في قلق :

— « ليس في استطاعتي ان أفعل ذلك ، ايها القاضي لوفجوي ، لا . ليس في استطاعتي ان افعل ذلك . »

فقال القاضي لوفجوي :

– « هل احتاج الى ان اقول شيئاً اكثر ؟ »

واستأنف اللعب ، مبتسماً للجماعة المتحلّقة حول المائدة ، وقال لهم :

– « اني احسّ احساساً مسبقاً بأن الفوز في هـــذه الجولة سيكون حليفي . وهذه خمسة سنتات كبداءة . »

وقذف بالحجارة المستديرة الى منتصف المائدة ثم اضاف :

– « اني الآن سعيد جداً حين افوز في مطلع الجولة بورقتين صغيرتين متشابهتين لأني اجد عادةً ان هاتين الورقتين تكبران وتكبران وتكبران . »

وألقى ورقة وتلقّى ورقة أخرى من غير أن يبدو على وجهه ايما انفعال . ثم اعلن :

– « عشرة سنتـــات . البقرة الرائعة تنشأ من العجل الصغير . »

فقال ماك في اشمئزاز :

– « كفاك تحدثاً عن نفسك وعن اوراقك ! »

ووزّعت بقية الورق على اللاعبين . واعلن ستوب ان معه ورقتي « آس » ، في حين كان مع سام ويلدرسبي ورقتا «ثمانية» سوداوان.

وقال ستوب :

– « خمسة وعشرون سنتاً على الآسّين . وليس على الذين يريدون ان يروا المشاهدة الا ان يركبوا متن السفينة .»

فقال القاضي لوفجوي قاذفاً بحجارته المستديرة الى المائدة :

ـ « في استطاعتي أن اضيف الى سنتاتك الخمسة والعشرين سنتات خمسة وعشرين، يا بيتيغرو. إنك كلما أطلتَ الركوب كانت المشاهد التي تراها اكثر . »

فقال ستوب :

ـ « وأنت يا سام ؟ »

وتردد سام بضع لحظات قبل ان يقذف بحجارته المستديرة الى منتصف المائدة . وانسحب ماك . ثم كان دور ستوب كرة اخرى .

وقال ستوب متغنياً في ابتهاج :

ـ « خمسة وعشرون سنتاً اخرى ، ايها الاصدقاء . كلما رفعتموها كانت افضل بالنسبة الي . كما قالت العروس الشابة.»

وفي الحال زاد القاضي لوفجوي خمسة وعشرين سنتاً اخرى . وانسحب سام ويذرسبي متنفساً الصعداء . وران القلق على وجه ستوب . ودرس أوراقه في أناة، مقرباً إياها الى ذقنه. كان في ميسور المرء ان يرى العرق يتفصد من جبينه .

وقال ماك وهو يختلس النظر الى القاضي :

ـ « خذ حذرك يا ستوب . انك لا تستطيع ان تأمن لابن الزنا العجوز هذا . »

ومدّ ستوب يده الى جيبه وراح يبحث فيها ، ليخرج بعد ذلك دولاراً قذف به الى المائدة واستردّ ما بقي له منه .

وقال متجهم الوجه :

— « هذه هي الرّميّة الثالثة . ولكني أستطيع أن أحتمل ، بالنسبة الى ما في يدي ، ثلاث رَميات أخرى . »

فقال سام :

— « من الخير لك ان تمسك بأبهاميّ قدميك وتسأل الله ان يميت القاضي . ان هذا هو وحده الذي يجعل لك حظاً في الربح حين يبقى القاضي حتّى الرمية الثالثة . »

وهنا قال القاضي لوفجوي وقد أشرقت على وجهه ابتسامة خادعة :

— « هل نوقف اللعب موقتاً ، يا بيتيغرو ؟ أنا ارغب في ذلك . »

وهزّ ستوب رأسه في قوة وأخذ نَفَساً عميقاً استعداداً لمواجهة الكارثة المحتومة .

— « اذا كان الأمر كذلك ...» قال القاضي لوفجوي هذا وكشف عن اوراقه فأذا هي كاسحة . وهزّ ستوب رأسه حزناً على « آسانه » الثلاثة ، ثم قال من خلال أسنانه الصارّة :

— «لا بدّ أن أستخرج امعاءك في يوم من الأيام كما تنظف الدجاجة ، وأن أستخرجها من بلعومك . وهكذا أتخلص منك ومن حظك اللعين ! »

وحرّك « بين» كرسيه لكي يلفت انتباه القاضي لوفجوي :

— « اذا كنت ، ايها القاضي ، لا تستطيع ان تجد سبيلاً الى نوع من التساهل فأخشى ان نضطرّ الى الاحتكام للقضاء . »

فقال القاضي لوفجوي رافعاً رأسه بعض الشيء :

— « نحتكم للقضاء ؟ سوف اكون ملعوناً اذا اقدمتَ على ذلك ! أنت تعلم جيداً ان موكلي لا يستطيع ان يَمثل أمام المحكمة . فليس هناك محكمة تُكره المرء على دفع دَيْن القمار في هذه الولاية . لقد كان هذا تعاملاً شخصياً بين سيدَيْن . انها اتفاقية جنتلمان ليس غير . »

— « انت تسلّم اذن بأنها تعامل غير شرعي ؟ »

— « انا لا اسلّم بشيء من هذا القبيل . »

— « ولكنك ترفض الوصول الى تسوية . »

— « انا ارفض بكل قواي . »

ونهض « بين » ودفع كرسيه جانباً. لقد نظر بضع لحظات الى رأس القاضي الثلجيّ البياض .

وقال له « بين » في برود:

— « أحسب أنك تدرك ان هذا سوف يحمل الخراب الى غرايدي . »

ودفع القاضي لوفجوي كرسيه الى الوراء ورفع بصره الى وجه « بين » . ولأول مرة في ذلك الصباح بدت عليه أمارات الحنان والعطف الأبوي . وقال له :

— « قبل أن تذهب ، يا بنيّ ، أحب ان أسدي اليك نصيحة . أنا رجل عجوز ، مثقل بالأحقاد ولكن ثمة اشياء اعرف انها صحيحة . ليس ثمة ما يُكسَب من إطالة وجود رجل مثل غرايدي دانبار . دع الطبيعة تأخذ مجراها ، يا بنيّ . لقد راقبت هذه الأسر العتيقة وهي تتفسخ وتفسد منذ ان كنت

شاباً واني لأحترم اساليب الطبيعة احتراماً يجعلني أتورع عن إعاقة عملها الرائع . إرجع الى مكتبك، وساعد الملوّنين عندما يفدون اليك التماساً للنصيحة.أنت غضّ الاهاب متقد الحماسة، واني لمعجب بالمبادىء التي تمثّلها . إننا نحن الشيوخ نزعم أننا نعرف كيف نعامل الملونين وأننا لا نريد ايّ تدخل خارجي ، ولكنك تعلم كما أعلم ان هذه هي طريقتنا لمحاولة تغطية إخفاقنا. إن الطريقة الفضلى في معاملةالملونين هي وقف معاملتهم بالطريقة التي يتّبعها غرايدي دانبار ، والسماح لهم بالذهاب الى المدارس وبالحصول على الثقافة واكتساب الرزق اسوةً بنا جميعاً . إن هذه البلاد لتتّسع لنا كلنا ، سوداً وبيضاً على السواء . إنـك تعمل ضدّ مثلك العليا نفسها ، يا بنيّ ، كلما ساعدتَ غرايدي أو ايّ امريء مثله . والآن ، دع الطبيعة تتخذ سبيلها . لقد انتهى آل دانبار ككائنات بشرية . »

وقبل ان يستطيع « بين » ان يتكلم ردّه القاضي لوفجوي الى الوراء بحركة من يده . كانت اوراق اللعب قد وُزعت ، في صمت ، على اللاعبين . وكان لامـار ، المنحني فوق مقبض مكنسته ، هو الشخص الوحيد الذي رأى « بين » يغادر الغرفة. وجمع القاضي لوفجوي اوراقه ودرسها في اهتمام عميق .

وقال ، ناظراً الى الوجوه المحيطة بالمائدة :

— « الرهان على عشرة سنتات . هل يرغب احدكم ايهـا السادة في اللعب على هذا الاساس ؟ »

فسارع سام ويذرسبي الى القول في الحال :

– « اعتبرني في جملة اللاعبين ، ايها القاضي »

ودفعوا كلهم بحجارتهم المستديرة الى منتصف المائدة ، واستؤنف توزيع الورق .

وقال ماك بويندكستر ناظراً الى ستوب :

– « اسمع ، لماذا لا نذهب أنا وأنت الى مزرعة دانبار في وقت قريب جداً ؟ انا لم افكر في ذلك من قبل . ولكن ما دامت الاحوال على ما هي عليه الآن ففي استطاعتنا ان نفعل ذلك . انا مستعد لأن ادفع مبلغاً كبيراً ثمناً لوصولي الى هناك قبل سام ويذرسبي ... »

وابتسم سام في ما بينه وبين نفسه وقذف بحجر مستدير أبيض الى المائدة ...

وقال :

– « خمسة سنتات . »

١٨

في ساعة متأخرة من الأصيل ، قبيل غروب الشمس، رجع غرايدي الى منزله مخموراً . ولم تكن لوسيان تتوقع عودته قبل اربع وعشرين ساعة على الاقل ، لأنه لم يكن قد انقضى على غيابه غير يوم واحد، ولكنها عرفت أنه قد وصل عندما اهتزت جنبات البيت من قرقعةٍ مدوّية. وهرعت الى النافذة وخفضت بصرها نحو الفناء الأمامي .

وكان قد ساق سيارته ، كما فعل من قبل ، الى الجدار الآجري الذي يدعم الرواق المعمّد . وكانت قوة الصدمة قد زادت اعمدة الرواق الطويلة البيضاء وهناً على وهن ، وكان واحد من تلك الاعمدة قد سقط في المَزْهَر * المنبسط الى جانب البيت . وكان حاجزا الاصطدام الاماميان قد سحقا . وكانت المُشِعة (الراديانور) قد هُرِست إزاء المحرّك . وكانت قطعة من الخشب المتطاير قد حطمت حاجب الريح الزجاجي . وإثر الصدمة مباشرةً ، دوّى صفير بخار منطلق في عنف . وبعد بضع دقائق ترجل غرايدي ، ونظر الى السيارة المحطمة مشدوهاً فاغر الفم ، ثم رفس الباب مغلقاً اياه بكل قوته .

وعندما ارتقى غرايدي سلّم الشرفة غادرت لوسيان النافذة ووقفت متردّدة في منتصف الغرفة . وفي الحال أمسى في ميسورها أن تسمعه يصعد السلم ، فهرعت الى الباب وأوصدته. وكما توقعَتْ ، اجتاز غرايدي الرواق ، منادياً اياها بأعلى صوته ، وانتهى الى باب الغرفة وأخذ يرفسه .

— « لوسيان ! أين أنتِ ، يا لوسيان ! »

وارتعدتْ فترةً طويلةً رهيبةً عندما سمعَتْه يحاول ادخال مفتاح في القفل . ولكن المفتاح عجز عن فتح الباب ، فراح غرايدي يرفسه من جديد .

وناداها بصوت عالٍ :

---

* المزهر : بفتح الميم والهاء ، المكان الذى تزرع فيه الزهور.

— « انا اعرف أنك هنا ، يا لوسيان ! لا تحاولي ان تختبئي ! انا اعرف دائماً كيف أعثر عليك ! »

وحاول ان يكسر الباب بألقاء ثقلهِ عليه . وأطّتْ ألواح الباب الخشبية تحت وطأته .

— « اذا لم تفتحي هذا الباب ، فسوف آتي بفأسٍ وأحطمه ، يا لوسيان ! »

وصاحت :

— « ارجوك ان لا تفعل ، يا غرايدي ! يجب أن لا تفعل ذلك . ماذا تريد ؟ »

فقال بعد تمهّل وصوته يفيض بالتوسل :

— « أريد أن أشرب . أنت لن تضنّي عليّ بهـذا ، أليس كذلك يا لوسيان ؟ »

فقالت وقد اخذتها الشفقة عليه :

— « أوه غرايدي ! أنت تعرف أنه ليس عندي شيء من الويسكي . »

— « ولكن لو كان عندك شيء منها لما بخلتِ عليّ به ، أليس كذلك يا لوسيان ؟ كان خليقاً ان تفعلي ذلك إكراماً للايام الخالية ، أليس كذلك يـا لوسيان ؟ أنت لا يمكن ان تكذبي عليّ ، أليس كذلك ! »

— « أوه غرايدي ، انت تعرف أنه لو كان عندي شيء من ذلك لما بخلت عليك به . »

وقال وقد أصبح صوته وديّاً ذليلاً :

— « هذا ما اعتقدتُهُ . لقد عرفتُ أنكِ كنت مستعدةً لتقديم هذه الخدمة الصغيرة اليّ لو كنت قادرةً على ذلك . لقد كنتِ دائماً كريمةً نحوي . إنكِ لستِ من النوع الذي يحمل ضغينة على رفيق ، أليس كذلكَ يا لوسيان ؟ »

— « اجل ، يا غرايدي . »

— « لو اني تصرّفتُ تصرفاً أعقل اذن لكان من الممكن ان تكون الحــال هنا غير ما هي عليــه الآن ، أليس كذلك يا لوسيان ؟ »

— « نعم ، يا غرايدي . »

وقال في جدّ :

— « لقد كنت أفكر في هذا كله طوال النهار . وكــان يتعيّن عليّ ان أفكر في هـــذا منذ زمن بعيد . لعل الاوان قد فات ، الآن . »

— « لا ، إنّ الأوان لم يفت اذا عقدت النية فعلاً عــلى ذلك ، يا غرايدي . »

فقال في تردّد وارتياب :

— « لست ادري . لقد انتهت الأمور ، الآن ، الى نقطة بعيدة جداً . »

وظل صامتاً فترة طويلة جداً حتى لقد اعتقدت لوسيان انه ذهب الى غرفته . ولقد شُدهت عندما سمعته يقرع البــاب فجأة .

وسألته في قلق :

– « هل تريد شيئاً يا غرايدي ؟ »

فقال لها :

– « آسف لأني ازعجتك ، يا لوسيان . »

وبعد ذلك سمعتْهُ يجتاز الرواق في خطى مضطربة . لقد هبط الى غرفته وأغلق بابهـا عليه . كانت الدموع تترقرق في عينيها عندما استدارت ومضت الى الأريكة . وعلى الرغم من جميع محاولاتها فقد وجدت نفسها تبكي بكاء مراً . لقد قالت لنفسها ، مرةً ومرةً ، إنها لو لم توصد بابها اذن لكان من الممكن ان يتخذ الموقف اتجاهاً مختلفاً .

وكانت قد انقضت خمس عشرة دقيقة عندما سمعت غرايدي يصعد الى الرواق . وسرعان ما أنشأ يقرع باب غرفتها في إلحاح ، وكان عليها ان تُكرِهَ نفسها على عدم الاقتراب من الباب . لقد عرفت ما الذي يمكن ان يحدث لو فتحت الباب الآن .

ونادادها :

– « لوسياني ! »

– « نعم ، يا غرايدي ؟ »

– « لقد نسيت ان أقول لك شيئاً . »

– « ما هو ؟ »

كان في استطاعتها ان تستشعر خفقاً قوياً في صدرها فيما كانت تحبس انفاسها وتنتظر لتسمع ما الذي يعتزم ان يقوله .

– « لم أحصل على المال لأدفع اليه دَيْنه . »

فصاحت في عصبية :

– « اوه ! لم تحصل على المال ؟ »

– « لا . »

ولم تستطع ان تفكر بـأيّ شيء يمكن ان تقوله لتُشعره بحقيقة إحساسها . ولقد كانت شديدة التوق الى ان تقول له شيئاً يعبّر عن قلقها وخيبة أملها .

وسألها :

– « انت تعرفين عن ايّ شيء أتحدث ، أليس كذلك يا لوسيان ؟ »

– « نعم ، يا غرايدي ، أنا أعرف . أنا آسفة الى حدّ رهيب . كنت أتمنى لو ... »

كان عليها ان تكفّ عن الكلام لتحتفظ بالسيطرة على صوتها . لقد استشعرت بأن يديها رخوتان واهنتان عندما حاولت أن تُطبق اصابعَها على ظهر احد الكراسيّ .

– «لقد تحدّث بين باكستر الى القاضي لوفجوي في هذا الموضوع ، ولكن ذلك لم يؤدّ الى نتيجة . ثم ذهب « بين » للاجتماع بسكيتر وحاول ان يقنعه بالانتظار حتى اوفّق الى بيع محصول القطن في هذا الخريف، ولكن سكيتر أبى أن يستمع. أنا أعتقد ، يا لوسياني ، أنه ليس ثمة طريقة للخروج من هذا المأزق . لقد بذل « بين » أقصى جهده ، وليس هناك شخص آخر استطيع ان ألجأ اليه . »

– « ولكن ما الذي تعتزم ان تفعله ، يا غرايدي ؟ »

فقال في جَرْس يائس :

ـ « لست ادري . لست ادري ما الذي يجب أن أفعله . »

وقالت له :

ـ « ما كنت لأتأخر عن مساعدتك ، بأيّ طريقة ، يـــا غرايدي، لو كنت قادرة . انت تعرف هذا، أليس كذلك؟»

كان في ميسورها ان تسمع كل صوت أحدَثَهُ فيما راح يمشي ، ثقيل الخطى ، في الرواق ، شاخصـــاً نحو غرفته . وأوصد الباب . وطوال نصف الساعــة التالية جلست متوترة الأعصاب على حافة سريرها ، تصغي الى صوت مـــا في غرفته . وكانت الفكرة الوحيدة التي راودت ذهنها هي أنهـــا قد تستطيع اقناع سكيتر ، اذا ما ذهبت اليه بنفسهـــا وكلّمته ، بـأن يمهل زوجها بعـض الشيء . ولم تكن لديها ايما فكرة عما سوف تقوله أو تفعله ، ولكنها شعرت بأن عليها ان تقوم بجهد لعمل شيء ما قبل فوات الاوان . وفيما كانت جالسةً هناك تفكر ، مـوزعة اللبّ ، سمعت صوت سيارة تصعد الدرب في سرعة خاطفة ثم تقف فجأة أمام البيت . وفي الحال بدأ زمور السيارة يطلق زعقات عاليـة ملحة . فهرعت لوسيان الى النافذة ، ولكن الليل كانَ قد هبط ، فلم تستطع أن تتبين السيارة .

وغادر غرايدي غرفته وهبط السلم الى الشرفة الأمامية . لقد كان في استطاعتها ان تراه يجتاز الفناء الرملي الابيض، مضطرب الخطى ، قاصداً نحو السيارة . حتّى اذا بلغها سقط مخموراً فوق

جانبها . وفتح سكيتر ويلهايت الباب وترجل من السيارة .

وفجأة تعالى صوتاهما على نحو غاضب ، ولكنها لم تستطع أن تفهم ما الذي كان يقوله أي منهما . وازدادت المناقشة حدة وخصومةً حتى لجأ الاثنان الى الصياح . ثم ان غرايدي وثب على سكيتر محاولا ان يضربه بجمع كفّه ، ولكن سكيتر ارتد الى جانب ، فخرّ غرايدي على الارض ولكنه ما لبث ان نهض مطلقاً الشتائم في وجه سكيتر . وحين رأت لوسيان الى سكيتر يدفع غرايدي الى الوراء فيسقط فوق جانب السيارة أدركت ان عليها ان تحاول القيام بعمل ما في الحال . فغادرت الغرفة راكضة ، وهبطت السلم الى الشرفة .

ولحظةَ شرعت تهبط درجات الشرفة رأت غرايدي وسكيتر يشهران مسدسيهما ويطلقان النار . وصاحت ، ولكن صوتها ضاع في غمرة من الرصاص المدوّي . وكان غرايدي اسرعهما الى الحركة . لقد تدلت يداه على جانبيه ، وسقط المسدس من بين أصابعه ، وخرّ على الارض . عندئذ صوّب سكيتر مسدسه اليه في اناة وأفرغ في جسده رصاصتين إضافيتين. ثم انه نظر الى غرايدي لحظة ، وانطلق الى سيارته . وصاحت لوسيان في مثل الجنون واندفعت عبر الفناء ، ولكنها لم تستطع ان تبلغ السيارة . كان سكيتر قد أضاء مصابيحها الأمامية القوية وكانت السيارة تهبط الدرب هادرةً .

وخرت على ركبتيها الى جانب غرايدي ، ورفعت رأسه بذراعيها . كانت عيناها مظلمتين بالدمع ، فكان عليها ان

تكفكف عبراتها قبل ان ترفق الى رؤيته بوضوح .
وصاحت كسيرة الفؤاد :
ـ « غرايدي ! غرايدي ! »
وفتح عينيه، ونظر الى وجهها . وطافت بشفتيه حين عرفها ابتسامة لا تكاد تُلمح في الغسق.
وقالت في رقة :
ـ « اوه ـ غرايدي ، لماذا حدث شيء مثل هذا ؟ ـ لماذا ؟ لمـــاذا ! »
وفاضت عيناها بالدموع ، كرة اخرى ، فكان عليها أن تمسحها بظاهر كفيها .
وقال في وهن :
ـ « انها لم تنته الى نتيجة حسنة جداً ، اليس كذلك يـــا لوسيان ؟ ولقد خرجتِ بصفقة المغبون . كان ينبغي ان لا يتم شيء من ذلك . »
وضمته الى صدرها وقالت :
ـ « لا تقل ذلك، يا غرايدي . يجب ان لا تنظر الى الامور على هذا الشكل . »
ـ « قولي ما تشائين ، ولكني اعرف انهـــا كانت صفقة خاسرة بالنسبة اليك، يا لوسياني. أنا لم أحسن معاملتك. والغلطة كلها غلطتي . أنا آسف الآن ، ولكن بعد فوات الأوان . ولو قُدِّر لي ان انعم بفرصة اخرى اذن لحاولتُ ولكني لا ادري ما اذا كنت سأوفق الى أن انهج نهجاً افضل في المرة القادمة. يخيل

اليّ ان الامر لم يكن طوع يدي .لقد أردت ان أحسن معاملتك ولكني لم أستطع . »

— « اوه ، غرايدي ، لقد احببتك دائماً على الرغم من كل ما حدث . لم يكن لي في ذلك حيلة . لقد عرفت دائماً اني سأظل احبك ما دمتَ على قيد الحياة ....»

وحبست انفاسها في عنف عندما ادركت ما الذي نطقت به ، وهصرت جسده بين ذراعيها هصراً اكثر إحكاماً .

وقال في اناة ، والكلمات تتشكل على شفتيه تشكلاً واهناً :

— « لا تحزني علي كثيراً ، يا لوسياني . لقد بذلت غاية جهدي ، ولكني لم أوفق . يخيل اليّ أني خُلِقْت لأكون ما أنا . »

كان يزداد ضعفاً على ضعف . وأرادت ، وهي تضمه بين ذراعيها بحنان ، ان تقول شيئاً ، ان تقول اي شيء ، يمكن ان يسرّي عنه ، ولكن حنجرتها كانت مختنقة ، ولقد امتنعت شفتاها عليها عندما حاولت أن تحركهما .

— « لوسياني .... »

وانحنت فوقه ، ناظرة الى عينيه .

— « نعم يا غرايدي ؟ قل لي ما تريد ! »

— « لوسياني ، اذكريني في يوم من الايام . »

كان في استطاعتها ان تحس بثقل غير متوقع في جسده ؛ وسارعت الى اعتصاره بين ذراعيها فيما كانت العبرات تتحدر على وجهه الساكن الشاحب .

وتناهت الى سمعها أصداء أقدام تعدو فوق الرمل الابيض القاسي . وعندما أجالت بصرها في ما حولها استطاعت ان ترى ظلالاً مرتعشة وضوء فانوس يكتنفها .

— « مس لوسيان ، يا آلهي ، اي شيء رهيب قد حدث ؟ »

وعرفت صوت مارتا المذعور . كانت مارتا ، والعم جيف دايفيس ، و بينْت ، وخمسة او ستة من زنوج الحي واقفين في ضوء الفانوس . وسُلطت عليهم مصابيح سيارة ما لبثت ان صعّدت في الدرب ووقفت فجأة امام البيت .

وأعولت مارتا حين وقع بصرها على جسد غرايدي ملقى على الأرض ، و ركعت الى جانب لوسيان :

— « اوه ، يا الهي ، ساعدنا الآن ! اوه يا الهي ، يا الهي ، ساعدنا الآن ! »

وترجل بين باكستر من سيارته ، وهرع نحوهم .

وقال لاهثاً ، وقد ركع الى جانب لوسيان :

— « لوسيان ! لقد جئت الى هنا بأقصى مــا استطعت من سرعة . فما ان سمعت ان سكيتر غادر المدينة وتوجه بسيارته الى هنا حتى جئت باسرع ما استطعت . لقد كنت اخشى ان يقع شيء مثل هذا الذي وقع . »

وسمعوا ضجة في المدخل فالتفتوا ليروا ماما ايلزي تهرع الى الشرفة . ووثب بين باكستر واندفع الى السلم ليحول دون مجيئها الى الفناء حيث كان غرايدي منطرحاً ، ولكن جسدها الضخم خرّ ثقيلاً على الارض قبل ان يصل « بين » اليها . ومــا ان

ادركت لوسيان ما حدث حتى ركضت نحوها .

ولكن « بين » أمسك بها على السلم ، وقال هازاً رأسه :

— « لقد فات الأوان ، يا لوسيان . كان الاهتياج المفاجىء والاجهاد الناشيء عن العَدْو خلال البيت أقسى من ان يتحملها قلبها الضعيف . »

وأومأ « بين » الى الرجال الزنوج فحملوا جثة ماما ايلزي ورجعوا بها الى البيت ووضعوها على الأريكة في غرفة الاستقبال، وحين انقلبوا الى الفِناء كان ويل هاريسون وبُراد يترجلان من سيارة النقل .

وقال « ويل » لـ «بين» :

— « لقد سمعنا طلقات الرصاص ثم رأينا سيارة تنطلق راجعة في سرعة شديدة . وادركتُ في الحال أن شراً قد حدث هنا . »

وراقب بُراد لوسيان و « بين » . ثم تساءل بعد فترة :

— « من الذي قتل غرايدي ؟ »

فقال له «بين» :

— « سكيتر ويلهايت كان هنا . »

وأنعم بُراد النظر اليه :

— « وانت ما الذي تفعله هنا ؟ »

ونظر اليه «بين» في دهش ولكنه لم يقل شيئاً .

وقال ويل :

— « لقد قلت عندما سمعت هذه الطلقات ان سكيتر ويلهايت هنا من غير شك. كان لا بدّ لهذا ان يحدث عاجلاً أو آجلاً . ان

كلاً منهما ، غرايدي وسكيتر ، مـن ذلك النوع من الناس الذين يحلون المشاكل بالمسدس حين تستعصي المشاكل على الحل. ولقد كنت واثقاً من ان شيئاً مثل هذا سوف ينفجر بينهما . لم يكن في امكان من يعرفهما معرفتي أنا أن يشك في ذلك . »

وتقدّم ويل نحو المنزل .

وقال :

– « يبدو لي أن من العبث الذي لا طائل تحته ان نستدعي طبيباً . ولكني سوف أتلفن الى الطبيب على كل حال . ولا بُدّ من اعلام « الشريف » في الحال ، ولسوف اقـوم بذلك انا أيضاً . »

وبعد ان دخل ويل البيت مضى «بين» الى حيث كان العـم جيف دايفيس واقفاً مع جماعة الزنوج .

وقال له « بين » :

– « ان كل شيء سوف يُسَوّى ، هنا ، بعد بضعة أيام ، أيها العم جيف دايفيس . وبعد ذلك سيكون في ميسورك وميسور زوجتك ان تنتقلا الى المدينة . وفي امكانك ان تخبر كل امرىء في الحيّ انه يستطيع الرحيل ايضاً . »

فقال الزنجي العجوز في خشوع والدمع يملأ عينيه :

– « اشكرك، يا سيدي مستر بين . أنا اشكرك من غير شك، يا سيدي مستر بين . »

وحين استدار « بين » ليتقدم نحو لوسيان وجد نفسه مـع براد وجهاً لوجه .

وقال براد مغضباً :

ـ « ما هذا الذي تفعله ؟ من الذي اجاز لك ان تصدر الاوامر هنا ؟ »

فقال له « بين » :

ـ « انا لا أدري ماذا تعني . ألا ينبغي ان يتقدم احد للمساعدة ؟ ان لوسيان تحتاج الى من يساعدها في وقت كهذا... »

فقال ُبراد ، مرتداً الى الوراء ، رافعاً ُجمع كفيه :

ـ « انت تريد ان تنتزعها مني ! »

واندفعت لوسيان نحو « بين » وأمسكت بيده. وخفض « بين » بصره نحوها ذاهلاً مرتبكاً .

ثم انه قال لها مستطاعاً :

ـ « لست أفهم شيئاً ، يا لوسيان . هل تريدين ان أمضي لسبيلي ؟ »

فسارعت الى هز رأسها هزة نفي ، وولت ُبراد ظهرها ، وضغطت وجهها على صدر « بين » .

وتقاصرت أنفاس ُبراد وهو يراقبهما في حنق متعاظم . كان دم الغضب يشيع في وجهه .

وقال في نبرة تأنيب منفعلة :

ـ « انا لست كفؤاً لك ، اليس كذلك ؟ انك لا تريدين ان يكون لك اي شأن معي لأني فلاح وضيع ! لقد كان علي أن أدرك ذلك ! انتِ مثلهم كلهم ، تماماً . ولقد خدعتِني ، لأني حسبت أنك مختلفة عنهم . ولكنك لست مختلفة ! انت مثل اي

فرد من أفراد اسرة دانبار ! »

قال ذلك وخطا بضع خطوات عبر الفناء ، ثم أضاف :

— « اذهبي وابقي مع النوع الذي تنتسبين اليه . ولكن لا بد ان يجيء يوم تندمين فيه على عدم اختيارك لي حين سنحت لك الفرصة . »

واستدار ، ومضى لسبيله في الظلام . وبدأت نسائم المساء المنبعثة من الوادي تداعب اوراق البلوط الاحمر كرة اخرى . وفوق الهضبة انتشرت رائحة الصنوبر المحروق حرّيفة حادة .

(انتهى)